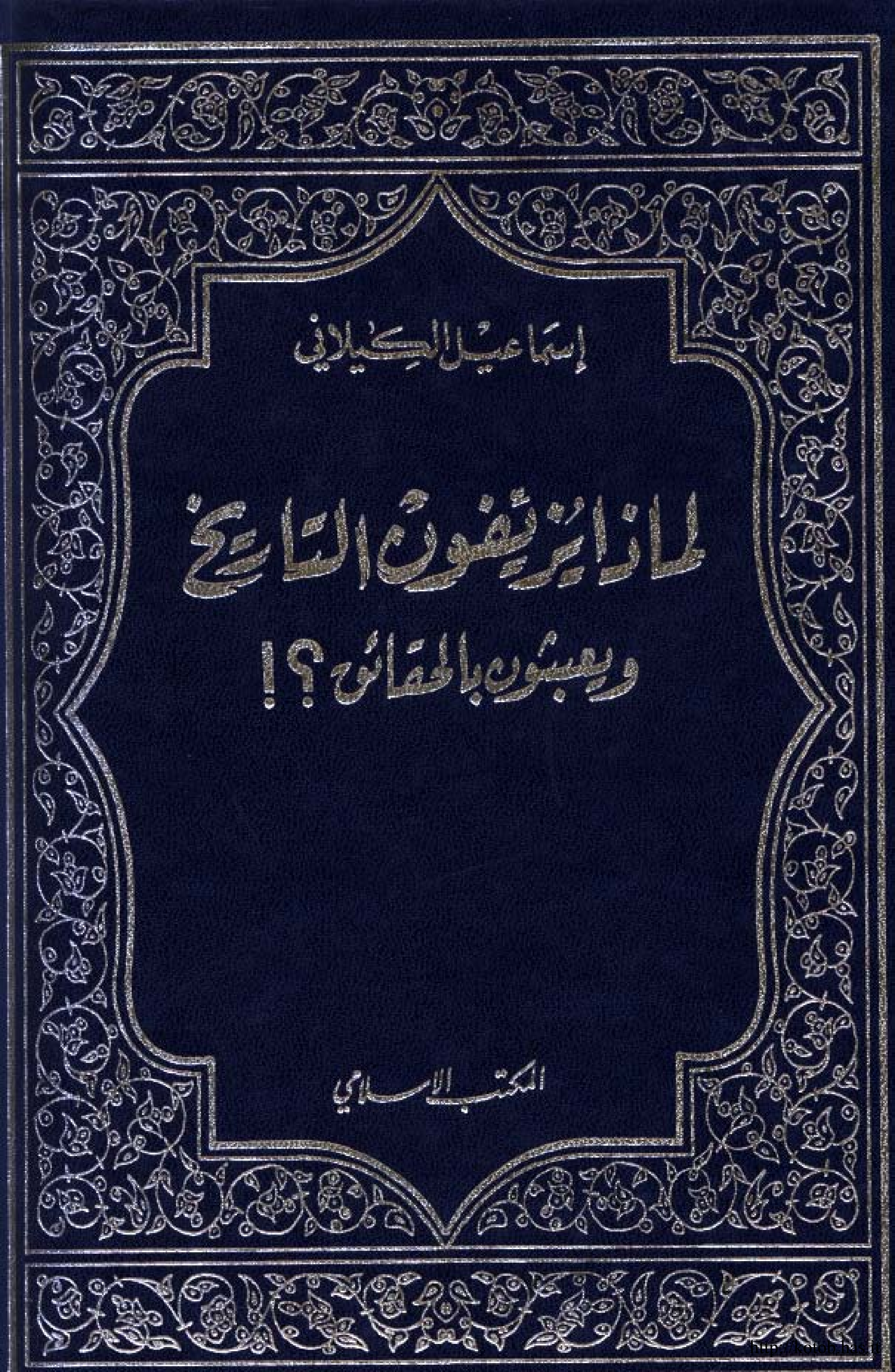

إسماعيل الكيلاني
لماذا يزيفون التاريخ
ويعبثون بالحقائق؟!
المكتب الإسلامي
http://kotob.has.it

لماذا يزيفون التاريخ

ويعبثون بالحقائق؟!

تأليف

إسماعيل الكيلاني

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م



بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى التي زرعت في قلبي محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم
وآل بيته الطاهرين ومحبة أصحابه رضوان الله ورحمته عليهم
إلى التي عودتني الصدق وقول الحق مهما كان مرّاً
الصابرة الأمينة على درب اليتم الطويل

أمّي

اعترافاً بفضلك وعهداً على طاعتك ما حييت
بإذن الله تعالى.

إسماعيل الكيلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم

الدكتور عدنان زرزور

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته، ومن تبع هداه، ولزم شريعته، واقتدى بسنته إلى يوم الدين، **وبعد**:

ـ ١ ـ

فإن الإنسان مرتبط في وجوده في عالم الشهادة بقانوني الزمان والمكان، على الرغم من أن هذا الوجود متعلق ـ في حقيقة الأمر ـ بالزمان فوق تعلقه بالمكان. ومن الواضح في جميع الأحوال أن هذا الوجود الزماني ـ ان صح التعبير ـ مرتبط بحركة الأجسام ـ الأرض أو المكان ـ من جهة، كما أن أثره يبدو حاسماً على الجانب المادي «أو الجسمي» من الإنسان، من جهة أخرى؛ قال الله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضَعف ثم جعل من بعد ضَعفٍ قوّة ثم جعل من بعد قوّةٍ ضَعفاً وشيبةً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ سورة الروم، الآية ٥٤.

وحين يقسم الإنسان الزمان إلى حاضر وماض ومستقبل.. فإنه يعتمد في ذلك على «الحاضر» لأنه هو عنوان وجود الإنسان «في الزمان» أو على قيد «الحياة!» فما يسبق هذا الحاضر هو الماضي أو «التاريخ» وما يلحقه أو يأتي بعده ـ بناء على حركة الأجسام أو حركة «المكان» ـ هو «المستقبل»!

وما يزال الإنسان يطلب الترقي ويسعى إليه في «الحاضر والمستقبل» ـ معتمداً في ذلك على «الماضي» إن شاء ـ أي أنه يطلب لنفسه ذلك الرقي والتقدم في جانبه الأدبي والمعنوي، أما جانبه المادي أو «الجسمي» السابق، فهو

خاضع في تحوله وانتقاله، من الضعف والجهل، ثم إلى القوة والعلم، ثم إلى الضعف والشيبة مرة أخرى.. خاضع في هذا كله إلى سُنَّة لا يملك لها دفعاً ولا تحويلا.. لأنها سنّة إلـهية ثابتة لعلنا لا ندري على وجه اليقين كيف مُزج فيها الزمان بالمكان.. حتى كان لحركة الأجسام مثل هذا التأثير على «جسم الإنسان» أو على الانسان بوجه عام.. ونحن لا ندري كذلك على كل حال، ما ستكون عليه حال الإنسان لو لم يكن هنالك ليل أو نهار، وسنون أو حساب؟!! قال الله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شيء فصّلناه تفصيلا﴾ ــ سورة الإسرا: ١٢. وقال تعالى: ﴿إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حُرم..﴾ سورة التوبة، الآية ٣٦.

وبهذه المناسبة، فقد وضعت الآيات القرآنية التالية الإنسان أمام هذا التساؤل ودفعته للتفكير في هذا الاحتمال؛ قال الله تعالى:

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من آلـهٌ غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون! قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من آلـهٌ غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ سورة القصص، الآيتان ٧١-٧٢.

لأن هذا معناه أو فحواه، بحكم العادة والسنن القائمة، انقطاع الحركة، أي توقف الزمان الأرضي أو الانساني!

من ذلك كله تبدو أهمية «الماضي» أو «التاريخ» في «حياة» الإنسان! تأسيساً على «وعيه» للزمان، و«قدرته» على أن يبني على جانبه الماضي، ويعتبر به، ويفيد منه! لا غرو أن اعتبر «التاريخ» لذلك من خصائص الإنسان، كما يقول بعض الباحثين، ولا شك في أن «الإنسان» ــ شعوباً وأمماً وقبائل ــ كان له في هذا «الأمد البعيد» تجارب غنية ومتنوعة.. وحصيلة ضخمة، تصلح أن تشكل «ذاكرة» مشتركة لإنسان اليوم، يستطيع من خلالها، أو في ضوئها، أن يواجه أوضاع «الحاضر» ويخطط على هداها «للمستقبل» ومهما قيل في هذه

الملاحظات وسواها، فإننا لا نرتاب في أن من «يفهم» التاريخ يكون أقدر على «سياسة» الحاضر، و«التعامل» مع المستقبل! لأن «اليوم» ــ كما قالوا ــ هو وليد الأمس، وجنين الغد! بل إن المستقبل يكاد يكون ملكاً لمن أدرك الماضي وفهم دلالاته وعبره، ووقف على السنن التي تحكم سيره، وتوجه أحداثه ووقائعه!!

ولما كان القرآن الكريم «إنساني» الرسالة، ويمثل الخطاب الإلـهي الأخير الجامع ــ للإنسان ــ إلى يوم الدين، فقد تضمن عرضاً شاملاً لمواطن العبرة والدلالة في تاريخ الأمم والشعوب السابقة ــ وبصورة خاصة من خلال القصص القرآني أو «تاريخ» الهداية الالـهية المتمثلة في رسالات الأنبياء السابقين وسيرتهم ومواقف شعوبهم وقبائلهم ــ وقد أتى هذا العرض الشامل على السنن النفسية والاجتماعية، ومدى ارتباط هذه السنن بعضها ببعض.. ومدى علاقتها بالسنن الطبيعية والإيمانية جميعاً... وما يتصل بذلك كله من أسباب قيام المجتمعات والحضارات.. ومظاهر تفسخها وانحلالها، وأسباب هلاكها واستئصالها... الخ حتى إن الناظر في هذا «التاريخ» ــ الذي يبدأ بخلق الإنسان ــ ينتهي إلى التسليم بما يمكن تسميته «وحدة الإنسان» أو «وحدة التاريخ». فوق تسليمه الذي لا ريب فيه بوحدة «الرسالة» أو الهداية.

ــ ٢ ــ

ونود أن نعرض هنا، من خلال مقارنة عابرة، إلى الأهمية الخاصة التي تحتلها دراسة التاريخ في ظل الأفكار والنظم والفلسفات «الوضعية» في هذا العصر، أو في هذا العصر الأوروبي الراهن من عصور الحضارة الإنسانية ــ أو حضارة الإنسان ــ منذ أقدم عصورها حتى الآن.

عندنا، على صعيد الحياة والمجتمع والتاريخ الإسلامي، أمران:

أولاهما: أن القرآن الكريم تضمن منهج الحياة الأمثل للانسان، وقدم له التفسير الصحيح للكون والحياة والإنسان؛ من حيث النشأة والهدف والمصير. أي أننا نملك هنا: المبدأ ــ المنهج ــ الغاية أو النهاية.

أما **الأمر الثاني: فهو** أن التفسير الإسلامي للتاريخ يمتاز بالرؤية العامة والشاملة؛ فهو يسلط الأضواء على جميع الأحداث الفاعلة والمؤثرة في التاريخ بدون استثناء، ويراها رؤية شاملة عبر الزمان، أو في امتداداتها الزمنية الماضية والحاضرة والمستقبلية.. لأنه تفسير يستمد من «علم الله» الشامل الذي لا يخضع «للزمان والمكان».

في حين أن جميع التفسيرات الأخرى للتاريخ تفتقر إلى هذين الأمرين... فقد سقطت جميعها في «مواضعات العصر النسبية» من جهة، كما أنها عجزت حتى الآن عن تقديم تفسير صحيح ثابت ـ متفق عليه ـ للكون والحياة والإنسان، من جهة أخرى.

والأمر الذي يعنينا الوقوف عنده هنا هو الأمر الثاني.. فمن الملاحظ أن هذه التفسيرات على تباينها في الفكر الأوروبي «الوضعي» الحديث أو المعاصر ـ والمعاصرة هنا لا تعني أكثر من وجودها أو نشأتها في «الزمن» الحاضر على الرغم من أوربيتها وغرابتها ـ اعتمدت على **«حركة التاريخ»!**

ومن هنا اكتسبت الدراسات التاريخية أهميتها المشار إليها في هذا العصر، فوق أهميتها المشار إليها في الفقرة السابقة.

فـ«كومت» على سبيل المثال اعتمد في معالجته «للمعرفة» على «تاريخها» و«ماركس» في معالجته «الاقتصاد» اعتمد على تاريخ الاقتصاد.. بل إن «المذهب المادي التاريخي» في جملته ـ الصورة المعاصرة للإلحاد ـ يقوم على تحليل الحوادث التاريخية بواسطة تطبيق مبادىء البحث الجدلي القائم على مبدأ «النقيض»[1].

وهكذا يلاحظ الناظر في هذه المذاهب ـ الوضعية ـ وقوفها عند أحداث التاريخ، أو اعتبارها التاريخ «مجال» الأفكار والفلسفات والمذاهب.

ولا نعني من هذه الملاحظة «المذاهب أو الأخلاط الوجودية» على الرغم من أن مقولتها «الوجود يسبق الماهية» تنطوي، في جملة ما تنطوي عليه على رفض «التاريخ».. وذلك لأن هذا الموقف السلبي من التاريخ هو الذي ساهم في إعطاء

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث. الأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله ص ٣٢٢ الطبعة الرابعة.

تلك المذاهب هذه السمات، وهو كذلك أحد الأسباب التي أضحت معه هذه المذاهب ظاهرة عابرة!

— ٣ —

وغني عن البيان أن نشير هنا إلى أن «حركة التاريخ» التي اعتمد عليها الباحثون أو أصحاب المذاهب الأوربية كانت «تاريخهم» هم على اختلاف مراحله، وعلى تعدد استنتاجاتهم منه، أو تفسيراتهم له! وسواء تحقق بعضهم من «علميته» قبل الانتقال إلى «فلسفته» أم لا! علماً بأن «التعميم» — كذلك — كان سمة آرائهم ومذاهبهم على وجه الإجمال.

وهذا وجه حاسم من وجوه المفارقة بين التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوروبي.. إن التاريخ الإسلامي — أو حياة ووقائع المسلمين المنقولة إلينا عبر «التراث الثقافي» — ليست هي الأصل، وليست هي «مجال» أو مصدر الحكم والاستنتاج الذي تؤخذ منه «نظرية المعرفة» أو «تاريخ الفكر» أو فلسفة الاقتصاد! إنها لا تعدو أن تكون نماذج أو أمثلة وشواهد من تطبيق الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة لا يتغير ولا يتبدل! ولو جاز اطلاق لفظ «نظرية» على الإسلام بهذا الاعتبار لقلنا: إن «النظرية الاسلامية» لا تصاغ أو تستنبط اليوم من خلال «حركة التاريخ الإسلامي» — فعلْ الغربيين السابق — ولكن حركة التاريخ هذه كانت في حقيقتها استجابة للهدي الالّهي أو للإسلام بكل عناصره ومواصفاته السابقة! ومعنى ذلك أن تقويم هذه الحركة مداً وجزراً، وصعوداً وهبوطاً... نابع من مدى تحقق المجتمع الاسلامي بالشروط القرآنية، أي من مدى فهمه وتطبيقه «لتلك النظرية» إن صح التعبير!... وليس للمسلمين — وحتى الصحابة والرسول ﷺ بين ظهرانيهم — أية حصانة تجعلهم يلغون القاعدة، أو يحلون محل «النظرية» أو الأصل!! يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن منهج الله ثابت، وقيمه وموازينه ثابتة، والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج، ويخطئون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد التطبيق والسلوك، ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوباً على المنهج، ولا مغيراً لقيمه وموازينه الثابتة! وحين يخطىء البشر

في التصور والسلوك فإنه يصفهم بالخطأ، وحين ينحرفون فإنه يصفهم بالانحراف، ولا يتغاضى عن خطئهم ـــ مهما تكن منازلهم وأقدارهم ـــ ولا ينحرف هو ليجاري انحرافهم..» [1].

ـــ ٤ ـــ

ومن هذا كله يتبين لنا أن أزهى عصور التاريخ الإسلامي هي العصور التي طبق فيها الإسلام ـــ المنهج ـــ أروع تطبيق.. بل إننا إذا أردنا أن نتبين «الواقع التاريخي للإسلام» أي عصر المواءمة أو المطابقة بين «المنهج والتطبيق» فإننا نجده في كل فعل صنعه المسلمون موافقاً للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة. وقد نميزه بذلك عن «كل فعل أو وضع صنعه المسلمون في حياتهم أو «تاريخهم»[2]! لأن هذا لا ينطبق عليه أنه «واقع تاريخي للإسلام» وإن كان ينطبق عليه أنه حصل في تاريخ المجتمع الاسلامي وحياة المسلمين! وهذا موضوع آخر لا نعرض له الآن.

وهذا انفرد آل بيت النبي ﷺ وصحابته الكرام من المهاجرين والأنصار ـــ وهم قرن النبي ﷺ ـــ بمنزلة فريدة ومكانة سامية في «التاريخ الإسلامي» تكافىء منزلتهم في الفهم والعمل، والتضحية والبذل، والنهوض بعبء حماية الدعوة ـــ المنهج ـــ والدفاع عنها، والتبشير بها في بقاع الأرض! روى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

أ ـــ قال الله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى﴾ سورة الشورى، الآية ٢٣ وقال تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ سورة الأحزاب الآية ٣٣. وروى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «أيها الناس ارقبوا محمداً في أهل بيته» وكان يقول: «لقرابة رسول الله ﷺ أحب اليَّ أن أصل من قرابتي» وفي المناقب للإمام أحمد بن حنبل: «من أبغض أهل البيت فهو منافق».

---

(١) الظلال: ١٦٨/٤.
(٢) راجع الظلال الصفحة السابقة.

ب ــ وقال تعالى: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة.. ﴾ سورة الفتح، الآية ١٨ وقال تعالى في وصف الصحابة أيضاً: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزُّرَّاع ليغيظ بهم الكفار﴾ سورة الفتح، الآية ٢٩.

ولقد استدل الإمام مالك رحمه الله بهذه الآية على تكفير من يبغض الصحابة لأن الصحابة يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر! وقد وافقه على هذا جماعة من العلماء. ويكفي ثناء الله تعالى عليهم ورضاه عنهم، وقد وعدهم مغفرة وأجراً عظيما، ووعد الله حق، ولا مبدل لكلماته.

ــ ٥ ــ

إذا كانت هذه بعض سمات «التاريخ الاسلامي».. والتاريخُ أحد عناصر «التراث الثقافي الإسلامي».. وكان هذا التراث قد دار في جملته حول «القرآن والحديث» أي حول الوحي والغيب، والرسالة والرسول؛ فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل يتأتى فهم التاريخ الاسلامي وتفسير أحداثه لمن لا يعتقد أن القرآن كلام الله، وأن محمداً رسول صادق في التبليغ عن ربه عز وجل!

بل إننا نذهب في هذا التساؤل إلى أبعد من ذلك وأوضح، فنقول: إذا كان الباحث لا يقيم وزناً لبعض مقومات النفس البشرية الروحية والفكرية والحيوية، أو لبعض مقومات الحياة البشرية الغيبية والمعنوية والمادية.. ــ كل ذلك على النحو الذي دارت عليه عجلة الحضارة الاسلامية والحياة الاسلامية في التاريخ ــ أو إذا تقدم الباحث الغربي، على وجه الخصوص، للنظر في التاريخ الإسلامي من خلال الأدوار أو المراحل التي مر بها الفكر والمجتمع الأوربي، وهو يعتقد أنها أدوار أو مراحل تنطبق على جميع الأمم والشعوب، أو يمكن من خلالها دراسة التاريخ الانساني كله، ولم يفطن إلى أن الإسلام ــ على سبيل المثال ــ تعامل مع هذه الجوانب أو الأبعاد ــ وهي: الدين ــ العقل ــ الحس ــ على أنها أمور متجاورة

في النفس الانسانية وليست أدواراً متعاقبة ينتقل فيها الانسان من دور إلى دور، ومن عصر إلى عصر... فكيف يمكن لمثل هذا الباحث أن يفهم التاريخ الإسلامي على نحو صحيح، وكيف يمكن له أن يتعامل مع سائر عناصر التراث الثقافي للمسلمين؟.. هذا كله مع افتراض الموضوعية والنزاهة وحسن النية!! وأذكر بهذه المناسبة أن تفسير «نبوة محمد» ﷺ عند هؤلاء وعند من «نقلها» عنهم من العلمانيين وغلاة القوميين.. على أنها جاءت «ملبية أو متساوقة» مع «المرحلة الدينية» أو طبيعة الاصلاح المنشود، وأنه كان «دينياً» في تلك المرحلة أو ذلك الحين ـــ بدون تصريح منهم بتصديق دعوى النبوة أو تكذيب ـــ أقول: ربما كان هذا نتيجة للتسليم أو الاعتقاد بتلك الأبعاد أو الجوانب على أنها مراحل... على النحو المعهود في تاريخ الفكر الأوروبي، وما كان على شاكلته من الفهم السقيم!

يقول الله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنّما أُنزل اليك من ربّك الحقُّ كمن هو أعمى إنما يتذكّر أولوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ الآيتان ١٩-٢٠ سورة الرعد. وبهذه المناسبة نقول: ألا يمكن أن نصف «بالعمى» كل من لا يصدق محمداً ﷺ في أن القرآن أنزل إليه، وأنه تلقاه من «لدن حكيم عليم».. وأن هذا الذي أنزل عليه هو الحق؟!! فإذا كان الأمر كذلك فما عسى أن يقرأ الأعمى أو أنه يفقه في التحليل والتركيب.. والشرح والتفسير؟!

يروي الأستاذ الجليل الدكتور عمر فروخ ـ رحمه الله ـ الحادثة التالية التي وقعت له مع أستاذه المشرف أيام دراسته العليا في ألمانيا في عشر الثلاثينات (سنة ١٩٣٦) فيقول:

«كنت مرة في بيت أستاذي ـــ يوسف هلّ ـــ أقرأ عليه فصلاً من رسالتي، فمر في أثناء الكلام ذكر محمد رسول الله، قال: يا عمر أنت تكتب رسالة علمية وتقول: محمد «رسول الله»! قال الدكتور فروخ: فطويت الأوراق التي كانت بين يدي ونهضت قائماً، فقال لي: لم فعلت ذلك؟ قلت له: لأنني أريد أن أرجع إلى بيروت! فقال مستغرباً: لماذا؟! قلت له: لا أريد أن أدرس على أستاذ يضيق صدره إذا أنا قلت: «محمد رسول الله» وهو يعتقد ـــ وكان يوسف هلّ كاثوليكياً ـــ أن المسيح هو الله بالذات!! قال لي: اقعد واكتب ما بدا لك»[1].

(١) كتاب غبار السنين ص ٦٦.

إن دراسة التاريخ الإسلامي لا تستقيم، لهذا كله، من خلال مفاهيم الأوربيين ــ مستشرقين كانوا أم مستغربين ــ الخاصة عن الدين والدولة، والمجتمع والكنيسة.. ولا من خلال عقائدهم في الله والانسان.. أو تاريخهم الفكري والاجتماعي والديني والسياسي على حد سواء!

إن مثل هذه الدراسة تحمل في طياتها ــ إن قدر لها أن تسلم من الشعور بعقدة التفوق، ومن كل عوامل العداء والرغبة في الانتقاص ــ مغالطات شديدة وأخطاء فاحشة قد تصل في كثير من الأحيان إلى حد قلب المفاهيم وتبديل الأوضاع!

والواقع أن في وسعنا أن نلاحظ ذلك، من خلال هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء، ومن خلال ملاحظاتنا السابقة التي أشرنا فيها إلى أزهى عصور التاريخ الاسلامي، والشروط التي تحققت فيها حتى احتلت هذه المكانة الفريدة! أقول: إن الزنادقة والمرتدين وجمهور المستشرقين والمستغربين حين لا يقيمون وزناً لهذه الشروط... أو حين يجهلون أو يعجزون ــ في أحسن أحوالهم ــ عن فهم طريقتها في العمل والتأثير نجدهم يكادون لا يفردون بالنقد اللاذع، والتشويه الشديد إلا تلك العصور الزاهية التي عكست «الواقع التاريخي للاسلام» كما أوضحناه قبل قليل.. في حين نجدهم ــ في الصورة المقابلة ــ يعنون أشد العناية بدراسة حركات الرفض والخروج على الاسلام، ويسلطون عليها الأضواء، وربما خصّوها بالمديح والإطراء ــ بالاشارة مرة ــ وبالتصريح مرات أخرى.. ولعل هذا من أبرز أسباب عناية «المستشرقين» الدائبة بإخوان الصفا، وتسليطهم الأضواء على الزنادقة والملاحدة «والشخصيات القلقة» إلى جانب عنايتهم المحدثة ــ نسبياً ــ بالزنج والقرامطة والحشاشين.. وبسائر الفرق الباطنية الغالية والمناقضة في تاريخ الفكر «الاسلامي» وتاريخ «المجتمع» والحياة الإسلامية! ولهذا فإن شبهاتهم ومطاعنهم كانت أشد ما تكون على النبي ﷺ نفسه وعلى صحابته الكرام رضوان الله عليهم!

فإذا أضفنا إلى ذلك أن جميع المبشرين والزنادقة والمرتدين ينزعون في الرغبة في انتقاص الإسلام عن قوس واحدة! أدركنا اليوم لماذا تلتقي دراسات هؤلاء المبشرين وأولئك الزنادقة في حقل التحريف والتشويه. يقول الأستاذ العلاّمة

الدكتور محمد البهي رحمه الله: «ولا يعرف العقل ولا المنطق حداً لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الاسلامي، وتشويه لمبادىء الاسلام وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله. وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي قام به الإسلام في تاريخ الثقافة الانسانية». ويضيف «إن المستشرقين جميعاً فيهم قدر مشترك في هذا الجانب. والتفاوت ــ إن وجد بينهم ــ إنما هو في الدرجة فقط، فبعضهم أكثر تعصباً ضد الإسلام وعداوة له من البعض الآخر، ولكن يصدق عليهم جميعاً أنهم أعداؤه!»[1].

ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة ــ على سبيل المثال ــ أن يكون العيب على الصحابة من فعل «الزنادقة» كذلك! لأنهم أرادوا أن يتوصلوا من خلاله إلى الطعن على النبي ﷺ، وإلى التشكيك بصحة الرسالة! فلما جاء المبشرون والمستشرقون اختصروا الطريق! قال أبو زرعة الرازي رحمه الله: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق! وذلك أن الرسول ﷺ حق، والقرآن حق، وما جاء به حق. وإنما أدى ذلك كله إلينا الصحابةُ رضوان الله عليهم، وهؤلاء الزنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة!» اهـ.

قلت: وربما أرادوا من طرف آخر أن يقولوا: «إن محمداً ﷺ كان يصحب صحابة سوء! يومئون بذلك إلى الطعن في شخصه الكريم.. لأن الرجل يكون على شاكلة أصحابه ومريديه! وعزّ وجه النبي وتنزّه مقامه ومقام أصحابه الأبرار من المهاجرين والأنصار عن هذا الفكر الملوّث والدسّ الرخيص!

ــ ٧ ــ

ويأتي هنا دور «النابتة» التي ظفر بها الاستعمار والتبشير والاستشراق في بلاد المسلمين، من طريق البعثات والمدارس وسائر وسائل التغريب والتنصير، في «تبني» دسائس الزنادقة، وشكوك المبشرين، وشبهات المستشرقين.. تترجم أو تنسخ لتصير بها هذه النابتة من «المؤرخين» وللإسلام وبني الإسلام وصحابته الكرام من «المحلّلين والناقدين»!

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٢٧.

وأحب هنا أن استشهد مرة أخرى بقول للدكتور البهي أوجز فيه رحمه الله دوافع الدراسات الاستشراقية، من وجه، كما أشار إلى الطريقة التي تشاع بها هذه الدراسات ويتم «تلقينها» من وجه آخر. مع الاشارة إلى أن التعليق على هذا الوجه الثاني أمر يطول، وسوف نرجىء الكتابة فيه إلى مناسبة أخرى إن شاء الله.

يقول الأستاذ رحمه الله: «ودراسة المستشرقين للإسلام قامت **أولاً** بوحي من الكنيسة الكاثوليكية خاصة للانتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه؛ حرصاً على مذهب «الكثلكة» من جانب، وتعويضاً عن الهزائم الصليبية في «تحرير» بيت المقدس، من جانب آخر. **ثم** تبنى الاستعمار الغربي هذه الدراسة في الجامعات الغربية نفسها، حتى يقوى القائمون بأمرها على تصديرها إلى الشرق الإسلامي في صورة **كتب** تؤلف وترسل لطلاب الثقافة، أو في صورة **طلاب** من الشرق الاسلامي يُدعون أو يُعانون على الدراسة هناك، ثم يمنحون من الألقاب العلمية ما يتمكنون بها من الظفر بوظيفة **التوجيه** في الكليات النظرية بالجامعات الحديثة في الشرق الإسلامي»[1].

ـ ٨ ـ

ونصل أخيراً إلى دور هذا الكتاب، أو هذه الفصول التي كتبها أخونا الكريم الأستاذ إسماعيل الكيلاني.. يرفده في ذلك زاد شرعي وتاريخي، وإدراك للعناصر الفاعلة والمؤثرة في التاريخ الإسلامي. بحكم الانتماء والتعاطف مع أحداث هذا التاريخ. ولهذا فقد جاءت هذه الفصول من موقع التصحيح والتصويب، لا من مواقع الدفاع وردود الأفعال! ومن ثم، فإنها لا تفتقر إلى صحة النقل والتوثيق، كما لا تفتقر فيما نلاحظ إلى صواب الرأي والحكم، والله أعلم.

أدعو الله تعالى أن ينفع بهذه الفصول، وأن يجزي كاتبها عن الإسلام والمسلمين خيراً، وأن يوفقنا جميعاً إلى النهوض بفروض الكفايات في أمة ما تزال تجاهد منذ أمد حتى تعود إلى عصر السيادة مرة أخرى ... على الرغم من بُعد الشقة ووعورة الطريق... وعلى الله قصد السبيل والله المستعان.

عدنان زرزور

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث، ص ١١ ط ٤.

مُقدّمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً؛ وأشهد ألاَّ إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً ﷺ عبده ورسوله؛ ﴿يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾. ﴿يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾. ﴿يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

أما بعد؛ فقد جاء في الحديث المرفوع عن معاذ رضي الله عنه: «إذا حدث في أُمَّتي البدع، وشُتِمَ أصحابي، فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، وأخرج أبو بكر الشيباني عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لعنت آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره، فإن كاتم العلم ككاتم ما أنزل الله على محمد ﷺ» (كتاب السنة: حديث رقم ٩٩٤) وما ذلك إلا لأنَّ

أصحاب رسول الله ﷺ هم أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلّفاً، وأقومها هَدْياً، وأحسنها حالاً؛ اختارهم الله سبحانه وتعالى لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه؛ فهم جيل القدوة، وحملة الوحي الإلٰهي إلى البشرية جمعاء ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُم شَهِيداً﴾ فالعيب عليهم عيب على الدين نفسه، والطعن فيهم طعن في الإسلام ورسوله ﷺ[1]، روى الإمام الحافظ الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد: ١٠/١٧٤ في ترجمة عبدالله بن مصعب الزبيري) أن أمير المؤمنين المهدي سأله قائلاً: يا أبا بكر، ما تقول فيمن ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال عبدالله: زنادقة. قال المهدي: ما سمعتُ أحداً قال هذا قبلك. فقال عبدالله: هم قوم أرادوا رسول الله ﷺ بنقصٍ، فلم يجدوا أحداً من الأمة يتابعهم على ذلك، فتنقَّصوا هؤلاء عند أبناء هؤلاء، وهؤلاء عند أبناء هؤلاء، فكأنهم قالوا: رسول الله ﷺ يصحبه صحابةُ السوء، وما أقبح الرجل أن يصحبه صحابةُ السوء!! فقال المهدي: ما أراه إلاّ كما قلت...

وكان الإمام أبو زرعة الرازي رحمه الله ـ عبيدالله بن عبد الكريم ـ يقول: إذا رأيت الرجلَ ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنه زنديق، لأنَّ الرسولَ ﷺ حقٌّ، والقرآنَ

---

(١) روى مسلم في صحيحه أن الرسول ﷺ قال: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه». وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة ـ يعني مع النبي ﷺ ـ خير من عمل أحدكم أربعين سنة». وروى الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، لعن الله من سب أصحابي».

حقٌّ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة... (الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ٩٧).

ويؤكد هذا المعنى الذي ذهب إليه هؤلاء قول رسول الله ﷺ الذي أخرجه الترمذي في «سننه» وقال: غريب، وابن حبَّان في «صحيحه» عن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه: «اللّهَ اللّهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبَّهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه».

وحين سئل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن الخلاف الذي حصل بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قال: (تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أطهر منها لساني؟! مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسِّها) أما الإمام جعفر الصادق رحمه الله فقد أجاب حينما سئل السؤال نفسه قائلاً: (أقول ما قال الله: علمها عند ربي، في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) (الإنصاف للباقلاني: ص ٦٩).

لذا كان مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الأمر كما قال ابن تيمية رحمه الله في (الواسطية: ٢٥): (الإمساك عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم، منها: ما هو كذب، ومنها: ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون).

وقال القسطلاني (المواهب: ٧/٤٤ ـ ٤٥): (ويجب الإمساك

عن ذكر ما شجر بينهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة،- وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم). أما ابن خلدون فقال في مقدمته: (ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - وهي مقتضى العصبية، كان طريقهم فيها: الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي، أو لإيثار باطل، أو لاستشعار حق، كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد، وإنما اختلف اجتهادهم في الحق، وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب عليّاً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل، وإنما مقصده الحق وأخطأ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق).

ومن المعروف تاريخيًّاً أن حركة الاستشراق جاءت ردًّاً على الفشل العسكري الماحق[٢] الذي منيت به الحركة الصليبية فلم

---

(٢) يقول الدكتور فيليب حتي في كتابه (تاريخ سورية: ٢/٢٦٣):
... ومن النتائج الفرعية الهامة التي تخلفت عن الحملات الصليبية: إنشاء الإرساليات النصرانية للتبشير بين المسلمين؛ فقد اقتنع رجال الفكر بفشل هذه الحروب، وإخفاق الوسائل العسكرية في معاملة المسلمين، وكان الكاهن القطلاني، ريموند لال أول أوروبي شدد على أهمية الدراسات الشرقية كأداة فعالة لنضال سلمي يعتمد على الإقناع بدلاً من الإكراه... وبتأثير ريموند لال جرى الروح الصليبي في مجرى جديد، هو إقناع المسلمين باعتناق النصرانية بدلاً من إبادتهم...
أما الأخوية الكرملية التي لا تزال عاملة في سورية فقد أسسها في هذا البلد أحد الصليبيين سنة ١١٥٧ م وسماها باسم أحد جبالها.
وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي نشأت اثنتان من الأخويات الرهبانية، هما: الفرنسيسكان، والدومينيكان... وأنشأت كل منهما لنفسها فروعاً في كثير من المدن السورية.
وفي سنة ١٢١٩ م زار مؤسس الأخوية الفرنسيسكانية القديس فرنسيس الأسيسي بلاط الأيوبيين في مصر، وأجرىٰ مناقشة دينية عظيمة مع الملك الكامل...
وكتب أسقف دومينيكاني هو وليم الطرابلسي رسالة من أوفى رسائل العصور الوسطى بشؤون المسلمين، موضحاً المواطن التي يتفق فيها الإسلام مع =

تتمكن من تحقيق حلمها بالسيطرة على بيت المقدس (القبر المقدس) والقضاء على الإسلام والمسلمين؛ فكان الغزو الفكري والثقافي ـ وهو الأخطر ـ وكان التاريخ الإسلامي هو الميدان الذي بدأ هؤلاء يصولون ويجولون فيه، تحت ستار المنهجية والعلمية والعقلانية، ونحو ذلك من شعارات ابتدعوها ليغتالوا بواسطتها من ينبهر من ناشئة المسلمين، وبدأ غرسهم يعطي ثماره، فظهر الانتقاص لصحابة رسول الله ﷺ، والتهجم عليهم، ومحاكمتهم من خلال المناهج المادية واللاهوتية التي وضعها هؤلاء لتفسير التاريخ، فكان الافتراء والدسّ، وتصيد الروايات المنحولة، والاعتساف في التفسير، ولم تسلم سيرة الرسول ﷺ نفسه من ذلك... يحدث هذا في الوقت الذي نرىٰ فيه أمم العالم كلها تعنى بإبراز الجوانب المضيئة من تاريخ أسلافها، وتصنعها إن لم تكن موجودة، وتفاخر بهم وبآثارهم؛ أليس من العجيب أن نرىٰ هؤلاء المخدوعين من ذراري المسلمين، وهم يرون هذا ويحسونه، لا يكتفون بهضم حقوق أسلافهم الذين أسسوا حضارة أمتهم ومجدها السالف بعلمهم وعملهم؛ فيحاول بعضهم النيل من قدسية السنة النبوية بالطعن في رواتها وحملتها من صحابة رسول الله ﷺ، ومنهم من يحاول النيل من قدسية القرآن الكريم باتباع المتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، أو بمحاولة تغيير نظمه المعجز الذي نزل به الروح الأمين من لدن حكيم عليم؛ ومنهم من يكيد للغة العرب وعلومها وآدابها ومرسوم خطِّها حتى تنقطع الصلة بيننا وبين كتاب ربنا سبحانه وسنة نبينا ﷺ، وبيننا وبين ماضينا وحاضرنا؟!!

= النصرانية، وموصياً باستخدام المرسلين بدلاً من الجنود لاستعادة البلاد المقدسة؛ وكان نظير زميله وليم الصوري مولوداً في هذه البلاد لكن من أبوين أوروبيين...

والذي بات معروفاً أن بعض هؤلاء المدَّعين، جاهل غبي قد فتن بحب الظهور، أو ملحد يدعو المسلمين إلى الإلحاد لهوىً في نفسه، أو خدمة لبعض الدول الطامعة في أرض الإسلام واستعباد المسلمين... وبعضهم تُمكن أدعياء المنهج العلمي والموضوعية من أن يخدعوه عن الحقيقة ويغرُّوه عن نفسه، فحطب بحبلهم، لكنه سرعان ما ثاب إلى رشده تائباً منيباً إلى الله سبحانه وتعالى، مجاهراً بالحق الذي وصل إليه، والحقيقة الموضوعية التي يجب أن تُعرف...

لذا كان من الواجب ـ إبراءً للذمة وخروجاً من عهدة التكليف ـ بيان وجه الحق في هذا من خلال اعتماد الصدق وتأكيد الحقيقة وذكرها دون زيف أو خداع، وتوخي الموضوعية والبعد عن الهوىٰ والتجريح، وتأتي هذه الدراسة أداءً لهذا الواجب، لتبين الدور الذي يمكن للتاريخ أن يؤديه في صناعة المستقبل، ولتذبّ عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من خلال بيان الحق ونصاعة الحقيقة وهي تظهر زيف وخداع أصحاب المنهج العلمي والموضوعية من أمثال: فيليب حتِّي وتلامذته؛ ولتبين الاعتساف في التفسير وتصيّد الأدلة واقتناصها عندما تعتمد مناهج غريبة عن حسِّ هذه الأمة وواقعها، نبتت في بيئة بعيدة كل البعد عن البيئة الإسلامية لتفسير الإسلام وتاريخه، كما فعل محمد عمارة، ومحمد أحمد خلف الله، وحسين أحمد أمين، وعبد الرحمن الشرقاوي؛ ولتهتك الأستار عن الذين يدعون إلى هجر الفصحىٰ واعتماد العامية والحرف اللاتيني لقطع الصلة بين ماضي هذه الأمة وحاضرها، وإيجاد حاجز سميك بينها وبين مصدر قوتها في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ؛ ومن هؤلاء: لويس عوض المستشار الثقافي لمؤسسة الأهرام سابقاً...

وقد ألحقت بها مقالاً كنت قد بيَّنت فيه ما أعتقد أنه الحقّ ردّاً على مقال كان قد نشره الأستاذ خالد محمد خالد حفظه الله في مجلة الدوحة القطرية، ومقالاً آخر أيضاً ردّاً على مقال كان قد نشره الدكتور عبد الحميد الأنصاري في مجلة الأمة القطرية حول الأغلبية والديمقراطية . . .

ولا أدَّعي العصمة، فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلَّا صاحب هذه الحجرة، كما كان يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى، ويعني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأرىٰ من الواجب عليَّ أن أتوجه بالشكر لفضيلة الشيخ عبدالله بن إبراهيم الأنصاري لما له من أيادٍ بيضاء في مجال إحياء التراث الإسلامي، ونشر الفكر الإسلامي الحديث، ولأنه صاحب الفضل في أن ترى هذه الدراسة النور، ومن لا يشكر النَّاس لا يشكر الله، فجزاه الله خيراً وأجزل له المثوبة.

وأسأله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يلهمنا الرشد والصواب، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

إسماعيل الكيلاني



تمهيد : التاريخ وصناعة المستقبل

لو قرأنا التَّاريخَ ما ضاعتِ القُدْ　　　سُ ولا ضاعت من قبلها الحمراء

لا يجادل عاقل في أن تاريخ أية أمة من الأمم يؤثر في بناء مستقبلها كما يؤثر في حاضرها وواقعها المعاش ، فهو يشكل لها قوة ارتباط ، كما أنه مصدر قوة ووعي ويقظة ، فهو ذاكرتها التي بقدر ما تسلم لها وتحسن التعامل معها تقوى شخصيتها ، وتبرز قدراتها ، ويمتد تأثيرها .. فهي لا تشعر بذاتها وبشخصيتها الحاضرة على الوجه الصحيح إلا إذا كان لها تاريخ ، تماماً كالفرد الذي لا يشعر بكيانه إلا من خلال ذاكرته ، يقول ابن خلدون في مقدمته :

(... التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ...) (ص : ٩) (... التاريخ فن تتداوله الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة

والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال ، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأوَل ، تنمو فيه الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتطرف بها الأندية إذا غصَّها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع فيها للدول النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخليق ...) (ص : ٣ ـ ٤) .

ويؤكد ذلك « ابن الأثير » رحمه الله في معرض رده على من يحاول إنكار أهمية التاريخ ودوره ، فيقول :

(ولقد رأيت جماعة ممن يدّعي المعرفة والدراية ، ويظن بنفسه التبحر والعلم والرواية يحتقر التواريخ ويزدريها ، ويعرض عنها ويلغيها ، ظناً منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها : الأحاديث والأسمار ، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره . ومن رزقه الله طبعاً سليماً ، وهداه صراطاً مستقيماً علم أن فوائدها كثيرة ، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة ، وها نحن نذكر شيئاً مما ظهر لنا فيها ، ونكل إلى قريحة القارئ معرفة باقيها ...

فمن فوائدها الدنيوية : أن الإنسان إذا طالع أخبار الملوك في الشرق والغرب فكأنه عاصرهم ، وإذا علمها فكأنه حاضرهم .

ومنها : أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ، ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس ،

فيرويها خلف عن سلف ، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأحدوثة .. استقبحوها واطّرحوها ، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ... هذا سوىٰ ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرة الأعداء ، وخلصوا بها من المهالك ، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك ، ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى ...

ومنها : **ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث ، وما تصير إليه عواقبها ، فإنه لا يحدث أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره ، فيزداد بذلك عقلاً ، ويصبح لأن يُقتدى به أهلاً ..**

ومنها : **ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريفة من طرائفها ..**

أما الفوائد الأخروية ، فمنها : **أن العاقل إذا تفكر فيها ، ورأى تقلُّبَ الدنيا بأهلها ، وتتابع نكباتها على أعيان قاطنيها ، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم .. زهد فيها ، وأعرض عنها ، وأقبل على التزود للآخرة منها ، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص ، وسلم أهلها من هذه النقائص ...**) (الكامل : ١/٣ وما بعدها).

الإسلام والتاريخ :

لِمَ نذهب بعيداً ، وهذا كتاب الله تعالى الذي ﴿ **لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا مِن خلفه** ﴾ ، في كثير من آياته يحكي للمسلمين وقائع التاريخ وأحداثه ومعطياته ، فلا تكاد سورة من سوره تخلو من واقعة أو حدث ماضٍ أو دعوة للاعتبار ؟! فبعد أن قص الله تعالى على المسلمين قصة **سيدنا يوسف**

عليه **السلام** مع إخوته وعزيز مصر ، كان التعقيب الإلهي : ﴿ **لَقَد كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ (يوسف : ١١١)

ويقول تعالى : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قبلِكُم سُنَنٌ فسِيُروا في الأرْضِ فانظُروا كيفَ كانَ عَاقِبَةُ المكذِّبين . هَذَا بَيَانٌ للّناسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (آل عمران : ١٣٧ ـ ١٣٨) .

ويقول تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِن القُرونِ يَمْشُونَ في مَسَاكِنِهِمْ ، إن في ذَلِك لآياتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ** ﴾ (السجدة : ٢٦) .

ويقول تعالى : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم من قَرنٍ هُمْ أَشَدُّ منْهُم بَطْشاً ، فَنَقَّبُوا في البِلاَدِ هَلْ مِن مَّحيصٍ . إن في ذَلِكَ لَذِكْرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو ألقَى السَّمعَ وهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ (ق : ٣٦ ـ ٣٧) .

ويقول تعالى : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَت مَعيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لم تُسكن مّن بَعدِهِم إلا قليلاً وَكُنا نحنُ الوَارِثين** ﴾ (القصص : ٥٨) .

ويقول تعالى : ﴿ **أوَلَمْ يَسِيرُوا في الأرضِ فينظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِين مِن قَبلِهِم ، وكانُوا أشَدَّ مِنهُم قوةً وأَثَارُوا الأرضَ وَعَمَرُوها أَكْثرَ مِمَا عَمَروُهَا وجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ الله لِيَظْلمهُمْ وَلَكِن كَانُوا أنفُسَهُمْ يظْلمونَ** ﴾ (الروم : ٩) .

ويقول تعالى : ﴿ **قُل سِيرُوا في الأرض فانظروا كيف كانَ عاقِبةُ الذين من قبل كان اكثرُهُم مّشركين** ﴾ (الروم : ٤٢) .

هذه الآيات وكثير غيرها يدل على أهمية التاريخ وضرورة وعيه : لتسديد الحاضر وصنع المستقبل ، من هنا جاء جواب **رسول الله** ﷺ لأصحابه ـ في الحديث الذي يرويه **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه ـ لمّا سألوه عن المخرج

من الفتن التي ستكون ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : (**كتاب الله**) وعلّل ذلك بأمور كثيرة ، كان أولها قوله ﷺ :

(**فيه نبأ من قبلكم ؛ وخبر ما بعدكم**)[1] فالماضي مليء بالأمور الحسنة والسيئة ، وليس العاقل من ألغى هذا الماضي بما فيه ، ولكن العاقل من ماز بين الحسنة والسيئة ، فاحتفظ بالأولى ونسج على منوالها ، وأهمل الأخيرة وابتعد عنها ؛ وما ذلك إلا لأن الإنسان لا يستطيع أن ينفك عن ماضيه ، من هنا جاء قوله عليه الصلاة والسلام :

« **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا** » وقوله عليه الصلاة والسلام لعمرو بن العاص رضي الله عنه عندما جاءه مسلماً بعد الحديبية ، يريد أن يشترط مغفرة ذنوبه السابقة : « **الهجرة تجبّ ما قبلها ، والإسلام يجبّ ما قبله** » .

فالإنسان إذن عليه تمحيص هذا الماضي ، للتمسك بكل ما يمكن أن يسدد حاضره ويحميه من غائلة السقوط ، والابتعاد عن كل ما يمكن أن يؤدي إلى الهلاك والدمار ...

كذلك فإن آيات القرآن الكريم أشارت بوضوح إلى دور الإنسان في صناعة

---

(١) أخرج الترمذي وأحمد بن حنبل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة ؛ قيل : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدىٰ في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، من علم به سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم». هذا حديث جميل المعنى، ولكن إسناده ضعيف، فيه الحارث الأعور، وهو لين، بل اتهمه بعض الأئمة بالكذب، ولعل أصله موقوف على علي رضي الله عنه، فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي ﷺ، وقد ضعفه =

التاريخ ، وإلى رفض التفسير الكهنوتي للتاريخ أيضاً[٢] ، قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأن الله لم يكُ مغيِّراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ (الأنفال : ٥٣) .

وقال تعالى : **﴿ إن الله لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّرُوا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد : ١٣)** .

وفي أحاديث كثيرة ذكر **رسول الله ﷺ** قصصاً تاريخية عن رسل وأنبياء سابقين ، وعن غيرهم أيضاً (قصة أصحاب الأخدود ، الثلاثة المبتلَوْن ، أصحاب الغار ، الغلام والساحر ..) ما جاءت إلا للعظة والعبرة ، وللاستفادة منها في إصلاح الحاضر وبناء المستقبل ، ولكي ينشأ المسلم متبصراً بالتاريخ القريب والبعيد ـ على حد سواء ـ من خلال قراءة صفحات التجارب

= مخرجه الترمذي نفسه، فقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجـه، وإسناده مجهـول، وفي الحارث مقال. انظر شرح الطحاوية ص: ٧١ طبع المكتب الإسلامي خرّج أحاديثها الألباني. وقد حسَّن هذه الرواية ابن عبد البر رحمه الله.

(٢) يقول صاحب كتاب « مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن » : « ... قد يتوهم بعضهم أنَّ الطابع الغيبي للسنن التاريخية ـ بمعنى أنَّ كل قانون هو كلمة من الله سبحانه وتعالى ـ يبعد القرآن عن التفسير العلمي الموضوعي للتاريخ ، ويجعله يتجه اتجاه التفسير اللاهوتي له الذي مثلته مدارس الفكر اللاهوتي على يد عدد كبير من المفكرين النصارى واللاهوتيين ...

وحاصل الفرق بينهما ، أن التفسير اللاهوتي للتاريخ يتناول الحادثة نفسها ، ويربطها بالله سبحانه ، قاطعًا صلتها وروابطها مع بقية الحوادث ، فهو يطرح الصلة مع الله بديلاً عن صلة الحادثة مع بقية الحوادث : بينما القرآن الكريم يربط السنة التاريخية بالله تعالى ، دون قطعها عن غيرها من الحوادث ، ونستطيع أن نستخدم هذا المثال للتوضيح : قد يأتي إنسان فيفسر ظاهرة المطر التي هي ظاهرة طبيعية ، فيقول : إنَّ المطر نزل بإرادة الله : ويجعل هذه الإرادة بديلًا عن الأسباب الطبيعية ، وكأنَّ المطر حادثة لا علاقة لها ولا نسب ، وإنما هي مفردة ترتبط مباشرة بالله سبحانه وتعالى بمعزل عن تيار الحوادث ... هذا الكلام يتعارض مع التفسير العلمي لظاهرة =

البشرية الكثيرة والمتنوعة ، وفحصها بعد ذلك وتقدير أبعادها وخلفياتها ، والتعرف من خلالها على المؤثرات والسنن التي ساهمت في إيجادها على النحو الذي وقعت فيه... ولهذا قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه وهم يضطهدون في مكة: «لقد كان يؤتى بالرجل ممن سبقكم من الأمم، فيوضع المنشار على مفرق رأسه، ثم ينشر حتى يقع نصفين دون أن يثنيه ذلك عن دينه».

فهل وعى المسلمون هذا ؟ أم أنهم غفلوا عنه في جملة أشياء كثيرة غفلوا عنها من دينهم وتاريخهم ؟

= المطر : لكن إذا جاء شخص . وقال : إنَّ هذه الظاهرة هي تسلسل سببي متقن ، وهي تعبير عن حكمة الله وتدبيره . فإنه لا يتعارض مع الطابع العلمي للتفسير الموضوعي لظاهرة المطر ... والقرآن الكريم حينما يسبغ الطابع الرباني على السنة التاريخية يريد أن يؤكد أن هذه السنن هي تعبير عن قدرة الله سبحانه ، هي حكمته في الكون لكي تبقى الصلة وثيقة بين العلم والإيمان ... وقد بلغ القرآن الكريم في حرصه على تأكيد الطابع الموضوعي للسنن التاريخية ، وعدم جعلها مرتبطة بالصدف أن العمليات الغيبية نفسها أناطها في كثير من الحالات بالسنة التاريخية نفسها أيضًا : فالإمداد الإلهي الغيبي الذي يساهم في كسب النصر مثلاً جعله مشروطًا بالسنة التاريخية ، مرتبطا بظروفها غير منفك عنها ... » .

والقرآن الكريم عندما أكَّد أن للساحة التاريخية سننًا وضوابط ، ككل الساحات الكونية الأخرى . ليقاوم ويلغي بكل وسائل الإقناع والتفهيم النظرة العفوية أو النظرية الغيبية الاستسلامية بتفسير الأحداث : وليقول للإنسان : إنَّك تستطيع أن تكون فاعلاً مؤثرا باكتشافك هذه السنن ، وبتعرفك على هذه القوانين لتستطيع التحكم فيها ... وعلى ضوء هذا فهم المسلمون معنى قول الله عزَّ وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتَّى يُغيِّرُوا ما بأنفُسهم ﴾ وجاء قوله تعالى ردًّا على تساؤل المسلمين عن الهزيمة في أحد : ﴿ قُل هُو من عند أنفُسكُم ﴾ .

يهـــودُ والتاريــخ :

تنبه إلى التاريخ وأثره مبكراً أعداء الإسلام من : يهود وصليبيين وملاحدة ، فكان العبث بالتاريخ الإسلامي خاصة ، من أخطر الميادين التي ولجوها ، حيث صنعوا لنا تاريخًا مزيفًا يبرز فضل الاستعمار علينا ، فهو الذي أخذ بأيدينا قُدماً في مدارج الحضارة والرقي والتقدم (!!) ، ونحن نستحق التشريد والتقتيل والترويض بسبب مقاومتنا لهذه « المهمة النبيلة (!!) » وجاء نفر من أبناء جلدتنا فاعتمدوا هذا التاريخ المصنوع ، بقصد أو بغير قصد عن علم ومعرفة أو عن جهل وغفلة ، فساهموا بتضليلنا ، وانصرفوا بنا عن معرفة حقيقة الأسباب التي أودت بأمتنا وأوصلتها إلى ما وصلت إليه من خضوع للمستعمر وسير في ركابه ... على حين نجد العكس من هذا تماماً لدى أعداء الإسلام ، إنهم يهتمون بتاريخهم ، يزينونه ، يبرزون مواطن القوة فيه ، يطمسون نقاطه السود ومواطن ضعفه ، بل إن بعضهم يذهب إلى أبعد من هذا فيصنع لنفسه تاريخاً مجيداً من أجل أن ينشّىء عليه أجياله .. يعرف ذلك كل من له أدنى اطلاع على البرامج التربوية والتعليمية مثلًا لدى يهود ، إنها تركز في جانب كبير منها على بعث الحس التاريخي والعقيدي وتأصيلهما في نفوس الناشئة اليهودية منذ الصغر ، **فأول كلمة يتعلمها الطفل اليهودي ضمن محفوظاته اليومية « القدس ـ أورشليم ـ حبيبتي »** وبعد أن يشب قليلاً يدرس بدقة وتفصيل وإحكام تاريخ شعب الله المختار ، وتاريخ أرض الميعاد ، أرض الآباء والأجداد !! ويستمر كذلك تعميق تعاليم التوراة وأمجاد التاريخ اليهودي في نفسه حتى نهاية المرحلة الجامعية من خلال دروس لا هوادة فيها ، بل إن الجيش عندهم لديه مهمات أخرى أساسية غير المهمات الحربية والقتالية ، ففي صفوفه مثلًا (**يلقن الشباب اليهودي مواد خاصة تتضمن تقوية اللغة العبرية ، ومعرفة جغرافية البلاد ـ أرض الميعاد ـ ودراسة**

تاريخ يهود ، إضافة إلى مبادىء في الثقافة العامة والنظافة وحب الوطن) (إسرائيل ـ الكتاب السنوي ١٩٥٤م) .

هذا في الوقت الذي يحاولون فيه تشويه تاريخ الحكومات الأممية ـ على حد تعبيرهم ـ بإبراز النقاط السود فيه فقط : (**سنوجه عناية خاصة إلى الأخطاء التاريخية للحكومات الأممية التي عذبت الإنسانية خلال قرون كثيرة جداً ... وسنتقدم بدراسة مشكلات المستقبل بدلاً من « الكلاسيكيات »** ، **وبدراسة التاريخ القديم الذي يشتمل على مُثُل سيئة أكثر من اشتماله على مثل حسنة ... وسنطمس من ذاكرة الإنسان العصور الماضية التي كانت شؤمًا علينا ، ولا نترك إلا الحقائق التي ستُظهر أخطاء الحكومات الأممية في ألوان قاتمة**) (انظر البروتوكولين الرابع عشر ، والسادس عشر من بروتوكولات حكماء صهيون) وقد نجحوا في ذلك إلى حدّ كبير ، حتى بتنا نرى التاريخ العبري من خلال التوراة المتداولة ـ رغم الطعن في سندها ، والخلاف الكبير حول محتواها ومضمونها وأشخاصها ـ يعتمد أصلاً لتاريخ البشرية ، فضلاً عن أنه موضوع ومصنوع في أكثره لا يثبت على التحقيق والبحث ، كما يقول **الدكتور عمر فروخ** في (تجديد التاريخ : ٢٤) ؛ بل إن جانباً كبيراً من أعداد السنين فيه فيه اختلاف كبير ، كتاريخ داود وسليمان مثلاً ، دع عنك تواريخ يوسف ويعقوب وموسى وإبراهيم .. عليهم الصلاة والسلام جميعاً ...

أليس من الغريب أن ينظر مؤرخو تاريخ الشرق القديم ـ على اختلاف أجناسهم وأديانهم ـ إلى توراة يهود ، وكأنها المصدر الأساسي لدراسة فترات معينة من تاريخ الشرق القديم ، رغم أنهم يكادون يجمعون على أنها غير موثوقة السند ، ورغم أن هناك مئات الأبحاث التي كتبها المؤمنون بالتوراة نفسها ، فضلاً عن غيرهم ، وهي جميعًا تثير جدلاً طويلاً حول وثاقة نصها ، بل حول نسبة هذا النص لهذا الشخص أو ذاك ... ومن المعروف أن هناك

نسختين للتوراة عند يهود ، واحدة للعبرانيين ، وأخرىٰ للسامريين ، وكل منهما تختلف عن الأخرىٰ في عدد أسفارها ، وفي كثير من نصوصها ، ولم يكن الأمر عند النصارىٰ ، وهم من المؤمنين بها إيمانهم بالأناجيل الأربعة المختلفة ، بأفضل من يهود ، فهناك على الأقل طبعتان للتوراة ، واحدة تستعملها الكنائس البروتستانتية ، والأخرىٰ الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية ، والتي تزيد عن الأولى بأسفار عدّة ، اعتبرها البروتستانت زائفة ؛ فضلاً عن الاختلاف في عدد إصحاحات أسفار توراة البروتستانت عنها في توراة الكاثوليك ، بل إن أسماء الأسفار نفسها كانت ولا تزال موضع خلاف بينهما ؛ إلى جانب الاختلاف في ترتيب الأسفار عند يهود وعند النصارىٰ ... (قاموس الكتاب المقدس : ٤٥١/١) .

في الوقت الذي لا يُرجَع فيه إلى القرآن الكريم ، رغم أن العالم كله ـ كما يقول « **السير وليم موير** » ـ ليس فيه كتاب غير القرآن ظل أربعة عشر قرنًا كاملاً بنصٍّ هذا مبلغ صفائه ودقته ؛ وهو معروف بعدائه وتعصبه على الإسلام والمسلمين ؛ ويؤكد الفرنسي « **لوبلوا** » أن القرآن هو الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير : أما « **نولدكه** » فيقول :

بقي النص القرآني على أحسن صورة من الكمال والمطابقة ... (انظر مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور دراز رحمه الله ص : ٤٠ وما بعدها) ورغم أن القرآن الكريم يقدم عن طريق القصص القرآني معلومات هامة وصحيحة تمامًا عن عصر ما قبل الإسلام ، وأخبار الدول فيه (في جزيرة العرب ، وبلاد الرافدين ...) كما أنه أفاض وفصّل في وصف يهود وأخلاقهم ومواقفهم من أنبيائهم ...

ألا يدل هذا على أننا نعيش على هامش التاريخ !! (انظر : دراسات تاريخية من القرآن الكريم للدكتور محمد مهران ص : ٨ وما بعدها) .

ويحاول يهود دائماً أن يبقى التاريخ محرضاً ومثيراً ، فبعد إعلان قيام الدولة اليهودية في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م وقيامها بشن حرب على الفلسطينيين الآمنين ، وطردهم من بيوتهم وقراهم ومدنهم ، وتدبير مذابح جماعية ضد بعضهم ، يقول **بن جوريون** في ٢١/٧/١٩٤٨م مسوغاً ذلك كلَّه :

(**ونكون بذلك قد ثأرنا لأسلافنا من مصر وآشور وكلدان** ..) **ويعتبر أن دولة إسرائيل هي (ذلك المكان الذي ولد فيه الشعب اليهودي ، وأن أرض إسرائيل هي المهد الذي تكونت فيه الخصائص الروحية والدينية والقومية للشعب اليهودي** ... **في تلك الأرض كُتبت التوراة التي قدمها الإله هدية إلى الإنسانية ، وفيها تكونت الحضارة اليهودية ذات الطابع القومي العالمي في آن واحد** ... **إن يهود لا يعودون إلى أرضهم فاتحين** ، **وإنما يعودون إلى الأرض الموعودة من أجل صالح الإنسانية** ...) وعندما سقطت القدس القديمة بأيديهم عام ١٩٦٧م يدخلها وزير دفاعهم « **موشيه دايان** » في أعقاب الحاخام الأكبر « **شلومو غورين** » وبعد أدائهم صلاة الشكر عند حائط البراق الشريف ، يقول :

(**اليوم فتحت الطريق إلى بابل ويثرب**) وتكون هتافات النصر التي يرددها المنتصرون (**يالثارات خيبر**) وتقول رئيسة الوزراء « **جولدا مائير** » وهي في « **إيلات** خليج العقبة :(**إني أشم رائحة أجدادي في خيبر**) .

ومن المؤلم حقاً أنهم بعد احتلال القدس بدؤوا خطة تهويدها ، فلم يتركوا أسلوباً إلا واتبعوه (وعد ووعيد ـ إغراء وتهديد ..) حاولوا انتزاع الزاوية الفخرية « دار أبي السعود » في القدس ، وهي ملاصقة للجهة الغربية لسور الحرم القدسي ، لكي يهدموها للبحث عن أساس هيكلهم ـ بزعمهم ـ وطلبوا إلى أرملة الشيخ حسن أبو السعود رحمه الله أن تبيعهم الدار بالثمن الذي تريد ، أو أن تختار داراً سواها في أي مكان آخر تحدده ، فرفضت وأصرت

على الرفض ، فأُخرجت منها بالقوة ، وقامت الجرافات بهدم الدار ، ولم تقبل هذه العجوز العروض الإسرائيلية بأخذ ثمن الدار أو بأخذ دار بدلاً منها ، رغم هدمها ، ولما سألها حاكم القدس اليهودي يومها « **هرتسوغ** » : **إلى أين ستذهبين** ؟ قالت : **إلى السعودية حيث أولادي** . فقال لها : **إذا رأيت الملك فيصل - رحمه الله - فقولي له : إننا قادمون إليه ، فإن لنا أملاكاً عنده ، إن جدّنا إبراهيم هو الذي بنى الكعبة ، وإنها ملكنا ، وسنسترجعها بالتأكيد** !

وعندما أعلن ريجان » الرئيس الأمريكي مبادرته لحل ما أسموه « **قضية الشرق الأوسط** » رد عليه « **بيجن** » وكان رئيساً لوزراء دولة العدو يومها قائلا :

(إن ما يطلق عليه من قبل بعضهم : الضفة الغربية ، هو « يهودا والسامرة » وحقائق التاريخ البسيطة هذه لن تتغير أبداً .. هنالك من يحاول الالتفاف على التاريخ ، ويمكن له الاستمرار بهذا الالتفاف كما يرغب ، ولكني سأتمسك بالحقيقة التي تنص على أنه قبل ألفي عام كانت هناك مملكة يهودية في « يهودا والسامرة » هنالك سجد ملوكنا للرب ، وهنالك تنبأ أبناؤنا بالسلام الأبدي ، وهنالك أنشؤوا حضارات غنية حملناها معنا في قلوبنا وأفكارنا ، وفي تجوالنا لأكثر من ألف وثمانمائة سنة وعُدنا بها إلى وطننا .... من أجل صهيون لن أهدأ ، ومن أجل القدس - أورشليم - لن أسكت) .

تشـــويه الحقائق التاريخيـــة :

ولم يقف يهود وقد أدركوا دور التاريخ وأهميته - عند حدود توظيف الحدث التاريخي للحفاظ على الذات ، وتحقيق العودة إلى أرض الميعاد . وبناء الهيكل . وإعادة الدولة اليهودية والمحافظة على

استمراريتها وتوسعها : لكنهم تجاوزوا ذلك إلى تشويه التاريخ الإسلامي وتزييفه بإبراز نقاطه السود ، وطمس محاسنه ، وتوظيف المواقف الهدَّامة بإضفاء هالة من التقدير عليها ، حتى يصبح داعيةُ الإباحية والتخريب والفساد داعيةَ عدل اجتماعي وبناء ؛ فالدعوة القرمطية دعوة للعدل الاجتماعي ، وثورة الزنج حركة تقدمية ، ونحو ذلك كثير ... إلى جانب محاولتهم بعث الحياة وإثارة الجدل حول قضايا الشعوبية والباطنية ... واستخدامهم أقلامًا تنتمي بأسمائها وجلدتها إلى هذه الأمة لتبرز فضلهم وأنهم الأساس في كل شيء ، ففي محاضرة ألقاها الدكتور طه حسين عن « اليهود والأدب العربي » في « دار المدارس الإسرائيلية » بالإسكندرية يوم ٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٤م - والصراع على أشده في فلسطين - أكَّد أن (العرب قبل الإسلام تأثروا بثقافة يهود الدينية وفضائلهم ، وأنهم أخذوا عنهم فلسفتهم في أن الحياة وسيلة لا غاية ... وأن يهودَ المستقرون في بلاد النصارىٰ عاونوا أبناء عمومتهم العرب على الفتح - بعد الإسلام - وأنهم كانوا عنصرًا أساسيًّا في فتح بلاد الأندلس ومساعدة طارق بن زياد ضد القوط ، وأن العرب في مراحل غزوهم شماليَّ أفريقيا وأوروبا وحتى فلسطين كانوا يقدمون جيوشهم ، وكان اليهود يتعاونون معهم في إدارة البلاد سياسيًّا واقتصاديًا ، بل وفي تسهيل السبل لسير هذه الجيوش الغازية ، ولولا هذا التعاون الوثيق لما كانت الإمبراطورية العربية الضخمة ... وإليهم يرجع الفضل في نقل ثقافة العرب إلى أوروبا ، وفي جعل الأدب العربي أدباً عالمياً ... وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجحف بهم (!!) يوم أجلاهم عن الجزيرة العربية بحجة أنه لا يمكن أن يكون بالجزيرة إلَّا دين واحد ...) (انظر مجلة « الشمس » الناطقة باسم يهود مصر : العدد رقم

٤٧٣ الصادر في ٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٤م) وما قاله المحرر .

(قوطعت المحاضرة في كثير من مواضعها بعاصفة من التصفيق ، ومن الذين حضروا المحاضرة : **الحاخام أبراتو ، والحاخام فنتورا** وكثيرون ... وفي نهاية المحاضرة وقف مندوب عن المدارس ، وشكر الدكتور والحاضرين ، وقال : **إنَّ المدارس ليسرّها أن تعلن أنها خصصت جائزة باسم الدكتور طه حسين تعطى سنويًا للفائز الأول وللفائزة الأولى في اللغة العربية في شهادة إتمام الدراسة الابتدائية**)[٣].

---

(٣) يقول الدكتور محمد نجيب البهبيتي في كتابه (المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين: ص ٦٠ ـ ٦١):

وهناك ظاهرة تصرخ بين الظاهرات في حياة كلية الآداب في عهد طه حسين، وهي: استشراء النفوذ اليهودي في الكلية، كياناً وفكراً وتأثيراً ودفعاً. فلقد كان يعمل فيها على عهده، وبطلبه، وتنظيمه من اليهود: «إسرائيل ولفنسون» وقد سلحه طه حسين بالدكتوراة، وقدم رسالته للناس في طنطنة عالية، وهي دعاية صهيونية صرفة. و «شاخت» ماسخ كتاب «تراث الإسلام» في صورته الأخيرة، وشادة الكز الفظ الذي كان حقده على العرب يأكل قلبه، وجهله بالعربية يطل من عينيه ويجري على لسانه. و «كراوس» الذي كان يحج كل عام إلى الجامعة العبرية بالقدس ليلقي من «التوراة العبرية» قسماً يزعم أنه شعر منظوم في بحر «الرجز» العربي، لا يعبأ ـ في تعصبه الرخيص ـ بضحكات إخوانه اليهود من أساتذة تلك الجامعة، وسخريتهم به وهو يقرأ عليهم «توراتهم» في تشكيل صوتي كاريكاتيري يخالف كل ما عرفوه وعهدوه من منطوقها، وذلك رجاء منه أن يطوى منطوقها لوزن «مستفعلن مستفعلن مستفعلن» ليقول لهم: إن العرب قد أخذوا وزن شعرهم عن اليهود. و «جاك كوهين» الذي ما كاد يتخرج من قسم اللغة اللاتينية بالكلية حتى عيّنه طه حسين به معيداً، وما كاد ينفتح أمام عينيه أول ثقب إلى إسرائيل حتى اندسّ فيه طائراً إليها.

ثم ما كان من التوازي التاريخي الذي وقع في سنة ١٩٢٥ م بين كتاب «مارجوليوث» اليهودي، وهو لا يزال يطبع في لندن بالإنكليزية، وفيه يبشر بنظرية «انتحال الشعر الجاهلي» وبين عمل طه حسين في كلية الآداب محاضراً بتلك النظرية قبل أن يظهر كتاب «مارجوليوث» في الأسواق وقبل أن يطبع كتابه «في الشعر الجاهلي» في سنة ١٩٢٦ م. وطه حسين لم يكن يعرف من اللغات الأجنبية غير الفرنسية، فلا تعلق له بقراءة كتاب لم يظهر بعد، وفي لغة لا يعرفها. وهذا يكشف عن طبيعة المنبع الواحد الذي كان ينشر في وقت واحد بعمل الرصيفين، وما هو إلا من ثمار عمل «المجموعات الديرانية» الداخل في إطار خطة تهديم التاريخ العربي....

=

من هنا وجب أن نبيِّن « أن التاريخ الإسلامي يختلف عن غيره أساسًا ، لأنه يمثل أوسع وأعمق تعبير عن تاريخ ينبثق عن دين عظيم ، وعن حضارة يبعثها لقاء خلَّاق بين قوى السماء والأرض ... إنه تاريخ لم تسهم في صنعه فاعلية دون أخرىٰ ، ولا دفعه إلى الوجود عنصر دون آخر ، إنه يتميز بكونه نتاج القوى والعوامل والطاقات كلها ، التي أودعها الله تعالى في الكون ومنحها للإنسان ... » لذلك كانت المعايشة التاريخية لا تستلزم إحياء الحدث التاريخي أسلوبًا وموضوعًا فحسب ، كما يقول الدكتور عماد الدين خليل : « بل هي تتطلب كذلك رصيدًا من التجارب النفسية والفكرية والعقيدية تساعد المؤرخ على إدراك جوهر التاريخ ، ودارسو التاريخ الإسلامي بالذات يجب أن يعايشوا التجربة الإسلامية ... » .

توظيف الأحقــاد التاريخية :

كما ذهب يهود إلى توظيف الأحقاد الكامنة في لا شعور الغربيين على

= وما جاء بعد ذلك من فتح طه حسين أبواب قسم اللغة الفرنسية في وجه طلبة الليسية المتفرنسين، وأغلبهم يهود، وبذلك سدّها في وجه خريجي البكالوريا المصرية العربية، بحكم عجزهم عن منافسة هؤلاء المتخصصين في الفرنسية. ثم ما كان من إلغائـه شرط تعليق التحاقهم بالكلية بامتحان معادلة في العربية عند دخولها؛ ثم تدرجه إلى إعفائهم من أداء امتحان في العربية، خلال سني دراستهم بالكلية. وقد لجأ طه حسين إلى هذا التبديل للائحة الكلية بعد أن سقط منهم في عام واحد خمسة أشرفت أنا فيه على التدريس لهم، والقيام بامتحانهم، خمسة كلهم يهود لا أزال أعرف أسماءهم واحداً وواحدة، وكانوا مجموع طلبة هذا القسم. ومنهم اثنان اشتركا في قتل اللورد موين وزير الشرق الأوسط الذي كان مناهضاً لتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية.

ثم كان عمله بعد ذلك في مؤسسة النشر الصهيونية «الكاتب المصري» لم يفارقها إلا بعد أن هدمتها قنابل الثوار المصريين في سنة ١٩٤٧ م.

أضف إلى هذا أنه لم يحرك خاطره أو قلمه ثـورة العرب جميعـاً في وجه تحـويل فلسطين إلى دولة يهودية، لا قبل التحويل ولا بعده، فلقد عاش في غيبة تامة عن هذه القضية العربية.

الإسلام والمسلمين ، واستخدامهم من خلالها للمساهمة في خدمة أغراض اليهودية وتحقيق أهدافها ومخططاتها ، خاصة وأنهم يدركون أن خيال الحروب الصليبية لا يزال يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هذا ، بصورة أو بأخرىٰ ، كما أن جميع اتجاهاتها وإرجاعها نحو الإسلام والعالم الإسلامي لا تزال تحمل آثارًا واضحة جليّة من ذلك الشبح ، يقول صاحب كتاب (الإسلام على مفترق الطرق : ٦٠ ـ ٦١) : (أما فيما يتعلق بالإسلام ، فإنَّ الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية ، ويعني هذا أن الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية غير معقود عليه بجسر ؛ ثم أصبح احتقار الإسلام جزءًا أساسيًا من التفكير الأوروبي ، والواقع أن المستشرقين الأولين في العصور الحديثة كانوا مبشِّرين نصارىٰ يعملون في البلاد الإسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرةً على أساسٍ يضمن التأثير في موقف الأوروبيين من الوثنيين ـ المسلمين ـ غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت ، أو كادت ، من نفوذ التنصير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلة تسيء توجيهها ... **أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة ، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلّفتها الحروب الصليبية بكل ما لها من ذيول في عقول الأوروبيين)**. ويقول الدكتور محمد البهي رحمه الله في كتابه (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ١١): (ودراسة المستشرقين للإسلام قامت أولاً بوحي من الكنيسة الكاثوليكية خاصة للانتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه، حرصاً على مذهب الكثلكة من جانب وتعويضاً عن الهزائم الصليبية في تحرير بيت المقدس!! من جانب آخر. ثم تبنّى الاستعمار الغربي هذه الدراسة في الجامعات الغربية نفسها، حتى يقوى القائمون بأمرها على تصديرها إلى

الشرق الإسلامي في صورة كتب تؤلف وترسل لطلاب الثقافة، أو في صورة طلاب من الشرق الإسلامي يُدْعون أو يُعانون على الدراسة هناك، ثم يُمنحون من الألقاب العلمية ما يتمكنون بها من الظفر بوظيفة التوجيه في الكليات النظرية بالجامعات الحديثة في الشرق الإسلامي).

من هنا جاء استعداء يهود الغربَ على الصحوة الإسلامية المعاصرة التي بدأت تهدد وجودهم ، وتشكل خطرًا ماحقًا عليهم ، خاصة في الأرض المحتلة وما حولها ، جاء في تعليق للإذاعة اليهودية مساء الخامس من أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨م ما يلي : (**إنَّ عودة الروح الدينية للظهور من جديد في المنطقة تشكل تهديدًا مباشرًا لمستقبل إسرائيل ، ولمستقبل الحضارة الغربية بأسرها ... إن عودة الروح الدينية بهذا الشكل المفاجىء دليل على فشل أساليب القمع جميعها التي استعملها أصدقاؤنا للقضاء على الروح** الإسلامية في المنطقة ... الأمر الذي يحتم على جميع الذين يعتبرون الإسلام عدوًا تاريخيًا لهم أن يعيدوا النظر في الأمر للتوصل إلى الاتفاق على أساليب جديدة وحاسمة لوقف الزحف الإسلامي الجديد الذي بدت بوادره ...

إنَّ على يهود وأصدقائهم أن يدركوا أن الخطر الحقيقي الذي تواجهه إسرائيل هو خطر عودة الروح الإسلامية إلى الاستيقاظ من جديد ، وإن على المحبين لإسرائيل أن يبذلوا كل جهدهم لإبقاء هذه الروح خامدة ، لأنها إذا اشتعلت من جديد فلن تكون إسرائيل وحدها في خطر ، ولكن الحضارة الغربية كلها ستكون في خطر ..) .

مسلمو اليوم :

الإنسان المسلم ، لا سيما في خلال القرنين الماضيين ، فقد كثيرًا من مقومات الشخصية المسلمة بفعل عوامل الاحتكاك الحضاري التي واجهته

وهو في حالة لا تؤهله للاستجابة الملائمة لهذا التحدي وللرد عليه ردًّا مناسبًا ، فقد وقف مبهورًا ، وأصبح يخبط خبط عشواء على أرض التاريخ ، بل نستطيع القول : إنه تحرك دون وعي مسبق ، لم يع تجارب الأمم السابقة ، والأخطر من ذلك أنه لم يع حتى تاريخه وتجارب أمَّته (عوامل نهوضها وازدهارها وتقدمها ، كبوتها وانحلالها وتفرقها ، انتصاراتها وهزائمها ، ركودها وتخلفها ...) ولمّا يدرك بعد خطورة هذه القضية رغم حساسيتها وأهميتها بالنسبة لحاضره ومستقبله ...

إنه يجهل تاريخ أمته في الدعوة إلى الله ، ويجهل تاريخها الحضاري ، وتاريخها السياسي ، ويعيش عالة على ما يكتب له في هذا السبيل مستشرقون أو مستغربون !!

ألم نظفر بالعالم ماديًّا وأدبيًّا في فترة من الفترات ؟ ألَمْ نغيِّر منطقه في الفهم والاستدلال ، ونضع الدعائم لمدنية عالمية أرقى من مدنيات الرومان واليونان ؟ ماذا نعرف عن تاريخ هذه الفترة ؟ وكيف أطبق علينا الجهل والتخلف بعد ذلك وأصبحنا في ذيل القافلة نعيش على فتات موائد الأمم ؟!

ألم نبن أمة ونؤسس دولة كانت أقوىٰ دولة في العالم ، يخطب ودّها الناس جميعًا ، ويجبى إليها ثمرات كل شيء ، يقول خليفتها مخاطبًا غمامة عابرة : « **أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك** » ؟! فكيف تم هذا ؟ وما هي العوامل التي أوقعتنا في ظلام الفرقة والتجزئة والاستبداد السياسي والكيانات الهزيلة المتقاتلة ؟!

إنَّ مسلم اليوم لم يعد يرىٰ من عدوِّه إلَّا بطشه وقسوته وجبروته وصلفه ، أما التعرف على أسباب هذا كلّه التي أدَّت إلى انتصارهم وهزيمتنا ، وتوسعهم المستمر وانكماش حدودنا ، فلا نكاد نحس له أثرًا ، ولا نسمع له ركزًا ...

في أوائل القرن العشرين ، عثر أربعة من المستشرقين ، وهم « مكاليستر ،

دالمن ، شيك ، فان برشم » على موقع أثري عظيم أسفل جبل الزيتون في القدس ، وعلى بعد ستمائة متر من برج اللقلق ، وكان هذا الموقع مغارة مبطنة بالجص ، ذات قاعتين مربعتين ، إحداهما داخلية ، والأخرىٰ خارجية ، وتحتوي القاعة الداخلية على بضع عشرات من الكتابات العربية منقوشة في الجدران ، منها : أسماء لأشخاص كُتبت بالخط الكوفي ، من هذه الأسماء : **بكر بن عمر - حمزة بن حميد - بشير بن عبد الله - محمد بن سنان** ... وفي كهف قريب من المغارة هذه عثر المستشرق الألماني « **دالمن** » على حجر نقشت عليه عبارة : « **عبد الله عثمان بن سعيد القصري** » وبالخط الكوفي أيضًا : ونتيجة الأبحاث التي أُجريت على هذه الكتابات تبين أنها ترجع إلى زمن **الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ابن عماد الدين زنكي** (القرن السادس الهجري) **وأن هؤلاء الرجال كانوا من كتائب الجهاد والفداء التي كان يرسلها نور الدين** رحمه الله لإنهاك العدو الغاصب بالإغارة عليه ، تمهيدًا لطرده من بيت المقدس وتطهيره من رجسه . (صوت الشعب ـ العدد ١٤ عام ١٩٢٣م ـ نقلاً عن : معارك العرب ـ للشقيري رحمه الله) .

هم ينقِّبون ، ويحاولون العثور على أي شيء ، مهما كان ليصطنعوا لأنفسهم وجوداً وتاريخاً في الأرض المقدسة(٤) ، ويكادون لا يقفون عند حدود الوعي والحضور التاريخي ، ولكنهم تجاوزوا ذلك بكثير؛ جاء في دراسة قدمتها الإدارة العامة لشؤون فلسطين في جامعة الدول العربية إلى مؤتمر المشرفين على شؤون الفلسطينيين في الدول العربية المضيفة ما يلي :

---

(٤) وأكثر من ذلك أننا أنفقنا الأموال لإصدار «الموسوعة الفلسطينية» وإذا بها كل الإهمال لما لنا في فلسطين.. وإبراز كل ما للخصوم والأعداء!! ولولا ما أصدره الأخ زهير جزاه الله في مقالاته عن هذه الموسوعة لاعتبرت المرجع الصحيح.. وقد جمع مقالاته في كتابه القيم «الملحوظات على الموسوعة الفلسطينية» فتنبهت منظمة التحرير وأصدرت بياناً تتبرأ من الموسوعة وطلبت عدم اعتمادها مرجعاً صحيحاً.

(إنَّ سلطات الاحتلال الصهيوني عمدت إلى إهمال المساجد والكنائس والقلاع والحصون التي تشهد على الحضارة الإسلامية وعروبة فلسطين ... وهي في هذ المجال تحاول أن تدمّر أي شيء تاريخي وحضاري ، بالمصادرة والهدم تارة لإقامة مشاريع على مسطحات هذه الشواهد التاريخية ، وتارة أخرى بالإهمال والحيلولة دون ترميمها حتى بات معظمها على وشك الانهيار) وتقدم الدراسة نماذج كثيرة لمساجد وآثار إسلامية في فلسطين حوَّلها الاحتلال إلى مباءات للفساد ، وأوكار للحشاشين وأماكن للهو ... (الوطن الكويتية : ٢٠ يناير [كانون الثاني] ١٩٨٦م) .

ونحن نكاد نكون على العكس من ذلك تمامًا ، نهمل تاريخنا ونكاد نطمسه ، رغم أنه سِجِلٌّ لعملنا بالإسلام وعملنا له ، وهذا العمل يتفاوت وقد يلحقه العثار وغير ذلك ...

إننا بهذا لا نريد أن نهرب من الواقع الذي نعيشه ، ومن معاناته إلى مدح الماضي والتلهي بذلك ، أو إلى الإشادة بأسلافنا وما قدّموه للبشرية دون أن نتأسى بهم : أو أن نتحدث عن تراثنا العظيم في مجال الحضارة وقد قطعنا كل صلة لنا به في تعاملنا وسلوكنا وعلاقاتنا ... ولكننا نريد من ذلك كله أن نأخذ عبرة وزادًا نصنع من خلاله تاريخًا جديدًا مشرِّفًا ، بالتضحية والإيثار والعطاء والمثابرة والصبر على المعاناة ... ويمكن لتاريخنا أن يؤدي دورًا كبيرًا في تغيير الواقع وإصلاحه ، وفي بناء المستقبل بوضع « سياسة تعليمية تربوية ، وسياسة إعلامية تثقيفية على مستوى العصر الذي نعيشه ، تؤكد على إيقاظ الحس والحضور التاريخي والوعي به ، وتعميق البعد العقيدي في برامجها ومناهجها ، بدءًا من رياض الأطفال ، ومروراً بالمراحل التعليمية المختلفة ، وانتهاءً بالتعليم العالي مع اعتماد الصدق وتأكيد الحقيقة ، وذكرها دون زيف

أو خداع أو كذب ، وتوخي الموضوعية والبعد عن الخداع والتهريج ﴿ **فَأَمَّا الـزَّبَدُ فَيَـذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّـا مَا يَنفَـعُ النَّـاسَ فَيَمكُثُ في الأَرْضِ** ﴾ (الرعد : ١٧)



الباب الأول

منهج استشراقي في تزييف الحقائق

تاريخ العرب و صانعو التاريخ العربي

الفصل الأول : محمد صلى الله عليه وسلم بين الحقيقة والافتراء

الفصل الثاني : مع سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه

الفصل الثالث : حول الفتح الإسلامي : حقائق وأباطيل



الفصل الأول

محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء

بعد الهزيمة العسكرية والإخفاق الذي لحق بالصليبيين ، وفشلهم في تحقيق أهدافهم على الأرض الإسلامية ، عادوا أدراجهم من حيث أتوا ، وبدأ عدد من القساوسة والرهبان العائدين ينشر مذكرات وكتباً عن الإسلام والمسلمين ملئت بالطعن والعيب عليه ، فهو « صورة مشوهة مخزية لتعاليم النصرانية ، وفرقة منشقة عن الكنيسة (!!) » ومحمد ﷺ « كاردينال منشق على البابوية ، طمع في كرسيها ، فلما خابت آماله ادعى النبوة ، وقاتل لص ، وكافر ، وساحر ، وإرهابي ينشر الدماء ، وداعية إباحية ... (!!) » والمسلمون « وحوش ، وخنازير ، وأبناء شياطين » والقرآن الكريم « غير منسجم ولا منتظم فيما يحويه ، وكل ما فيه مخالف للعقل ويعوق الفكر ، يناقض بعضه بعضاً(!!) » [المستشرقون والإسلام : ٦ ـ ١٠] .

وتبنت الكنيسة كل ما يعادي الإسلام حتى لو كان صادراً عن أعدائها ، فالبابا « بونوا الرابع عشر » الذي اشتهر بكونه الحبر الأعظم في القرن الثامن عشر الميلادي لم يتردد في مباركة « فولتير » الأديب الذي اشتهر

بعدائه للكنيسة ومحاربته لها عندما أصدر مسرحيته التي سماها « محمد أو التعصب » وهاجم فيهاالرسول ﷺ وتهجم على الإسلام وتاريخه ... والتي ذاع صيتها في أوروبا حتى سمح لها بأن تسجل في قائمة مؤلفات مسرح الكوميدي فرانسيز [دراسة الكتب المقدسة : ١٣٦] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تداعى رجال الكهنوت والسياسة والفكر من أجل وضع الخطط التي تكفل لهم تخليص بيت المقدس وإعادة الأرض الإسلامية إلى السيطرة النصرانية ، وقام القس الإسباني « ريمون رول » ينادي باستخدام سلاح التنصير والغزو الفكري بدلاً من الحرب الصليبية العسكرية ، فكان أول من نادى باستخدام الإرساليات التنصيرية ، وكذلك أول من نادى بضرورة إيجاد كرسي للدراسات الشرقية الإسلامية في الجامعات الأوروبية ، وهو الذي أدخل تعليم العربية في المعاهد النصرانية للدراسات العليا . [مجلة العالم الإسلامي عدد يوليو (تموز) ١٩٦٣م] .

وهكذا انتقلت المواجهة إلى ساحة جديدة هي الساحة الفكرية ، وكان العبث بالتاريخ الإسلامي من أخطر الميادين التي ولجها هؤلاء ، وكل من له أدنى اطلاع على مناهج التاريخ التي تنشأ عليها أجيال المسلمين ، وتدرس لهم في المدارس والجامعات يلمس آثار هذا العبث ، ويقدر ضراوة الحملة الشرسة التي يقودها هؤلاء ضد الأمة المسلمة وتاريخها ...

وتأتي كتابات الدكتور « فيليب حتي » في مقدمة هذه الدراسات التاريخية التي عبثت بالتاريخ الإسلامي وعملت على تشويهه ، وتكمن خطورتها في أنها أضحت المرجع لكثير من الدارسين العرب والمسلمين ...

مــــن هـــــــو ؟

ولد « فيليب حتي » في قرية شملان بلبنان عام ١٨٨٦م . وتوفي في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٨م ... تلقى تعليمه الأوّلي في قريته ، ثم أكمل دراسته حتى المرحلة الثانوية . في « المدرسة الأمريكية العالية » بسوق الغرب في جبل لبنان ، والتي أسستها الإرسالية التنصيرية الأمريكية ، ثم أتم دراسته الجامعية في الجامعة الأمريكية ببيروت « الكلية الإنجيلية سابقاً » التي أوفدتـه عام ١٩١٠م إلى اسطنبول مندوباً إلى مؤتمر « جمعية الطلبة المسيحيين في العالم » ثم اختارته في صيف عام ١٩١٣م ليلقي محاضرة في المؤتمر الثامن للجمعية العالمية للطلبة المسيحيين المنعقد في « موهونك » بولاية نيويورك الأمريكية ... وقد أبلغه الدكتور « هيوارد بلس » رئيس الجامعـة الأمريكية ببيروت أن بإمكانه متابعة دراسته العليا في أية جامعة يريدها في الولايات المتحدة الأمريكية ...

تابع دراسته العليا في جامعة كولومبيا بدعم من الجامعة الأمريكية ، وجمعية الطلبة المسيحيين في العالم ، وتخرج بدرجة دكتور في الفلسفة عام ١٩١٦م وأصبح محاضراً في الجامعة نفسها حتى عام ١٩٢٠م حيث حصل على الجنسية الأمريكية ، ثم عاد إلى بيروت لِيُدَرِّسَ في الجامعة الأمريكية حتى عام ١٩٢٦م . رجع بعدها إلى الولايات المتحدة ليعمل محاضراً في جامعة برنستون ، الشهيرة في ميدان الدراسات الاستشراقية والعداء للإسلام والمسلمين ، ثم أستاذاً مساعداً فيها إلى أن أصبح رئيساً لقسم اللغات والآداب الشرقية (قسم الدراسات الشرقية) واستمر في رئاسته لهذا القسم حتى تقاعده عام ١٩٥٤م .

وهو مستشار غير رسمي لوزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط ، ورغم تظاهره بالدفاع عن القضايا العربية هناك [بعض الوفود العربية في الأمم المتحدة استعانت به واتخذته مستشاراً لها] إلا أنه في المواقف الجدية سرعان ما يخونه التظاهر ليعود إلى حقيقته ، ففي شهر شباط ١٩٤٦م مثلاً ، وقف ليدلي بشهادته أمام لجنة التحقيق الأنكلو أمريكية بشأن فلسطين ، وإذا به يقول أمامها : « **ليس هناك شيء اسمه فلسطين في التاريخ مطلقاً** : There is nothing as Palestine in History;absolatly not [(١)] .

ولما ذهبت اللجنة إلى القدس ، واجتمعت بالأمين العام للوكالة اليهودية يومها « دافيد بن غوريون » لم يزد على أن قال :

« في الشهادة التي تقدم بها أمامكم الدكتور فيليب حتي في الولايات المتحدة : إنه لم يكن في التاريخ شيء يسمى فلسطين ، وأنا دافيد بن غوريون أقول لكم : إني أوافق الدكتور فيليب على قوله » .

صانعو التاريخ العربـــي ...

دراسة وضعها فيليب حتى بالإنكليزية عام ١٩٦٨م . بجامعة برنستون ، وترجمت إلى العربية ونشرتها في بيروت « دار الثقافة » وقد خصصها لدراسة شخصيات مسلمة بدأها برسول الله ﷺ ، **ومن هذه الشخصيات : عمر ، معاوية ، الغزالي ، ابن سينا ، ابن خلدون ...**

صدرها بمقدمة جاء فيها قوله : « ... **إن المادة التي اعتمدناها في هذه الدراسة مستمدة من المصادر الأولية بعد مقابلتها بنتائج الأبحاث**

---

(١) انظر كتاب « الوسيط في رسالة المسجد العسكرية » للواء الركن محمود شيت خطاب ، ص : ٢٤ .

العلمية التي قام بها علماء الشرق والغرب ... » (ص : ٧) .

وأول شخصية بدأ الحديث عنها كانت : « **النبي العربي محمد ، صاحب وحي ورسالة ، وباني أمة ومؤسس دولة ...** » (ص : ١٣) وقد استوعب عشرين صفحة من صفحات الكتاب المذكور (ص : ١٢ إلى ٣٢) وسنتخذ من هذه الصفحات العشرين أنموذجاً لبيان العبث بالتاريخ الإسلامي ، ومحاولات تزييف الحقائق للدلالة على منهج هؤلاء العلمي !! في دراسة حقائق التاريخ الإسلامي .

أثر النصرانيـــــة في الإســـلام :

في الصفحة (١٦) من الكتاب المذكور يقول مؤلفه :

« ... **وعندما خرج الفتى ـ محمد ﷺ ـ وهو بعد في الثانية عشرة من عمره مع عمه أبي طالب إلى الشام ، نظر راهب مسيحي اسمه بحيرا إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ... هذه الأساطير الإسلامية والمسيحية التي حيكت حول بحيرا تعكس لنا شيئاً عن العلاقات القديمة بين الديانتين ، وعن أثر المسيحية**[٢] » .

---

(٢) جاء في كتاب الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة » المطبوع في القاهرة عام ١٩٦٤م بمطبعة « قاصد خير » بالفجالة ... قول مؤلفه عن الرسول ﷺ :
« وكان ذكاؤه الطبيعي مفرطاً ،وأفكاره وقّاده ، وفي أثناء تردده إلى سورية وفلسطين عاشر كثيرين من النصارىٰ واليهود ، وخالط عامتهم وخاصتهم ، وسمع تعاليم كثيرة لهم ، بعضها من الكتاب المقدس [العهدين القديم والجديد ، أو التوراة والانجيل] وبعضها خرافات كانت تلهج بها العامة ، فكان يعلق ذلك في ذاكرته ومذكراته ... ولما بلغ سنه الأربعين ، كان حفظ شيئاً من تلك التعاليم الصحيحة والكاذبة ومزجها بتصوراته ، ولعدم وقوفه على مصادر التعاليم الصحيحة ، وهو الكتاب المقدس ، لما أراد أن يدونها زاد فيها ونقص ، وغير وبدل ، كما يعلم ذلك من قرأ حوادث الكتاب المقدس المسرودة في القرآن ...

وكان قد مهد للوصول إلى هذه النتيجة بوصفه الفترة من حياة الرسول ﷺ **التي سبقت زواجه من خديجة رضي الله عنها بالغموض في الصفحة (١٤) وليؤكد بعد ذلك في الصفحة (١٨) أنه عليه الصلاة والسلام كان قارئاً كاتباً ، حتى إذا ذكر أثر المسيحية على الإسلام بينهما كان لكلامه الأثر في قلب قارئه وعقله ، لذا كان تحريفه لحديث رسول الله ﷺ في بدء الوحي حيث يقول** : « **وذات ليلة من أخريات ليالي رمضان ، بينما كان محمد - ﷺ - يفكر في المشكلات التي كانت تقلق باله**[٣] ، **سمع فجأة صوتاً يقول له** : **اقرأ ، فكأنه سأل** : **ماذا أقرأ ؟ ولكن الصوت أتاه ثانية يقول** : **اقرأ وربك الأكرم** ... **ولربما كان النبي** ﷺ - ينتفع بالقراءة والكتابة في تصريف شؤونه ، ولكن يبدو أنه لم يكن متأكداً أنه يستطيع أن يكتب أموراً في الدين ... » (ص : ١٨) .

بينما كان قول رسول الله ﷺ **الذي وعته كتب المحدّثين والمؤرخين على سواء** : « **ما أنا بقارىء** » **و** « **لست بقارىء** » وما ورد في سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨ ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ **على الضد مما ذهب إليه** .

أما قضية أثر المسيحية ، فقد سبق مشركو العرب المستشرقين وأسلافهم من رجال عصر النهضة الأوروبية في افترائها على رسول

---

(٣) يحدد « حتّى » المشكلات التي كانت تشغل بال محمد ﷺ ، وتلهب نفسه بأمرين :

الأول : ما كان يعانيه مجتمعه من بؤس وشقاء .

والثاني : أنه كان لليهود والمسيحيين كتاب ، وأنهم كانوا أكثر تقدماً وأحسن مستوى مما كان عليه قومه (ص : ١٧) يريد بذلك أن يدلل على الصلة الوثيقة للرسول ﷺ قبل نبوته باليهود والنصارى مسوغاً ما ذهب إليه من أثر النصرانية في الإسلام .

الله ﷺ ، وبأن « **عداساً** » الغلام النصراني لابني ربيعة ، الذي آمن بالإسلام ودخل في دين الله عز وجل عندما التقى بمحمد عليه الصلاة والسلام في حائط (بستان) لهما دخله ﷺ ليستريح مما عاناه وغلامه زيد بن حارثة رضي الله عنه على أيدي سفهاء أهل الطائف وطغاتهم وغلمانهم .. هو الذي كان يعلمه ...

ونزل قوله تعالى في سورة النحل ، الآية : ١٠٣ ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُون إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** ﴾ وكذلك قوله تعالى في سورة الفرقان ، الآيات : ٤ ـ ٦ ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ .

وما كان الكثيرون من أركان عصر النهضة من أمثال « **بوليدور فيرجيل** » الذين زعموا أن الإسلام « **نسيج مشوه ، مستقىً من مصادر مسيحية** » (**المستشرقون والإسلام** : ١٦) **وما زعمه في العصر الحديث من أمثال** « **جولد تسيهر** » **في كتابه** (**العقيدة والشريعة** : ١٣) **و** « **بروكلمان** » في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية : ١ / ٤٢) **و** « **برنارد لويس** » في كتابه (العرب في التاريخ : ٥٠) وغيرهم من المستشرقين إلا مرددين لمزاعم وافتراءات مشركي العرب ومن عاصرهم من الكفار يومها ..

هذا ، ومن نظر في كتاب الله عز وجل كفاه لمعرفة زيف هذا الكلام الذي زعموا له « المنهج العلمي من عودة إلى المصادر ومناقشة الروايات » : فالقرآن الكريم ينزه الله عز وجل عن كل مشابهة لأي من مخلوقاته تنزيهاً كاملاً ، ويرفض أبوته للمسيح عليه السلام ولغيره من البشر أياً كان : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾

(سورة الإخلاص) ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَـةٍ ﴾ (المائدة : ٧٣) .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة : ١١٩) .

والإسلام يرفض لعنة الخطيئة وعقيدة الفداء والكفارة ، وهي الأساس الذي تقوم عليه عقيدة النصارىٰ ، ويرتب مسؤولية كل فرد عن عمله ، ومن أسسه ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وفي هذا كله مباينة كاملة للمسيحية ، إضافة إلى شمول الإسلام لنواحي الحياة كلها ، وتدخّله لتنظيمها وتوجيهها ، في حين اقتصر أثر المسيحية على الكنيسة وبداخلها فقط .

وهل يعقل لفتى لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، وفي لقاء عابر مع الراهب بحيرا أن يأخذ عنه ويتلقى منه ما يمكن لمؤرخ يدعي العلمية أن يرتب عليه « أثر المسيحية في الإسلام » ؟ ! .

ولو كان رسول الله ﷺ قد تلقى عن بحيرا وغيره من أهل الكتاب شيئاً مما يدعو الناس إليه ، فالمفروض أن يضفي على من أخذ عنهم صفات الأصالة والحق والكمال ، وأن ينزل ما أخذ منزلة السداد والصحة والتجرد ، أما أن نرىٰ العكس من هذا كله ، فهم ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ ﴾ (النساء : ٤٦ والمائدة : ١٣) و ﴿ يَفْتَرُونَ عَلىٰ اللَّـهِ الْكَذِبَ ﴾ (النساء : ٥٠) و ﴿ يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون .. ﴾ فهذا مخالف لبدائه العقول ولما تعارف عليه الناس ،

لأنه لو تلقى عنهم لما ضمن ، وهو يسفه عقائدهم ويهتك أستارهم ، سكوتَهم عنه وعدمَ تكذيبهم إياه ، وفضحهم له فيما أخذ عنهم وبيان ما تلقنه على أيديهم !! وكل هذا لم يحدث ، ولم يسجل التاريخ حادثة واحدة وقف فيها هؤلاء موقف الرد على رسول الله ﷺ بهذا الافتراء ، بل إن القرآن الكريم وكتب التاريخ والسيرة وعت ما دار بين الرسول ﷺ ووفد نصارىٰ نجران ، وكيف أنهم رفضوا الملاعنة التي عرضها عليهم رسول الله ﷺ ، ولم يذكروا كلمة واحدة تشعر ولو من بعيد بأنه عليه الصلاة والسلام أخذ عن ديانتهم أو تلقى عن كتبهم﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

التشابه النسبي :

إن التشابه النسبي الضئيل الذي يمكن أن نلحظه بين الإسلام والكتاب المقدس (التوارة والإنجيل) في بعض الأمور يُفَسَّرُ بوحدة النبع الإلٰهي الذي صدرت عنه هذه الكتب السماوية في أصلها ، خاصة وأن الرسول ﷺ جاء ليرسي قواعد التوحيد والتسليم المطلق لله عز وجل .. وهي الأصول الكبرى للديانات السماوية ، ولم يأت لنقضها ، كما جاء ليؤكد وحدة الدين الذي أوحى به الله عز وجل إلى أنبيائه ورسله ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى : ١٣) و ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

وحَىٰ إليّ ومَا أنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (**الأحقاف** : ٩) .

ويؤكد ما ذهبنا إليه أيضاً ما رواه الواحدي في « **أسباب النزول** » : (عندما سمع نجاشي الحبشة آيات من القرآن الكريم تلاها على مسمعه **جعفر ابن أبي طالب** رضي الله عنه ، قال :

« إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، والله ما زاد المسيح على ما تقولون ... »

وكانت القسس والرهبان كلما سمعوا آياته يتلوها جعفر رضي الله عنه انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق ، وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى) .

كما أن القرآن الكريم جاء بقصص لأقوام بادت لم يرد لها ذكر في الكتاب المقدس مثل : قصة عاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع وأصحاب الرسِّ ولقمان وذي القرنين ، إلى جانب المغايرة التي تكاد تكون تامة بين قصص القرآن والقصص التي ورد ذكرها في أسفار العهد القديم مثل : قصة آدم عليه السلام وسجود الملائكة ، وتمرد إبليس وطرده من الجنة ولعنته ، وتوبة آدم عليه السلام ... وقصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ... الخ .

اليـــأس في حيـاة محمــــد ﷺ ...

يقرر الكاتب في الصفحة الثالثة والعشرين أن (الهجرة كانت نقطة تحول في حياة محمد ﷺ **إذ استحال اليأس والقنوط إلى أمل وثقة وتوكيد للذات**) **ولم يذكر حادثة واحدة تدل على اليأس أو القنوط في حياته عليه الصلاة والسلام ، ولم يأت بأي دليـل يعضد مـا ذهب إليه حتى ولو إشارة ... ولا ندري كيف يكون يائساً وقانطاً مَنْ تحمل الشدة وصبر**

على اللأواء وأصر على متابعة الطريق رغم مشقته ووعورته ، ورغم المغريات التي عرضت عليه للتخلي عنه ؟ ألم تحفظ كتب التاريخ ، وتروِ كتب السيرة كيف كان عليه الصلاة والسلام يعرض نفسه على القبائل متنقلاً من واحدة لأخرى علَّه يجد من ينصره ويقف معه ليبلغ دعوة الله عز وجل ، ويصر على تحمل الأمر ؟ !

أيكون يائساً من قال لعمه عندما ظن أنه خاذله ، عندما جاءه قائلاً : لا تحملني من الأمر ما لا أطيق ... قال : « يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه » ؟ (السيرة للذهبي : ٨٥)

أيكون يائساً وقانطاً من يرفض الرئاسة في قومه ، ويرفض النساء والأموال ، وكل ما يقدم الرجل في قومه من مواضعات جاهلية ، عندما جاءه أبو الوليد ، عتبة بن ربيعة ممثلاً لزعماء قريش ووجهائها يعرض عليه هذه الأمور على أن يترك الدعوة إلى الله تعالى ، ويرفض عليه الصلاة والسلام هذه المغريات كلها ، ويصبر على الشدة واللأولاء في سبيل الله : (إن كنت تريد مالاً جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالاً ؛ وإن كنت تريد شرفًا سوَّدناك وملَّكناك ...) (الذهبي : ٩٢) .

أهذا هو المنهج العلمي ، أم الهوى والتعصب ؟!

تفسير مـادي ونظـــرة كنســـية :

في الصفحة السادسة والعشرين يقول : (ولكن بعد انقضاء سنتين وجدت المدينة المضيفة نفسها على حافة الانهيار ، أولاً : لسوء حالتها الاقتصادية ، وثانياً : لأن موارد المدينة كانت محدودة ...

ثم يتابع قائـــلاً :

كانت القوافل المكية إغراءً لم يتمكن أهل المدينة من مقاومته ، وذات

يوم من أيام رمضان ، وفي أثناء الشهر الحرام ، وقعت غزوة بدر ، وإذا كان السيد المسيح برّر عمل تلاميذه يوم السبت على أساس أن السبت وجد للإنسان لا الإنسان للسبت ، فلماذا لا يبرر النبي - ﷺ - غزوته هذه في الأشهر الحرم) .

قبل بيان الأخطاء التاريخية التي وقع فيها ، وخطل التفسير الذي ذهب إليه ، نقول : إن الله عز وجل أباح للمسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة وقيام دولتهم هناك أن يستعملوا القوة المادية لدفع أذى المشركين ، وكان هذا في قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (الحج : ٣٨ - ٣٩) بل إن بعض العلماء يرى أن هذا الإذن بالقتال كان في أواخر العهد المكي ، وأن الهجرة جاءت بعد نزول هذه الآيات لتمهد للجماعة المسلمة السبيل لتنفيذ ذلك الإذن (زاد المعاد : ٢ / ٥٨ ، ابن هشام : ٢ / ٧٦) ويرى الشافعي رحمه الله أن المسلمين في مكة ظلوا في أول البعثة مستضعفين ، ثم أذن لهم بالهجرة ، فهاجرت طائفة إلى الحبشة ، ثم أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، ثم كانت إباحة القتال للدفاع (أحكام القرآن : ٢ / ١١ - ١٨) .

وعلى هذا لم تكن غزوة بدر الكبرى أول مواجهة مسلحة بين المسلمين والمشركين ، ولكنها سبقت بغزوات وسرايا عديدة بدأت بعد اثني عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة بغزوة ودّان ، وسرية عبيدة ابن الحارث رضي الله عنه ، وسرية حمزة رضي الله عنه إلى سيف البحر ، وغزوة بواط ، وغزوة العشيرة ، وسرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وغزوة بدر الأولى ، وسرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه ، وهي التي وقعت في الشهر الحرام (رجب) لا غزوة بدر الكبرى

التي وقعت في رمضان ، ورمضان ليس من الأشهر الحرم التي هي « ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب » ولم يبرر الرسول ﷺ لأصحابه قتالهم في الشهر الحرام ، بل قال لهم : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » وأسقط في أيديهم ، وعنّفهم إخوانهم فيما صنعوا ، واستغلت قريش الأمر ، وبدأت حملة تشهير ضد المسلمين ، وكان مما قالته : « **قد استحل محمد ﷺ وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم فيه ، وأخذوا الأموال ، وأسروا الرجال** .. » وجاءت آيات القرآن الكريم﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** ﴾ (**البقرة** : ٢١٧) **تُقرر الخطأ الذي وقع فيه عبد الله بن جحش وأصحابه عندما أقدموا على القتال في الشهر الحرام ، وتقرر أيضاً أن ما قامت به قريش من صد عن سبيل الله وكفر به ، وإخراج للمهاجرين من بيوتهم أكبر وأعظم مما وقع فيه بعض المسلمين﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ (**البقرة** : ٢١٧) **فالقرآن الكريم لم يبرر الخطأ** ، **وكذلك الرسول** ﷺ لم يفعله ، بل لم يكن من طبيعته ﷺإلا الجهر بالحق وتقويم الاعوجاج ، والسيرة ملأىٰ بالشواهد على ذلك ...

ولم تكن هذه السرايا والغزوات إلاَّ امتثالاً لأمر الله عز وجل الذي أذن لهم بالدفاع عن أنفسهم ، والاقتصاص ممن ظلمهم وانتقص حقوقهم ، ألا يكفي ما فعلته قريش من اضطهاد وتعذيب المستضعفين من المسلمين ، وما ارتكبته بحقهم من تهجير وطرد ومصادرة أموال وممتلكات ومنع الولد والزوجة ؟ ! ألا يكفي كل هذا ليكون مسوغاً للمستضعفين أن يثوروا في وجه الطاغية ؟ أفإذا ثاروا في وجهه وأخذوا بشيء من ثأرهم ومما لهم ، قالوا : إن القوافل المكية إغراء لم يتمكن أهل المدينة من مقاومته ؟ ! أهذا هو المنهج

العلمي والإنصاف وضرورة تحري وجه الحق عند تمحيص الروايات وتقليب المصادر ؟ ! .

ويظهر أثر الثقافة الكنسية على الكاتب فيما ذكره في تفسير كلمة « الدين » في الصفحة التاسعة عشرة : (نعم ، إن محمداً ﷺ كان يقول عن نفسه : إنه نبي ، ولكن تعاليمه الجديدة تتضمن أموراً اقتصادية واجتماعية وسياسية ...) فهذه الأمور ليست من الدين - عندهم - إذن ، بل هي تزيّد من النبي ﷺ !!

ويقع المؤلف في تناقض صارخ حين يقول في الصفحة نفسها (التاسعة عشرة) : (**إن أهل مكة لم يرضوا عن هذا الإله الجديد « الله » وذلك لطبيعته المنزهة عن كل شرك**) ثم يقول في الصفحة الحادية والثلاثين :

(**إن اعتراف محمد ﷺ بالكعبة والحجر الأسود وبئر زمزم ، وهي من بقايا الجاهلية العربية جعل الإسلام يبتعد عن الديانتين التوحيديتين : اليهودية والنصرانية**) فالديانة التي نزهت الله عن كل شرك ديانة وثنية ، أما التي قالت « المسيح ابن الله » والتي قالت : « عزير ابن الله » والتي اعتبرت « الله ثالث ثلاثة » فهي ديانة توحيدية !! .

روايـــــات شعبيـــــة :

وفي الصفحة الخامسة عشرة يقول :

(**إذا كان الواقع ، وإذا كان التاريخ قد حرما محمداً ﷺ الفتى الثروة والسعادة ، فإن إيمان الناس ورواياتهم الشعبية أغنت حياته وزينتها بالعجائب التي تذكرنا ما أحاط به النصارىٰ حياة المسيح ، والبوذيون حياة بوذا من عجائب وخوارق**) ويجعل من هذه الروايات الشعبية :

ما شعرت به حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ بالحليب يملأ ثدييها الجافين ساعة وضعته في حجرها ، وكذلك ما رآه ابنها من شق صدر رسول الله ﷺ واستخراج قلبه وغسله بعد نزع العَلَقة السوداء منه ، ولم ير الكاتب بأساً في أن يقول بعد ذلك : (وفي القرآن الكريم يخاطب الله تعالى نبيه قائلاً :﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ...﴾ (الانشراح : ١ ـ ٤) **فهو هنا لم يكتف بوصف ما جاءت به الأحاديث النبوية ، بالروايات الشعبية التي أحاطت حياة الرسول** ﷺ بالعجائب ! ولكنه يصم القرآن الكريم بذلك أيضاً ...

وفي الصفحة التاسعة عشرة يصف نزول الوحي على رسول الله ﷺ باللاوعي : (**وفي هذه الحالة النفسية من الانفعال الشديد أسرع إلى بيته ، وطلب إلى زوجته أن تدثره ، وهو في حالة اللاوعي** (!!) **سمع الصوت يقول** :﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِرُ . قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر : ١ ـ ٢) .

جملة مغالطات :

وفي الصفحة الثامنة والعشرين ، يقول : (... ولكن ما إن لبث النبي ﷺ **في المدينة حتى شعر بأنه كان على خطأ فيما ظنه بهم**[٤] ، **فإن اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار ... ونشبت حرب باردة بينه وبين اليهود** ؛ **فعند بدء السنة الثانية في المدينة أمر النبي** ﷺ **أن تحول القبلة عن بيت المقدس إلى مكة ، وصار المؤذن يدعو إلى الصلاة بعد أن**

---

(٤) وكذلك راعى في أول الأمر خاطر اليهود ليكونوا أعواناً له ، وجعل وجهة المصلين بيت المقدس ، فلما قويت شوكته نقض هذا الأمر ، وجعل وجهة المصلين الكعبة ، وهي معبد أصنام قديم لعرب قريش لا يزال فيه حجر أسود يدعي العرب أنه نزل من الجنة . (الخريدة النفيسة) .

كانوا يستعملون الناقوس ، واتهم أهل الكتاب بأنهم أفسدوا الدين الصحيح وأخفوا الوحي وحوّروا فيه ...) .

يثير الكاتب في هذه السطور القضايا التالية :

تحويل القبلة إلى مكة ـ اللجوء إلى الأذان للدعوة إلى الصلاة بدلاً من استعمالهم الناقوس ـ اتهام أهل الكتاب بالإفساد والتحوير في الدين ...

حادثـــة تحويـل القبلـــة :

كان العرب في جاهليتهم يعظمون الكعبة ويعتبرون البيت الحرام عنوان مجدهم ، وحتى تخلص نفوس الذين آمنوا برسول الله ﷺ لله عز وجل ، كان أمر الله لهم بالتوجه أثناء الصلاة إلى المسجد الأقصى ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ... ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا** ﴾ أي : بيت المقدس﴿ **إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ** ﴾ (**البقرة : ١٤٣**) .

واستجاب المسلمون للأمر ، واستمروا على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة ، واتخذ اليهود هذه ذريعة للاستكبار عن الدخول في دين الله عز وجل ، وقالوا : **إن قبلتهم هي القبلة ، فأَوْلى بمحمد ـ ﷺ ـ ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول إلى الإسلام** ... فكان نزول الآية السابقة لبيان الغاية التي من أجلها أمر الله عز وجل المسلمين بالتوجه إلى بيت المقدس ... وكان الرسول ﷺ في هذه الأثناء يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى الله عز وجل يتطلع إلى القبلة الأولى ـ قبلة إبراهيم الخليل ـ فنزل قوله تعالى : ﴿ **قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحَرَامِ وحيْثُ ما كُنتُمْ فوَلّوا وُجوهَكُمْ شَطْرَهْ** ﴾ (البقرة : ١٤٤) .

استعمال الناقوس للدعوة إلى الصلاة :

روى الإمامان أحمد والبخاري عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول :

[كان المسلمون يجتمعون ، فيتحيّنون - يقدرون أحياناً ليأتوا إليها - الصلاة ، وليس ينادي بها أحد ، فتكلموا يوماً في ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى . وقال بعضهم : بل قرناً مثل قرن اليهود - بوق للنفخ - فقال عمر رضي الله عنه :أو لا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : « **يا بلال ، قم فنادِ بالصلاة** »] .

وقد شُرع الأذان في السنة الأولى للهجرة ، وتحويل القبلة كان في آخر السنة الثانية للهجرة ، ولا صلة مطلقاً بين تحويل القبلة والأذان ...

إفساد أهل الكتاب وتحويرهم :

لو عدنا إلى الآيات المكية ، التي نزلت في مكة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة ، لوجدناها ملأى بالآيات التي تبين إفساد أهل الكتاب (يهود ونصارى) وتحريفهم للكتب السماوية ... ويمكن أن نذكر أمثلة على ذلك ما جاء في سورة النمل (الآيات : ٧٦ - ٧٧) : **﴿ إنّ هذَا القرآنَ يَقُصُّ على بَنِي إسرائيلَ أكثَرَ الذي هُمْ فيهِ يختلفونَ . وإنّه لَهُدىً ورحمةٌ للمؤمنينَ ﴾** :

وما جاء في سورة الشورى (١٣ - ١٥) :﴿ وَمَا تَفرَّقُوا إلّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً

لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مُرِيبٍ . فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ .

وما جاء في سورة الجاثية (الآيات : ١٦ ـ ١٨) من فضح اختلاف بني إسرائيل وانحرافهم ، وتُنهي ذلك بأمر الرسول ﷺ باتباع شريعته ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وكذلك ما جاء في سورة الأعراف (الآيات : ١٥٧ ـ ١٥٨) وسورة النحل (الآيات : ٦٣ ـ ٦٤) وهذه كلها نزلت في العهد المكي ، تحذر الرسول ﷺ من يهود ، وتبين انحرافهم ...

أخطـــاء تاريخية صارخــــــــة :

قال الكاتب في الصفحة الحادية والعشرين : « ... فأُرغم النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه على الهجرة أولاً إلى الحبشة النصراينة ... » والثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ لم يهاجر أصلاً إلا إلى المدينة المنورة .

وفي الصفحة الثانية والعشرين : « ... أما هو ـ أي محمد ﷺ ـ فوصلها ـ أي : المدينة المنورة ـ يرافقه أبو بكر وعلي ـ رضي الله عنهما ـ في الرابع والعشرين من شهر أيلول سنة ٦٢٢م . » والصحيح أن الذي كان يرافق الرسول ﷺ في هجرته هو الصديق رضي الله عنه صاحبه في الغار ، أما علي رضي الله عنه فهو الذي بقي في مكة يبيت في فراش الرسول ﷺ ليعمّي على قريش ، إضافة إلى مهمة إعادة الأمانات التي كانت لدى الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابها في مكة .

وفي الصفحة السابعة والعشرين : « ... واستشهد ـ في غزوة بدر ـ من المسلمين ثمانون رجلاً ... » والصحيح : أن قتلى المشركين سبعون ، وأسراهم سبعون ... وكان جميع من استشهد من المسلمين في تلك الغزوة أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ...

وبعد : فهذا حصاد ما يقرب من عشرين صفحة فقط من تلك الدراسة (**صانعو التاريخ العربي**) يمكن أن تكون أنموذجاً يدلل على مدىٰ الأمانة العلمية وتحري الصدق في الروايات التاريخية لدىٰ هؤلاء ...



الفصل الثاني

مع سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه (١)

من الملاحظ أن بعض الأمم التي ليس لها تاريخ تحاول أن تصنع لنفسها تاريخاً تُنَشِّئ عليه أجيالها ، وبعضها الآخر يفرد كل واحد من عظمائه وقادته وعلمائه بتاريخ خاصّ ، لأن ذلك أبقى لذكرهم ، وأظهر لشهرتهم ، وأقرب لتناول أخبارهم ليكونوا أسوة طيبة للاقتداء بهم ، والاعتبار بجليل أعمالهم ، وللوقوف على مواضع الصواب ومظانِّ الخطأ

---

(١) هو أبو سليمان ، خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، القرشي ، سيف الله . أمه : لبابة الصغرى بنت الحارث أخت ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين ، أسلم بعد الحديبية ، وكانت هجرته مع عمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة ، رضي الله عنهم أجمعين ، ولما رآهم رسول الله ﷺ قال : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . لما أراد اللحاق برسول الله ﷺ التقى بعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ، وكان لا يزال على شركه ، فتحاورا ، وكان مما قاله لعكرمة : لم أصْب ولكن أسلمت . فقال عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألّا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت . فقال خالد : ولِمَ ؟ قال عكرمة : لأن محمداً - ﷺ - وضع شرف أبيك ، وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله ما كنت لأسلم ، ولا أتكلم بكلامك يا خالد ، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله ؟ فقال خالد : هذا أمر الجاهلية وحَمِيَّتها ، ولكني والله أسلمت حين تبين لي الحق ... =

في تصرفاتهم ، والأخذ من ذلك كله بما يصلح ويفيد ، والابتعاد عما يُستنكر ويستشنع ...

فكيف بنا ، نحن المسلمين ، ولدينا جيل الصحابة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، جيل القدوة الحقة ، وحملة الوحي الإلٰهي إلى الناس ، الجيل الذي استعلى على الجاهلية بقيمها وتصوراتها وما تعارفت عليه وتواضعت ، وتحمَّل في سبيل دعوة الله تعالى ما تحمَّل من عنت ومشقة وترك الأهل والولد ، وبذل ما بذل من تضحيات كثيرة وجهود كبيرة ، الجيل الذي كبرت نفوس أفراده عن أن تخلُدَ إلى الصغائر والدنايا وسفساف الأمور ، أو أن ترضى بالحقير التافه من الشهوات والأهواء والملاذّ ، فطمحت بهم إلى عظائم الأمور ومعاليها ، وانصرفت بهممهم نحو غايات الكمال والفضائل ، فنالوا بهذا حياة لا تفنى ، وتركوا في الوجود آثاراً لن تزول ... ومن حق الأجيال المسلمة

= شهد غزوة مؤتة ، وغزوة خيبر ، وفتح مكة ، وحنيناً ... وروى عن رسول الله ﷺ ثمانية عشر حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على حديث منها . وروىٰ عنه من الصحابة : ابن عباس ، وجابر ، والمقدام بن معد يكرب ، وأبو أمامة رضي الله عنهم ... ومن التابعين : قيس بن أبي حازم ، وأبو وائل وغيرهما .

كان من المشهورين بالشجاعة والشرف والرياسة ، ثبت في صحيح البخاري عنه ، قال : لقد اندَقّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية ؛ ولاه رسول الله ﷺ بعد إسلامه أعنة الخيل ، ليكون في مقدمتها ؛ وبعثه إلى العُزّىٰ فهدمها ، وأرسله إلى أُكيدر صاحب « دومة » فأسره وأحضره عند رسول الله ﷺ ، فصالحه على الجزية وردهّ إلى بلده ؛ وفي السنة العاشرة للهجرة أرسله رسول الله ﷺ إلى بني الحٰرث بن كعب ، فقدم معه رجال منهم ، فأسلموا ، ورجعوا إلى قومهم ... أمَّره أبو بكر رضي الله عنه على قتال مسيلمة الكذاب والمرتدين باليمامة ، وكان له في قتالهم الأثر العظيم ، قضى على فتنة مسيلمة ، وقتل مالك بن نويرة ، الذي قال صاحب (شذرات الذهب : ١/١٥) فيه : (... وكان مالك من دهاة العرب ، عرض =

أن تعرفهم على حقيقتهم ، أنقياء أطهاراً صادقين ، فتطمئن نفوسهم إلى الخير الذي حملوه وأدوه إلى البشرية ، لا على الصورة التي يحاول إظهارهم بها من يمكرون بهذه الأمة ودينها وتاريخها ليقيموا حاجزاً بين هذه الأجيال والجيل الأول بتشويه صورته وتزييف سيرته للتوصل إلى طعن الدين بطعن حملته ، والنأي بعد ذلك بهذه الأجيال بعيداً عنه إلى حيث يصبحون « إمَّعات » يسيرون في ذيل القافلة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، والمكرة في ذلك كله يتخذون من العبث بالتاريخ الإسلامي وتشويهه وسيلتهم للتوصل إلى ما يريدون ، وتأتي كتابات « فيليب حتّي » وأمثاله في مقدمة هذه الدراسات المبتسرة العابثة .

في كتابه « صانعو التاريخ العربي » خصص « حتّي » فصلاً للحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بدأه بقوله : (يقال لنا : إن حروب

= على خالد الصلاة دون الزكاة ، فقال خالد : لاتُقبل واحدة دون الأخرى ؛ فقال مالك : كذلك كان يقول صاحبك ـ يعني رسول الله ﷺ ـ قال خالد : وما تراه لك صاحباً ؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك ، ثم تجادلا في الكلام ، فقال خالد : إني قاتلك . قال : أو كذلك أمر صاحبك ؟ قال خالد : وهذه ثانية بعد تلك ؛ والله لأقتلنك...).

وله الآثار العظيمة في قتال الروم بالشام، والفرس بالعراق، وافتتح دمشق، وكان في قلنسوته شعر من شعر رسول الله ﷺ يتبرك به ويستنصر به، فلا يزال منصوراً، لما حضرته الوفاة سنة إحدى وعشرين للهجرة ـ بمدينة حمص، وقبره فيها (على خلاف في ذلك) ـ قال: لقد شهدت مائة زحف أو نحوها، وما في بدني موضع شبر إلّا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وهأنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء؛ وما لي من عملي أرجى بعد لا إله إلا الله، من ليلة بِتُّها وأنا متترس بها، والسماء تمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار. وحزن عليه عمر رضي الله عنه والمسلمون حزناً شديداً. ثم قال: إذا أنا متّ فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله... (تهذيب الأسماء: ١/١٧٣، الإصابة: ١/٤١٣، الاستيعاب: ١/٤٠٦).

الردة كان سببها رفض القبائل في أنحاء الجزيرة العربية أن تدفع الزكاة بعد موت محمد - ﷺ - وهي فريضة من فرائض القرآن ، وأصر الخليفة أبو بكر على قتالهم إلى أن يذعنوا ويستسلموا ... الواقع أن هذه الحروب التي يسمونها حروب الردّة لم تكن حروباً لمحاربة المرتدين ، أي : الذين قبلوا الإسلام ثم ارتدوا عنه إلى دينهم القديم ، بل كانت بالأحرى حروباً لإدخال القبائل في الإسلام) (ص :٣٧ - ٣٨) هكذا ، تُطلق الكلمات على عواهنها دون أن يذكر دليلاً أو شبهة دليل لتعضيد الرأي الذي ذهب إليه ، وكأنه يراهن في ذلك على ثقة بعضنا بالمنهجية العلمية للمستشرقين وتلامذتهم !! وإلَّا فإن القرآن الكريم قرر صراحة دون لبس أو غموض ، وبكلمات لا تحتمل التأويل حرية الإنسان في اختيار العقيدة التي يريد ﴿ لَا إكراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة : ٢٥٦) **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾** (الكهف : ٢٩) **والرسول ﷺ** في سيرته العملية كان ترجماناً حيًّا لآيات كتاب الله تعالى ، ولم تذكر كتب السيرة أو التاريخ حادثة واحدة أجبر فيها رسول الله ﷺ أحداً على اعتناق الإسلام ، أو أكرهه على ترك دينه ... بل إنه ﷺ أوجب الدعوة قبل القتال إلى إحدى ثلاث خصال : **إما الإسلام ، أو الجزية ، أو السيف ، روى مسلم في صحيحه من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال :**

كان رسول الله ﷺ اذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ، ثم قال : اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلُّوا ،ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ؛ وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيَّتهن ما أجابوك

فاقبل منهم ، وكفّ عنهم ؛ ادعهم إلى الإسلام ؛ فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم الذي يجري على المسلمين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ؛ فإن هم أبَوْا فأسالهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ؛ وإن أبوا فاستعنْ بالله عليهم وقاتلهم) وسار المسلمون بعده في فتوحاتهم على هذه السُّنّة .

ها هو الصديق نفسه رضي الله عنه أصر على إنفاذ بعث أسامة رغم ما قاله الناس له : إن هؤلاء جند المسلمين ، والعرب ـ على ما ترى ـ قد انتقضت عليك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك ... يخرج مودعاً الجيش موصياً قائده وأفراده : (لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلُّوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امراة ، ولا تعقروا نخلاً أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلّا لمأكلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقاً ...) فأين إجبار الناس على اعتناق الإسلام ؟!

سبب الردة :

لم يكد ينتشر نعي **رسول الله** ﷺ في الآفاق حتى ظهر النفاق ، وأشرأبت من الأمم المجاورة الأعناق ، وكان أمر مسيلمة الكذاب قد استفحل ، ورأت بعض قبائل العرب أن الفرصة أصبحت مواتية ، فأخذوا يتناجون في الامتناع

عن دفع الزكاة التي ثقلت عليهم ، واعتبروها إتاوة لا تطيب نفوسهم بدفعها ، ولم تكن ردتهم ردة عن الإسلام إلى الشرك ، وإنما اعتبرهم الصدّيق رضي الله عنه مرتدين لتركهم ركناً من أركان الدين ، وهو الزكاة ... وأقر الصحابة رضوان الله عليهم ما ذهب إليه الصديق ، يؤكد هذا ما رواه الشهرستاني في « الملل والنحل » من أن **الصديق رضي الله عنه** جمع الصحابة للشورىٰ ، فاختلفوا (فقال قوم : لا نقاتلهم قتال الكفرة ؛ وقال قوم : بل نقاتلهم . حتى قال أبو بكر : لو منعوني عقالاً - الحبل الذي يعقل به البعير - أعطوا **رسول الله** ﷺ لقاتلتهم عليه ، ومضى بنفسه إلى قتالهم ، ووافقه الصحابة بأسرهم ...)

أما **ابن شاكر في « عيون التواريخ » فيقول** :

(لما جمع الصديق الصحابة للشورىٰ يومئذ ، أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدم قتالهم ، فقال أبو بكر : والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ **لقاتلتهم على منعه ، فقال عمر** : **كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله**ﷺ :

« **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إلٰـه إلَّا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله** »؟ .فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها . قال عمر رضي الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق) .

وفي الجزء العشرين من كتاب « **الكواكب** » - المحفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق - يبين **أبو الحسين** ، **عروة الحنبلي أن** قتال الصدّيق رضي الله عنه لأهل الردّة إنما كان لمنعهم الزكاة فقط ، وأفاض في ذلك مبيناً

أن من ترك شيئاً من الدين يقاتل عليه كما يقاتل لو تركه كله ، والزكاة من الدين ، فاجتهاد أبي بكر أدّاه لقتال العرب عليها ...

ويقول **عبد الله بن مسعود رضي الله عنه** في ذلك :

(لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منَّ علينا بأبي بكر ، أجمعنا على ألّا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ـ على الزكاة ـ فعزم الله لأبي بكر على قتالهم ، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية ؛ فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قُتل منهم في النار ، ومن قتل منا في الجنة ، وأن يَدُوا قتلانا ، ونغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا ؛ وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم) .

سـيف الله :

يقول « حتّي » بعد ذلك في الصفحة الثامنة والثلاثين : (كان بطل هذه الحروب جنديًا شابًا من قريش ، اسمه : خالد بن الوليد ، الذي لمع اسمه في تاريخ هذه الفترة ، واكتسب شهرة واسعة ، وكان يلقب بـ « **سيف الإسلام** » وذلك بسبب قسوته في المعارك ... وقسوته هذه أدت إلى وقوع صدام بينه وبين **عمر بن الخطاب** انتهى أمره بإذلال القائد العظيم في سهول سورية) .

ثم يعود إلى القول في الصفحة السابعة والأربعين : (**بعد أن بلغ خالد سيف الإسلام ، وبطل الفتوحات في سورية والعراق علياء مجده ، أذله عمر وألحق به الهوان ،كان عمر يضمر لخالد بعض السوء في عهد الخليفة أبي بكر وقد بلغ مسمعه أن خالداً يعيش عيشة البذخ والترف ، ويغدق على أعوانه والمعجبين به من العطايا الشيء الكثير ..**) **وبعد ذلك يذكر** « **حتّي** » كتاب عمر رضي الله عنه الذي يبين فيه صراحة سبب عزله

لخالد من القيادة ، وأنه لم يعزله عن سخطة ولا خيانة ... ويعلّق عليه بقوله : (والواقع أن هذا الكتاب الذي كتبه ـ عمر ـ إلى الأمصار يفصح عما كان يضمر من حسد) (ص : ٤٨).

وفي مقالته هذه جملة مغالطات ، منها : تسمية خالد بـ « سيف الإسلام » لقسوته :

روى **البخاري في صحيحه (فضائل الصحابة : ٢٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه** ، قال :

(إن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : **أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم) وقال ابن حجر العسقلاني** في الفتح : فإن المراد به خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ومن يومئذٍ تَسمَّى : سيف الله .

وروى ابن عساكر عن أبي قتادة فارس رسول الله ﷺ وهو يذكر بعث رسول الله ﷺ جيشَ الأمراء أنِ النبي ﷺ قال: (... ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، هو أمّر نفسه، فرفع رسول الله أصبعه وقال: اللهم هو سيف من سيوفك فانصره؛ وفي رواية: فانتصر به). ويقول: فيومئذ سمي خالد سيف الله. (مجمع الزوائد: ١/١٥٦).

كان ذلك في غزوة مؤتة ، ولم يكن قد مضى على إسلامه شهران ، والذي سماه بهذا الاسم ـ « **سيف الله** » **وليس سيف الإسلام** » كما زعم « حتّى » ـ هو رسول الله ﷺ ، ولا ارتباط بين التسمية وقتال المرتدين .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلاً ، فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله ﷺ : من هذا ؟ فأقول :

فلان ؛ حتى مرَّ خالد بن الوليد ، فقال : من هذا ؟ قلت : خالد بن الوليد ؛ فقال : نِعْمَ عبد الله هذا ، سيف من سيوف الله ».

روى ابن حبان والحاكم من طريق الشعبي عن ابن أبي أوفىٰ مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال : (لا تُؤذوا خالداً ، فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار) وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام : (نعم أخو العشيرة ، وسيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين) وقال أبو عبيدة رضي الله عنه : (سمعت رسول الله ﷺ يقول :« خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة » .

وبعد : فإننا لا ندري من أين أتى « حتّى » بهذه التسمية لخالد ؟ وأين وقع عليها ؟ وكأن المنهجية العلمية التي يلتزمها وأمثاله تقتضي الغموض وإلقاء الكلام على عواهنه دون دليل !!

بين خالـــد وعمـــر رضي الله عنهما :

ومغالطة أخرى في قوله : (انتهىٰ أمره بإذلال القائد العظيم في سهول سورية) وقوله : (يفصح عما كان يُضمر من حسد) والمقصود بذلك كله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ فهو الذي أذل خالداً رضي الله عنه بزعمه ـ والسبب يكمن في ما كان يضمره من حسد !!والإذلال الذي يعنيه يكمن في الأمر الذي أصدره عمر بعزل خالد رضي الله عنهما ، فما هو وجه الحق في المسألة ؟

إن المتتبع لجملة الروايات التي يذكرها المؤرخون المسلمون (الطبري ـ ابن الأثير ـ ابن كثير ـ ابن عساكر ...) يمكنه أن يلاحظ أن عزل خالد رضي الله عنه مر بمرحلتين :

العـــزل الأول : كان في السنة الثالثة عشرة للهجرة ، بعد وفاة الصديق واستخلاف عمر رضي الله عنه ، روى الطبري في تاريخه (٤/٦٨ وما بعدها) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : « أما والله لئن صيّر الله هذا الأمر إليّ لأعزلن المثنّىٰ بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام حتى يعلما أن الله هو الذي نصر ، ليسا هما ... » ويؤكد هذا أيضاً ما رواه الطبري نفسه من أن عمر رضي الله عنه بعد أن عزل خالداً ، كتب إلى الأمصار ما خطب به الناس في المدينة المنورة : « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يُوكلُوا إليه ويُبْتَلَوْا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعُرْض ـ بطريق ـ فتنة » ولما قدم عليه خالد رضي الله عنه ، قال عمر متمثلاً :

صنعتَ فلم يصنع كَصُنْعِكَ صانعٌ وما يصنع الأقوامُ فالله صانع

وقد أيد هذا ما رواه البخاري في تاريخه من أن عمر كتب إلى الأمصار أنه لم يعزل خالداً عن سخطة أو خيانة... وما رواه الذهبي في (سير أعلام النبلاء: ١/٣٧٨) عن عمر رضي الله عنه: (لأنزعنّ خالداً حتى يُعلم أن الله إنما ينصر دينه ـ يعني بغير خالد).

ويؤكد هذا أيضاً ما رواه ابن عساكر في تاريخه (١/ ٥١١) من أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة رضي الله عنه عندما ولاه إمارة جند الشام بدل خالد رضي الله عنه يقول له : « وليكن فيمن تحتبس خالد بن الوليد ، فإنه لا غنىٰ لك عنه » ولم يكن عمر رضي الله عنه يخفي رأيه بضرورة عزل خالد رضي الله عنه ، بل كان قد أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعزله ، وأبى الصديق ذلك قائلاً : « لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين » . وفي عهد استخلاف أبي بكر لعمر رضي الله عنهما جاء قول أبي بكر لعمر : « **وإن فتح الله على أمراء الشام ، فاردد أصحاب خالد**

إلى العراق ، فإنهم أهله وولاة أمره ...» وقول عمر تعقيباً على ذلك : « كان أبو بكر قد علم أنه يسوؤني أن أؤمر خالداً على حرب العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره » إنها كلمة حق وصدق ينطقها رجلُ الحقُّ آثَرُ عنده من الدنيا كلها ؛ فلما تولّى الخلافة ، برَّ بقسمه قائلاً : « ما صدقت الله إن كنتُ أشرتُ على أبي بكر بأمر لم أُنفذه » .

وسبب آخر للعزل يرويه الزبير بن بكار ، قال : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً ، وكان فيه تقدم على أبي بكر ، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر ، وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد ... وقال عمر لأبي بكر : اكتب كتاباً إلى خالد لا يعطي شيئاً إلا بأمرك : فكتب إليه بذلك ، فأجابه خالد : إما أن تدعني وعملي وإلّا فشأنك بعملك ... فأشار عمر بعزله ، ولم يعزله أبو بكر . فلما أصبح عمر خليفة كتب إلى خالد أن لا تعطي شاةً ولا بعيراً إلَّا بأمري ؛ فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر ، فقال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر ، فلم أنفذه ، فعزله ؛ ثم كان يدعوه إلى أن يعمل ، فيأبى إلّا أن يخليه يفعل ما يشاء ، فيأبى عمر . (الإصابة : ١/ ٤١٥) فكيف يدعوه إلى العمل وهو يضمر له الحسد ؟! وأين الإذلال الذي ألحقه عمر بخالد رضي الله عنهما؟!

أما العزل الثاني ، فكان في السنة السابعة عشرة للهجرة ،وكان عزلاً لخالد عن عمله تحت إمرة أبي عبيدة ، وسبب ذلك توغله وصاحبه عياض بن غنم رضي الله عنهما في أرض العدو ، فغنما أموالاً عظيمة ، وقدم عليه الأشعث بن قيس ، زعيم كندة ، الذي انتجعه طالباً ، فأجازه عشرة آلاف درهم ، فأرسل الخليفة إلى أبي عبيدة بعزل خالد وتسييره إلى المدينة المنورة ، فرجع خالد إلى قنَّسرين ـ مقر عمله ـ ثم إلى حمص فخطب أهلها وودّعهم ، ثم خرج إلى المدينة المنورة حتى قدم على الخليفة ، فعاتبه أجمل

عتاب بقوله : « وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر » وقبل عمر عتاب خالد ، بعد أن بين له أن إجازته للأشعث كانت من الأنفال والسهمان ، فقال عمر : **« يا خالد ، والله إنك عليّ لكريم ، وإنّك إلي لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » (الطبري : حوادث سنة ١٧)**

محـــــــاورة :

روى **ابن عساكر في تاريخه (١/ ٤٦٤) أنه لما جاءت الصديق أخبارُ جيوش فتح الشام قال : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »** ثم كتب إليه كتاباً يأمره فيه بالتوجه إلى الشام ، وأن يستخلف المثنى على العراق « فإذا فتح الله على المسلمين الشام ، فارجع إلى عملك ...» ولما وصل الكتاب إلى خالد أظنَّ عمرَ ، وقال : « هذا عمله : حسدني أن يكون فتح على يديّ » . فقال له القعقاع بن عمرو التميمي : « ارفع لسانك عن عمر ، والله ما كذب الصدّيق » فقال خالد : « صدقتني والله ، فقبَّحَ الله الغضب والظنون ، والله يا قعقاع ، لقد أغريتني بحسن الظن » فقال القعقاع : « الحمد لله الذي خلصك وأبقى فيك الخير ونفى عنك الشر »...

لعل هذه الرواية هي التي استنتج منها « حتّي » ما ذهب إليه ، ولكن ، أليس من الأمانة العلمية بيان ذلك ، وإيراد الرواية كاملة ليعلم القارىء الحقيقة بنفسه ؟ أم أن المنهجية في البحث تقتضي اختصار المحاورة ، وعدم الإشارة إليها إلاّ بعبارة (يفصح عما كان يُضمر من حسد) ؟!

وابن عساكر نفسه يورد الرواية التالية :

« دخل هشام البختري على عمر في ناس من بني مخزوم ، وكان شاعراً ، فقال له عمر : أنشدني ما قلت في خالد ؛ فلما أنشده ، قال له عمر : « قصَّرت في الثناء على أبى سليمان رحمه الله ، إن كان ليحبّ أن يذلّ الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله » .

ويروي صاحب الاستيعاب : (١/ ٤٠٩) أن أبا الدرداء رضي الله عنه دخل على خالد رضي الله عنه يعوده في مرضه الذي مات فيه ، فقال خالد : يا أبا الدرداء ، لئن مات عمر لترين أمورًا تنكرها . فقال أبو الدرداء : وأنا والله أرى ذلك . فقال خالد : قد وجدت عليه في نفسي أمورًا لما تدبرتها في مرضي هذا ، وحضرني من الله حاضر ، عرفت **أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل** ، كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث إليّ يقاسمني مالي ، فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ، ومن شهد بدراً ؛ وكان يغلظ عليَّ وكانت غلظته على غيري نحواً من غلظته عليّ ؛ وكنت أدلّ عليه بقرابته فرأيته لا يبالي قريباً ولا لوم لائم غير الله ، فذلك الذي أَذْهَبَ ما كنت أجد عليه ...

ولم يرض خالد رضي الله عنه إلا أن يختم حياته بتصرف عملي يدل على مدى ما يكنّ لعمر رضي الله عنه من محبة ويوليه من ثقة ، إذ لمّا حضرته الوفاة أوصى إلى عمر ، فتولى وصيته ؛ قال صاحب (الإصابة : ١/ ٤١٥) : « ... **وقد جعلت وصيتي وتركتي وإنفاذ عهدي إلى عمر بن الخطاب** ... » .

ولا غرابة في هذا ، فخالد رضي الله عنه هو الذي يقول ، فيما رواه أبو عبيد في كتابه « الأموال » عنه : « لا تمشِ ثلاث خطى لِتُأمَّر على ثلاثة نفر ، ولا ترزأ معاهدًا إبرة فما فوقها ، ولا تبغ إمام المسلمين غائلة ... » .

عندما جاء عمر الخبر بوفاة خالد رضي الله عنهما ، قال : « قد ثلم في الإسلام ثلمة لا ترتق ... رحم الله أبا سليمان ، لقد مات فقيداً وعاش حميداً ، ولما بلغه أن نسوة من نساء بني المغيرة اجتمعن في دار يبكين عليه، قال: «وما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقع ـ رفع صوت ـ أو لقلقة ـ جلبة» (الاستيعاب: ٤٠٩، الإصابة: ٤١٥، أسد الغابة: ٢/ ١١١).

على خطى « حتّي » :

ومن الذين ساروا على خطى « حتّي » صاحب كتاب « سيف الله خالد بن الوليد » من منشورات مؤسسة الرسالة بيروت ؛ حيث فصَّل ما أجمله « حتّي » في هذه الأسطر القليلة[٢] ، وصاحب كتاب « خالد بن الوليد » من منشورات دار المسيرة الذي زاد على ذلك قوله : (ودخل خالد على عمر ، وعليه قميص حرير ، فقال له عمر : ما هذا يا خالد ؟ قال خالد : وما هو البأس في هذا يا أمير المؤمنين ؟ ألم يلبسه عبد الرحمن بن عوف ؟ قال عمر : وهل أنت كعبد الرحمن بن عوف ؟ ويعلق على هذه الرواية التي ذكرها دون سند أو دليل أو مصدر استقاها منه ، قائلاً : « هذه الرواية إن صحت تشير إلى موقف خاص من عمر إزاءه ، إذ ما هو المبرر ليلبس عبد الرحمن بن عوف حريراً ويحرّم ذلك على خالد ؟ ثم إن سؤال عمر : وهل أنت كعبد الرحمن بن عوف ؟ سؤال مغيظ ، وعمر يعرف أن واحداً في عصر عمر ـ باستثناء الرسول الأعظم ﷺ ـ لم يصنع للإسلام ما صنع خالد ، فلماذا تجاوز ، وهو العادل

---

(٢) أورد بعد المقدمة ، ما زعم أنَّه السبب في التنافس والحسد الكامن بين كلٍّ من عمر وخالد رضي الله عنهما ، ويتلخص برواية أسطورية تزعم أنهما تشاجرا في طفولتهما ، فصرع خالدٌ عمر وكسر ساقه ... وأنَّ آثار هذا التنافس القديم بقيت عالقة في عقليهما الباطنين ... وأنهما كانا فاقديْ الصبر والتروي ... دون ذكر للمصدر الذي أخذ عنه ، أو سندٍ لهذه الأسطورة ... وهو الذي قال في المقدمة : (إنَّ جزءًا كبيرًا من المادة الموجودة في هذا الكتاب غير معروف لعامة الناس ...لكن كل حادثة ، وكل واقعة هي صحيحة تاريخيًا) !! (ص : ١ ـ ١٤) ويقول : (وكان أبو بكر يعلم أن هذين الرجلين العظيمين لا يكنّان المحبَّة لبعضهما) ، وأنَّ الذي دفع خالدًا للدخول في الإسلام الرغبة في تحقيق النصر والمجد (ص : ٩٩) ؛ بينما يورد ابن هشام في سيرته عن إسلام خالد ، أنه عندما لقي عمرو بن العاص ، وسأله : « أين يا أبا سليمان ؟ » قال : « والله لقد استقام الميسم ، وإن الرجل لنبي ، أذهبُ والله فأسلم ، فحتَّىٰ متى ؟ قال عمرو : والله ما جئت إلَّا لأسلم » ... وغير ذلك كثير ...

المكين ؟! إنها النفوس ، وانها لمواقف ، وسبحان العليم بما خفي واستتر) (ص : ٤٣) .

يأتي بالرواية ، ولا يكلف نفسه مؤنة تحقيقها ومراجعة الروايات جميعها في الحادثة ، ثم يرتب عليها ما رتب من اتهام لعمر رضي الله عنه حتى في نيته التي لا يعلمها إلا الله تعالى ...

وقضية لبس **عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه للحرير ، ذكرها **ابن سعد** في طبقاته (٣/ ١٣٠ ـ ١٣١) قال : أخبرنا وكيع بن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف كان يلبس الحرير من شَرْيٍ كان به ـ حكَّة ـ .

وقال : أخبرنا القاسم بن مالك المزني ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، قال : كان عبد الرحمن بن عوف رجلاً شَرِيًّا ، فاستأذن رسول الله ﷺ في قميص حرير ، فأذن له .

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أن النبي ﷺرخَّص لعبد الرحمن بن عوف في قميص من حرير في سفر من حكَّة كان يجدها بجلده .

وفي رواية **أبي سلمة بن عبد الرحمن رضي الله عنه** ، قال : شكا عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ كثرة القمّل ، وقال : يا رسول الله ، أتأذن لي أن ألبس قميصاً من حرير ، قال : فأذن له ... فلما توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وقام عمر ، أقبل عبد الرحمن بابنه أبي سلمة وعليه قميص من حرير ، فقال عمر : ما هذا ؟ ثم أدخل يده إلى جيب القميص ، فشقّة إلى سفله : فقال له عبد الرحمن : ما علمت أن رسول الله ﷺأحلّه لي ؟ فقال : إنما أحلّه لك لأنك شكوت إليه القُمّل ، فأما لغيرك فلا ...

وذكر ابن عساكر رواية قدوم خالد بن سعيد بعد وفاة الرسول ﷺ بشهر ، وعليه جبّة ديباج ـ حرير ـ فلقي عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب رضي

الله عنهما ، فصاح عمر بمن يليه : مزقوا عليه جبّته ، أيلبس الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور ؟! فمزقوا جبّته ... وكذلك أورد رواية عن دخول خالد بن الوليد على عمر رضي الله عنه ، وعليه قميص حرير ، فقال عمر : ما هذا يا خالد ؟ قال : وما باله يا أمير المؤمنين ؟ أليس قد لبسه ابن عوف ؟ قال : فأنت مثل ابن عوف ؟ عزمت على من في البيت إلَّا أخذ كل واحد منهم طائفة مما يليه : فمزّقوه حتى لم يبق منه شيء ...

ومقصود عمر رضي الله عنه هنا : هل أنت من أصحاب الأعذار كعبد الرحمن بن عوف ؟ فإن كنت مثله فلا بأس ، أما ما دمت لست من هؤلاء أصحاب الحكة والجرب وغيرهم من ذوي الأعذار ، فلا يجوز لك أن تلبس الحرير ، لأنه محرم على ذكور المسلمين ... هذا هو التفسير الذي ينسجم مع بقية الروايات ـ لو صحَّت هذه الرواية ـ ومع روح الإسلام ، وفهم الصحابة والتزامهم به ، ومع شخصية ابن الخطاب العادل الذي لا يرىٰ ميِّزة لأحد على أحد إلَّا بالتقوى .

هذه جملة الروايات في هذه الحادثة لا نجد فيها مراعاة أو ممالأة لعبد الرحمن بن عوف ، فالرسول ﷺ هو الذي رخص له بلبس الحرير لما كان يعانيه من حكّة بجلده ... وعمر رضي الله عنه أنكر على أبي سلمة بن عبد الرحمن لبسه للحرير ، وشق القميص الذي كان يلبسه ، كما أنكر على خالد بن سعيد ، وخالد بن الوليد أيضًا وشق ما كانا يلبسانه من حرير ...

ثم أين الدليل على أن خالد بن الوليد رضي الله عنه صنع للإسلام ما لم يصنعه أحد إلَّا رسول الله ﷺ ؟ لا أحد ينكر الدور الذي قام به رضي الله عنه منذ أن دخل الإسلام قبل غزوة مؤتة بشهرين وحتى وفاته ، والجهد الذي بذله في سبيل نصرة دين الله عز وجل ، لكن الذي لا يُستساغ مثل هذا الحكم الجائر الذي يُستخدم للانتقاص من بقية الصحابة رضوان الله عليهم ، وفي

مقدمتهم : الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم ... فهذا رسول الله ﷺ يقول لخالد بن الوليد رضي الله عنه ، وقد اشتكاه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : « يا خالد لِمَ تؤذي رجلاً من أهل بدر ؟ لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله » قال : يا رسول الله ، إنهم يقعون بي فأردّ عليهم . فقال ﷺ « لا تؤذوا خالداً ، فإنه سيف من سيوف الله صبّه الله على الكفار » الحديث أخرجه ابن عبد البر في (الاستيعاب : ١/٤٠٨) عن الشعبي عن عبد الله بن أبي أوفى ...

وصاحب كتاب « خالد بن الوليد » من منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر حيث يزداد الافتراء ظلمة عندما يقول : (ومما يأخذه بعض المؤرخين على خالد ، أنه كان مولعاً بشرب الخمر ، ولكنه كان لا يشربها وهو في حومة الوغىٰ ، بل في أوقات راحته وساعات مُتعته) (!!) (ص : ٧٤) ولا أدري من هم هؤلاء المؤرخون ؟ وأين ذكروا ذلك ؟ ومتى ؟ ولقد عدت إلى كثير من الكتب التي أرخت وترجمت لأصحاب رسول اللهﷺ ، من ذلك مثلاً كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر ، و « الإصابة » لابن حجر ، و « تهذيب الأسماء واللغات » للنووي ، فضلاً عن « تاريخ الرسل والأمم والملوك » للطبري ، و « البداية والنهاية » لابن كثير ، و « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ... فلم أجد أثراً لهذا ، وكل الذي وجدته ما رواه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن خيثمة ، قال : « أتىٰ خالد بن الوليد رجلٌ وكان معه زق خمر ، فقال خالد : اللهم اجعله عسلاً ، فصار عسلاً ... » وفي رواية له من هذا الوجه : « مر رجلٌ بخالد ومعه زق خمر ، فقال : ما هذا ؟ قال الرجل : خلّ . قال : جعله الله خلاًّ . فنظروا فإذا هو خلّ وقد كان خمراً » وتُذكر هذه الروايات وأمثالها ـ مثل : « لما قدم خالد رضي الله عنه الحيرة أُتي بُسمٍّ فوضعه في راحته ، ثم سمّىٰ ـ ذكر اسم الله ـ وشربه ، فلم يضره » كما رواه أبو يعلىٰ ، وابن سعد (الإصابة: ١/ ٤١٤) ـ يُؤْتىٰ بها لبيان كراماته رضي الله عنه ...

وبعد : فهٰذا هو المنهج العلمي الذي ابتدعه « حتّي » ومن سار على خطاه ؛ يقلب الحقائق ، ويزيف الوقائع ، ويحمل الكلمات ما لاتحتمل ، وتساق الأحداث فيه في غير مجراها لتخدم أغراضهم في العيب على جيل القدوة لإضعاف صلة الأجيال المسلمة به تمهيداً لقطعها ، وما ينتج عن ذلك من هدم لدين الله عز وجل ، وهذا مصداق قوله تعالى :﴿ وَلَايَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾فهل نمكنهم من ذلك ؟!



الفصل الثالث

حول الفتح الإسلامي : حقائق وأباطيل

الأسبــاب الاقتصاديـــة للامتـــداد[1] :

[إن التفسير الفقهي للحركة الإسلامية الذي تُعنَى بترداده المراجع العربية يجعل تلك الحركة في مجموعها ، أو في بدايتها حركة دينية ، ولا يلقي أي بال إلى العوامل الاقتصادية الخفية ... ولكن من الصعب أن نجد في هذا وحده ما يكفي لتفسير الفتوح ، ولم يكن التعصب (!!) وحده هو الذي قاد جموع البدو إنما هي الضرورات الاقتصادية ، ولقد كان معظم جيوش الفتح مجمَّعة من البدو ، وهؤلاء البدو هم الذين تخطَّوْا حدود مواطنهم الجرداء ، وعبروا الحدود إلى البلاد الجميلة في الشمال ... وقد أبدى رستم القائد الفارسي الذي كان يحمي بلاده ضد غزو العرب هذه الملاحظة التالية لسفير المسلمين : (قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد) وقد أورد أبو تمام في ديوان الحماسة بيتاً من الشعر يعبر في قوة عن هذه الحالة :

(١) على حد تعبير «فيليب حتي». بل إن «برنارد لويس» المستشرق اليهودي المعروف الذي شغل منصب رئيس قسم التاريخ وكرسي الأستاذية لتاريخ الشرق الأوسط في جامعة لندن، سوَّغ لنفسه أن يصف المهاجرين بدينهم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وكفار قريش يلاحقونهم بالأذى والعدوان، بأنهم قطاع طرق.. كما وصف قريشاً يوم أن خرجت لحرب المسلمين في غزوة أحد بأنها فعلت ذلك دفعاً للخطر المتصاعد من هؤلاء الذين اتخذوا النهب والسلب مورداً للرزق، يعني بذلك المسلمين. انظر كتابه: العرب في التاريخ ص ٤٤ وما بعدها.

فمـا جنـةَ الفـردوس هـاجـرتَ تبتـغـي
ولكـن دعـاك الخبـزُ - أحسب - والتمـرُ

فإذا واجهنا الامتداد الإسلامي في وضعه الصحيح وجدنا أنه هو المرحلة الأخيرة لتلك العملية التي بدأت منذ عصور طويلة ، ونقصد بها : التقاطر التدريجي من الصحراء الجدباء إلى أرض الهلال الخصيب المجاورة ، وبعبارة أخرى : إنه كان آخر هجرة سامية عظيمة][2] .

---

(٢) تاريخ العرب « لفيليب حتي » طبعة ١٩٥٣م مطبعة دار العالم العربي بالقاهرة ص ١٧٦ ـ ١٧٧. « وفيليب حتي » لبناني تأمْرَك ، بدأ بنشر أفكاره ضد الإسلام والمسلمين في الجامعة الأمريكية في بيروت ، ثم بجامعة « برنستون » في الولايات المتحدة الأمريكية ، أشرف على مؤتمر الثقافة (الإسلامية) الأميركي ، وعمل مستشاراً غير رسمي لوزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط ...
وإلى هذا الرأي يذهب المستشرقان « كيتاني وبيكر » ويتبناه أيضاً « توماس آرنولد » صاحب كتاب « الدعوة إلى الإسلام » . راجع كتابه هذا ص ٦٣ ـ ٦٥ طبعة دار النهضة المصرية ١٩٥٧م ، لترى قوله : (ويعتبر توسع الجنس العربي على أصح تقدير هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة ، وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً ، وسترى في هامش ص ٦٤ من الكتاب المذكور : وقد أجاد كيتاني إجادة فائقة في تفسير هذه الفتوحات على أنها آخر هجرة من الهجرات السامية . الجزء الثاني صفحة ٨٣١ ـ ٨٦١) . ومن هؤلاء أيضًا « الفرد بيل » في كتابه « الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم » حيث اعتبر الفتح الإسلامي حلقة في سلسلة الهجرات الكبيرة التي خرجت من الجزيرة العربية بسبب الجفاف والقحط والجوع ، ويتابع « جولد تسيهر » في افترائه على الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما ، والثروات الطائلة التي جمعوها بسبب الغزو !! ويستشهد بقصيدة لشاعر جاهلي « الشنفرى » لتأييد ما ذهب إليه من أن الدافع الرئيس لاندفاع جموع العرب المولعين بالنهب والمغامرات نحو الأراضي الخصبة المحيطة هو وفرة الغنيمة في الحرب ، والرواتب المضمونة من بيت المال في السلم ... (ص : ٧٩ ـ ٨٢) .

تمهيـــــــــد :

ليس من غرضنا في هذه العجالة أن نتوسع في المناقشة والرد ولكن الذي نبغيه قبل كل شيء أن نضع يد القارىء على نصوص من المصادر الموثوقة تكشف بنفسها عن الافتراء والتزييف . ولو بدون تعليق أو شرح .

قبل أن نبدأ الحديث عن فِرْية « فيليب حتّي » ومن شايعه ، ومن نقل عنه وقال برأيه ، لابد من ذكر كلمة بين يدي هذا الحديث .

إن العقل البشري لم يكن يتصور أن هؤلاء الحفاة العراة يمكن أن يكونوا يوماً من الأيام حكاماً وسادة ، ولم يكن يتخيل أن هؤلاء المتدابرين المتقاطعين يتحولون إلى إخوة يؤثر واحدُهم أخاه على نفسه وذويه .

= وعن هؤلاء أخذ بعض كُتّاب التاريخ المحدثين ، وترى مصداق ذلك في أي كتاب مدرسي للتاريخ يبحث في تاريخ العرب والإسلام ، وكذلك الأساتذة : العبادي ، وزيادة ، والعدوي ، في كتابهم « الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها » الطبعة الثالثة نشر مكتبة نهضة مصر (فدفعوا ـ أي الصديق ورجال حكومة المدينة ـ القبائل العربية نحو الجبهتين الشرقية والغربية في وقت واحد يحدوهم إلى ذلك أمران : ١ ـ عامل الرغبة في أن يشبعوا نزعة العرب للحرب ، وميلهم إلى كسب المغانم من طريق الغزو ، ٢ ـ وعامل الرغبة في أن يشغلوا العرب عن العودة إلى ردة جديدة) ص ١٠ من الكتاب المذكور . وسنرد على الرأي الأول أثناء ردنا على فيليب حتي ، أما ردنا على العامل الثاني ، وهو أنهم دفعوا بالقبائل العربية للحرب حتى يشغلوها عن ردة جديدة ، فيكفي أن نورد الوصايا التي كان يزود بها الصديق رضي الله عنه قادة جيوشه ، والتي تنص على عدم السماح لمن ارتد بالمشاركة في الفتح وعدم الاستعانة بهم ، وهي وحدها الرد الحاسم على هذه الفرية . يروي الطبري في الجزء الثالث ص ٣٤١ طبعة دار المعارف عام ١٩٦٢م تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ما يلي :

(وكتب أبو بكر إلى عمال الردة : أما بعد فإن أحب من أدخلتم في أموركم إليَّ من لم يرتد ، ومن كان ممن لم يرتد ، فأجمعوا على ذلك ، فاتخذوا منها صنائع ، وائذنوا لمن شاء في الانصراف ، ولا تستعينوا بمرتد في جهاد عدو) .

إن هذه القبائل المتنافرة المتدابرة ، والتي كانت إلى سنوات ، قبائل متنافسة لا تهدأ منازعاتها ، ولا تطمئن فيما بينها إلى قرار ، يقاتل بعضهم بعضاً ، بل إن قسماً منهم كان مستعبداً للروم والفرس ، هي نفسها التي استطاعت في مدى لا يتجاوز السنوات العشر أن تقضي نهائياً على إمبراطورية الفرس ، وتترك إمبراطورية ـ بيزنطة ـ تترنح تحت ضرباتها بعد أن طردتهم من بلاد الشام نهائياً .

هذا الذي حدث ، ومن العرب بالذات ، جعل المؤرخين يحارون في تعليل هذا الفتح ويذهبون مذاهب شتى في ذلك .

وسبب ذلك ـ في رأينا ـ يعود عند كثيرين إلى جهلهم الفاضح بطبيعة هذا الدين ومنهجه في التعامل مع الواقع الذي يحيط بأتباعه ، ثم إلى الجهل المطبق بالجهاد الإسلامي وبواعثه(*) .

هذا الجهل أو التجاهل هو الذي دعاهم لقياس أولئك الغرّ الميامين بمقاييسهم التي عرفوها وألفوها ، ووزنوهم بميزان الإنسان الذي طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح ، فكان قولهم بأن المسلمين الفاتحين خرجوا من جزيرتهم طلباً للقوت قياساً لماضي المسلمين الأولين على حاضر المستعمرين

= وفي الصفحة ٣٤٧ ـ ٣٤٦ من الكتاب المذكور ما يلي : (وكتب إليهما ـ أي : الصديق ، إلى خالد وعياض بن غنم رضي الله عنهم ـ أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي) ثم يقول الطبري : فلم يشهد الأيام مرتد .

وأظن ذلك كافٍ للرد به على هذه الفرية ، والتي يرددها كتاب تاريخنا بعد أن يُلَقَّنوها من المستشرقين وأعداء الإسلام ، ولو كلف هؤلاء أنفسهم مؤنة الرجوع إلى المصادر العربية لما وقعوا في هذا الخطأ الشنيع .

(*) الجهاد هو بذل الوسع في حصول محبوب الحق ، ودفع ما يكرهه الحق ... وحقيقته : الاجتهاد في حصول ما يحبه الله تعالى من الإيمان والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان (فتاوى ابن تيمية : ١٠/ ١٩٢) .

وأضرابهم ، الذي لا يدرون من ضربهم في أقطار الأرض إلا النهب والسلب والاستعباد والإذلال ، أما أولئك الغر الميامين فلم يكونوا كذلك ، إنهم لم يجوبوا أقطار الأرض إجابة لداعي الهوى وشهوة البطن ، ولكنهم خرجوا استجابة لداعي الله وقياماً بأمانة التبليغ ـ تبليغ رسالة الله إلى الناس عامة ـ ولو أدّى بهم ذلك إلى بذل المهج والأرواح في سبيل هذه الدعوة وتبليغها ، إنهم لم يمتشقوا الحسام ويخرجوا كما خرج المستعمرون لملء جيوبهم وسد جوعهم ، ولكنهم قاموا بذلك وحملوا السلاح في سبيل الله لا في سبيل البطن والهوى ، وطلباً للآخرة لا تهافتاً على الدنيا وسرقة للأرض واستعباداً للناس ، ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يَشْرونَ الحَيَاةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله فَيُقْتَلْ أوِ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نؤتِيهِ أجراً عَظِيماً** ﴾ (النساء : ٧٤) .

هذه هي الصفة التي لا تنفكّ عن حمل السلاح الذي قام به أولئك البررة الأخيار . وهذا ما بيّنه ووضّحه رسول الله ﷺ عندما سئل عن الرجل يقاتل للذِّكْر ، والرجل يقاتل للمغنم أيهما في سبيل الله ؟ فأجاب : « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** » والنصوص التي تبين الحد الفاصل بين ما يسمى جهاداً في الإسلام ، وهو ما يكون في سبيل الله ، وما ليس كذلك ، أكثر من أن تحصى .

لذلك فمن الشناعات العلمية التسوية بين ربانيين تركوا ديارهم طلباً للموت في سبيل إعلاء كلمة الله ، وبين خطّافين تركوا قارتهم للإغارة على الناس ونشدان الأقوات واللذائذ وحب السيطرة .

بعد هذه الكلمة الموجزة نبدأ الكلام على فرية « فيليب حتي » بتفنيد الأدلة التي زعم أنه جاء بها ليعضد رأيه في أن الفتح الإسلامي لم يكن إلا استجابة لظروف اقتصادية مرَّ بها سكان الجزيرة العربية ، فكان لابد

لهم من امتشاق الحسام للتخلص من هذه الظروف الاقتصادية الصعبة ،

لقد كان أول ما اتخذه تكأة يستند إليه هو قول رستم للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه كما ورد في فتوح البلدان للبلاذري وهو (قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد) ويقف عند هذا الحد من النقل عن البلاذري دون أن يورد ردّ المغيرة على رستم : وذلك حتى يوهم القارىء أن سفير المسلمين لم يكن لديه ما يرد به على رستم .

ونحن ننقل إلى القارىء الكريم ما ورد في فتوح البلدان للبلاذري حول هذه الحادثة بالذات ليرى مقدار الجريمة التي اقترفها « حتّي » بحق العلم الذي يدعي أنه يخدمه بإغفاله ذكر تتمة الرواية ، لأن فيها الرد الحاسم على مدَّعاه .

يروي البلاذري : (وأرسل رستم إلى سعد توجيه بعض أصحابه إليه ، فوجَّه المغيرة بن شعبة ، فقصد سريره ليجلس معه عليه ، فمنعَتْه الأساورة من ذلك ، وكلَّمه رستم بكلام كثير ، ثم قال له : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون ... فقال المغيرة :

إن الله بعث نبيه ﷺ فسعدنا بإجابته واتباعه ، وأمرنا بجهاد من خالف ديننا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده والإيمان بنبيه ﷺ ، فإن فعلت وإلا فالسيف بيننا وبينكم[٣]) .

أما رواية ابن كثير في « البداية والنهاية » حول الحادثة نفسها فهي

---

(٣) فتوح البلدان للبلاذري تحقيق رضوان محمد رضوان مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩م .

كما يلي :

[لما نزل رستم تلاحَقَ به الناس حتى أعتموا من كثرتهم ، والمسلمون ممسكون عنهم ، ولما أصبح ، ركب وأشرف على بعض أمراء السرايا من المسلمين وعرَّض إليه بالصلح على أن يجعل له جعلاً .

فقال له الأمير : (إناّ لم نأتكم لطلب الدنيا ، ووالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم ، ولَقِتالُكم بعدُ أحب إلينا من صلحكم) . فأرسل رستم إلى سعد أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا . فأرسل إليه ربعيَّ بن عامر ، فلما خرج إلى معسكر رستم وبلغ القنطرة احتبسه الذين عليها من جنود الفرس ، وأرسلوا إلى رستم أن رسولاً من المسلمين قد أقبل ، فجعل رستم يستعد لملاقاته ، وشاء أن يسلبه لبَّهُ بما عنده ، فأمر ببسط البُسُطِ والنمارق ، ووضع سرير الذهب وألبسه زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة كلها بالذهب وتمدد عليه ، ثم أمر بدخول الرسول .

فأقبل ربعي على فرس له عجفاء قصيرة ، وسيفه في خرقة ، ورمحه مشدود بعصب وَقِدٍّ ...

ولما دنا من رستم ركز الرمح أمامه وجلس هو على الأرض وأخذ ينظر إليهم كأنه نمر ... فقال له رستم : ما جاء بكم ؟

فقال ربعي :

الله جاء بنا ، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وأرسلنا بدينه إلى خلقه فمن قبل منا قبلنا منه وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفيء إلى إحدى الحسنيين ـ الجنة أو الظفر ـ فسأله رستم أن أخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا فيه ، قال : نعم : كم أحب إليكم ؛ أيوماً أم يومين ؟ فقال رستم : لا بل حتى نكاتب أهل

الرأي من رؤسائنا وقومنا ، فقال ربعي : إن مما سنَّ رسول الله ﷺ ، وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاثة أيام ، فنحن مترددون عنكم ثلاثة ؛ فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث من الأجل : اختر الإسلام ، فندَعَك وأرضك ؛ أو الجزية[٤] ، فنقبلَ منك ونكفَّ عنك وان كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه ، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك : أو المنابذة في اليوم الرابع .. وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى ، فقال رستم : أسيدهم أنت ؟ فقال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم ، وهم يد على من سواهم[٥] ..

أما ما ورد في الطبري حول الحادثة فروايتان ، رواية كرواية البلاذري ورواية ثانية نوجزها بما يلي : أرسل عمر إلى سعد أن يرسل عدداً من أصحابه إلى كسرى لدعوته إلى الإسلام ، فأرسل رهطاً فيهم : المغيرة بن زرارة ابن النباش الأسيدي ، وأثناء مقابلتهم له قال لهم : (إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ، ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بَيْنٍ منكم ، فقد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونناكم ، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عدد لَحِقَ ـ عددكم كثر ـ فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ومَلَّكْنا عليكم ملكاً يرفق بكم .

فقام المغيرة فقال : أيها الملك ... إنك قد وصفتنا صفة لم تكن عالماً بها ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا

(٤) شرعت الجزية لحماية من يدفعها ولدفع العدوان عنه ، وهي دليل الكف عن المقاومة ، وتحقيق حرية الدعوة ، وإزالة القوة المادية التي تصد الناس عنها .

(٥) البداية والنهاية : لابن كثير جـ ٧ ص ٤٧ وما بعدها .

فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا ... ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ... فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت ، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً ... وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كنا فيها ، أصدقنا وأحلمنا ... فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء ... وقال : من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم ، فمن قُتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجيَ نفسك][٦] .

وهناك روايات أخرى أوردها ابن كثير في « البداية والنهاية » حول الحادثة والموضوع ، وكلها تدور على المعنى نفسه الذي ورد في هذه المرويات التي ذكرناها ، والتي يستطيع القارىء العادي ، أن يفهم منها عند قراءتها أن الذي أخرج المسلمين من جزيرتهم : دعوةُ الناس إلى عبادة الله الواحد القهار ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله سبحانه وتعالى امتثالاً لأمر الله واستجابة لرسوله ﷺ .

فكيف بمن يحمل لقباً علمياً ؟ ! كيف به لا يفهم من هذه المرويات كلها إلا أن الذي أخرج المسلمين من جزيرتهم هو الضرورات الاقتصادية الخفية على حد تعبيره ، وكما قلنا في التمهيد الموجز الذي قدمناه بين يدي النقاش : إنه قاس أولئك الغر الميامين على المستعمِرين عندما خرجوا من قارتهم للسلب والنهب واستعباد البشر وإذلالهم .

---

(٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك طبعة دار المعارف جـ ٣ ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠ .

إن من تعود العيش بين الحفر ، وفي الحضيض لا يستطيع أن يرتفع إلى القمة السامقة العلياء التي ارتفع إليها أولئك الأبطال ، إلا إذا سلك سبيلهم ، وعندها لن يستغرب مطلقاً تدافعهم للموت في سبيل الله إرضاء لله واعلاء لكلمته ولسان حال كل واحد منهم قوله تعالى ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ (**طه** : ٨٤) .

ثم إن الإنسان يريد أن يظفر بالطعام ليعيش به لا أن يموت في طلبه ، فما بال هؤلاء المسلمين طلبوا الموت حيثما ذهبوا ، وحقروا العيش أينما توجهوا ؟ .

ما بالهم وقد فتحت لهم مصر ورأوا الخصب في أرضها جاوزوها إلى صحارى النوبة وسهوب أفريقيه ؟

ما بالهم وقد دانت لهم فارس جابوا صحارى مكران إلى السند ؟

ما بالهم يتركون النعيم والخير العميم في الأرض التي سيطروا عليها ليجوزوا فيافي قاحلة ، ويحاربوا أقواماً غلاظاً في بلاد تنتظرهم فيها قبورهم ؟

إن الأمر لأعظم مما توهموا ، وأسمى مما قالوا(٧) .

ويؤيد أيضاً ما ذهبنا إليه أن الذي دعا المسلمين إلى الخروج للفتح العمل على إعلاء كلمة الله ونشر راية الإسلام ليس غير ، ما رواه الطبري عن زياد ابن الزبيدي **قال** : (**جمعنا ما في أيدينا من السبايا ، واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا ثم نخيره بين الإسلام والنصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ، قال : ثم نحوزه إلينا** .

---

(٧) راجع بتوسع « مع الله » للشيخ محمد الغزالي حفظه الله ، فصل الهدم التاريخي وكذلك كتابه « التعصب والتسامح » .

وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً حتى كأنه خرج منا إليهم[٨]) .

أهذا فعل من يريد الدنيا ، أم أنها العقيدة الدافعة لاستنقاذ البشرية من شقوتها ، والأخذ بيدها إلى النور والسعادة ؟ !

ثم إن واقع الجند الذين كانوا مع سعد بن أبي وقاص ، وحققوا انتصار القادسية ، وفتحوا المدائن ، ووجدوا الكثير من الأموال والجواهر فضلاً عن التحف والنفائس التي لا تقدر بثمن ... إن واقعهم يوم أن جاء كل منهم بما وصل إلى يده من الغنيمة لتسلم لقائد الجيش يدل على أن الغاية التي أخرجتهم للفتح لم تكن الدنيا ، ولا المال ... [أقبل رجل من الجند بحقٍ إلى صاحب الأقباض الذي قال هو ومن معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا ما يقاربه : فقالوا للرجل : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به ... فقالوا : من أنت ؟ فقال : والله لا أخبركم فتحمدوني ، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه ...

ولما رأى سعد رضي الله عنه كثرة الغنائم أمامه ، قال : « والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر ، لقلت : إنهم على فضل أهل بدر » وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : « والذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة ، فقد اتهمنا ثلاثة نفرٍ ، هم : طليحة ، وعمرو بن معد يكرب ، وقيس ابن المكشوح ، فما رأيت كأمانتهم وزهدهم »] .

هذا عن القصة مع رستم ، أما عن بيت الشعر الذي أورده أبو تمام في

(٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٣٢٧ .

حماسته وهو :

فمـا جنـةَ الفـردوس هـاجـرتَ تبتـغـي

ولكـن دعـاك الخبـزُ - أحسب - والتمـر

فبالرجوع إلى الديوان المذكور ترى البيت في الجزء الثاني طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٧م . وشرح العلامة التبريزي وفي الصفحة ٣٨٩ .

والبيت من قصيدة لحكيم بن قبيصة الضبي ، وهو شاعر جاهلي ، يقول شارح الديوان : لعله أدرك الإسلام ولم يسلم ، قال شعره معيّراً ولده الذي ترك حياة البداوة مهاجراً لحياة الأمصار .

لـعمْـرُ أبـي بشـرٍ لقـدْ خَـانـه بشـرُ

على سـاعـةٍ : فيهـا إلـى صـاحبٍ فقـرُ

والذي بعــده :

أَقُـرْصٌ تصلِّـي ظـهـرَه نبطيَّـةٌ

بتنّـورهـا : حتـى يطيـر لـه قشْـرُ

أحـبُّ إليـك ، أم لقـاحُ كثيـرةٌ

مـعطَّفـةٌ ؛ فيـهـا الجليلـةُ والبكـرُ[٩]

ومن نظرة بسيطة يلقيها أي قارىء على الأبيات كلها يشعر بالهوى الذي يُسَيِّرُ مؤلف « تاريخ العرب » ويحس به ، وإلا كيف يسمح لنفسه بأن يقول عن هذا البيت الذي قاله شاعر جاهلي (إنه يعبر في قوة عن هذه الحالة) أي الضرورات الاقتصادية الخفية التي دفعت المسلمين للفتح .

إن السياق واضح الدلالة على معنى مخالف تماماً للمعنى الذي وجهه إليه

---

(٩) ديوان الحماسة : لأبي تمام جـ ٢ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ بشرح التبريزي ، وانظر « الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي » لـ « ألفرد بل » حيث يذكر أبياتًا من قصيدة «الشنفرى» الشاعر الجاهلي في «لاميّته» منها :

أديم مِطالَ الجوع ، حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحًا فأذهل

المؤلف ، فالشاعر يُعَيِّرُ ابنه أن يترك الغنى والأنعام الكثيرة في باديته ، ويخلف وراءه أباً غنياً ضعيفاً يحتاج إلى من يدبر له أمر ماله ويشرف عليه ، يعيره لأنه يترك كل ذلك ويذهب إلى المدينة يبتغي قرصاً من الخبز تصنعه جارية نبطية .

فانتقال بشر هذا لم يكن إذن هجرة من شظف العيش في البادية إلى نعيم المدينة ، وإنما كان عقوق ابن لأبيه دفعه إلى ترك ماله والهجرة إلى المدينة رغم الحياة الشاقة التي سيلاقيها .. **وعلى هذا لا يصح مطلقاً في ميزان البحث العلمي أن يتخذ بيت من الشعر قاله بدوي في الجاهلية دليلاً يتوصل بواسطته للحكم على أن الذي دفع المسلمين إلى الفتح هو الضرورات الاقتصادية وليس العقيدة .**

ونحن نورد للأستاذ أبياتاً من الشعر محفوظة قالها أولئك الغر الميامين الذين قاموا بالفتح ، وكانت تعبر عما يجيش في صدورهم ، وتدل على الغاية التي خرجوا من أجلها .

فهذه امرأة النابغة الجعدي تناشده الله أن يبقى لجانبها ، ولا يخرج للجهاد في سبيل الله : ولكنه يجيبها بأنه لا عذر له في القعود .

باتت تذكرني بالله قاعدةً
والدمع ينهلُّ من شأنيهما سبلاً
يا بنتَ عمي .. كتابُ الله أخرجني
وهل كرهاً أمنعن الله ما بذلا ؟!

= وأستف ترب الأرض كيلا يُرى له علَيَّ مِنَ الطَّوْل امرؤٌ متطوِّل

ويعلق عليها قائلاً : فالحاجة المادية والطمع ، كما يقول « جولد تسيهر » أوجدا هؤلاء الجنود والغزاة الذين كانوا يقاتلون على طمع الدنيا !! وهكذا تكون العلمية والمنهجية .

فـإن رجـعـت فَـرَبُّ النـاس أرجـعنـي
وإن لحقـت بـربـي فـابتـغـي بـدلا
مـا كنـت أعـرج أو أعمـى فيـعـذرَنـي
أو ضـارعاً من ضنى لم يستطـع حـولا[10]

وهذا الحتات يجيب أباه لما جزع عليه وبكاه واستعطفه ليرجع :

ألا مـن مبلـغ عنـي ذريحـاً
فـإن الله بـعـدك قـد دعـانـي
فـإن تسـأل فـإنـي مستقيـد
وإن الخيـل قـد عـرفـت مكـانـي[11]

وقصة الخنساء ليست عنا ببعيدة عندما دفعت بأبنائها الأربعة للموت في سبيل الله . ولما جاءها نبأ استشهادهم ، قالت : الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم : وهي التي حفظ التاريخ لنا قصائدها الطوال في رثاء أخيها صخر ، فما الذي غيرها ؟ بل ما الذي جعلها تدفع بأبنائها للموت ؟ إنها العقيدة ، وفي سبيلها يهون كل شيء .

وعلى فرض أن البيت قيل في الإسلام ، فهو يدل على أن الغاية التي أخرجت هؤلاء الفاتحين غاية نبيلة تختلف عن تلك الغاية التي خرج من أجلها من قيل الشعر في حقه ، فاستحق لذلك أن يُهجىٰ ويُعَيّر ... وكأن الشاعر يقول لذلك الرجل : إنك لم تخرج لتقاتل في سبيل الله تعالى كما خرج الفاتحون ، ولكنك خرجت للغنيمة ... والبيت على ضد ما ساقه إليه « فيليب حتي » صاحب اللقب العلمي والمنهج العلمي !! .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن الذي دفع المسلمين إلى الفتح ليس

---

(١٠) الشعر والشعراء : لابن قتيبة جـ ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(١١) الإصابـة جـ ٢ ص ١٨١ .

الضرورات الاقتصادية الخفية ، كما يذكر « حتي » وتلامذته وأساتذته ، إنما هو العقيدة ، تلك القوة الدافعة التي لا تقاوم ، والإحساس الأصيل بضرورة الانطلاق بالرسالة الإسلامية إلى الناس كافة ، أبيضهم وأسودهم ، أحمرهم وأصفرهم **لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله** ، **ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام** ، **ومن ضيق الدنيا إلى سعتها** ، **كما** قال ربعي ابن عامر رضي الله عنه لرستم قائد الفرس .

ولم يكن هذا مقتصراً على الفتوح في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وإنما كان أيضاً في الفتوح التي جاءت بعدهم :

حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً من حصون الروم ، فندب الناس إلى نقب فيه ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش ، فدخله ، ففتح الله عليه ... فنادى مسلمة : أين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد . فنادى : إني أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي ، فعزمت إلّا جاء ...

فجاء رجل ، فقال للحاجب : استأذن لي على الأمير . فقال له : أنت صاحب النقب ؟ فقال : أنا أخبركم عنه . فأذن له .

وقال الرجل للأمير : إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً : ألا تسوّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة ، **ولا تأمروا له بشيء** ، ولا تسألوه ممن هو ...

فقال مسلمة : ذلك له . فقال الرجل : أنا هو .

فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلني مع صاحب النقب ... (بين العقيدة والقيادة : ٢٢٦) .

لما وصل عقبة بن نافع رحمه الله إلى « آسفى » على المحيط الأطلسي ، أدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ثم قال لأصحابه : [ارفعوا أيديكم : ففعلوا . ثم قال : اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً ، **وإنك لتعلم أن**

ما نطلب السَّبَبَ الذي طلبه عبدُك ـ ذو القرنين ـ وهو أن تعبد ولا يُشرك بك شيء ... اللهم إنا معاندون لدين الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا ياذا الجلال والإكرام ..] (الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى : ١ / ٢٤) .

ونتيجة لذلك اشترط فقهاء المسلمين في القائد أن يقصد بجهاده نصرة دين الله عز وجل لا استفادة المغنم ؛ فها هو الماوردي في كتابه (الأحكام السلطانية : ٤٥) يقول بهذا الخصوص :

[وأن يقصد بقتاله نصرة دين الله تعالى ، وإبطال ما خالفه من الأديان (ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) فيكون بهذا الاعتقاد حائزاً لثواب الله تعالى ، ومطيعاً له في أوامره ونصرة دينه ، ومستنصراً به على عدوه ليستسهل ما لاقى ، فيكون أكثر ثباتاً وأبلغ نكاية ؛ **ولا يقصد بجهاده استفادة المغنم فيصير من المتكسبين لا من المجاهدين**] .

وكذلك قال أبو يعلى الفراء الحنبلي ، في كتابه (الأحكام السلطانية : ٣٠) :

[أن يقصد بقتاله نصرة دين الله تعالى ، وإبطال ما خالفه من الأديان ، فيكون مطيعاً لله في أوامره ، **ولا يقصد في جهاده استفادة المغنم فيصير من المتكسبين لا من المجاهدين**] .

هذا بالنسبة للشطر الأول من كلامه الذي ساقه ليستند عليه وليخلص إلى القول بأن الفتوحات الإسلامية ما هي إلا تكرار لهجرات سبقت ، نزح فيها العرب لظروف اقتصادية إلى الهلال الخصيب ، أو كما قال بصراحة (إنه كان ـ أي الفتح ـ آخر هجرة سامية عظيمة) .

فالامتداد الإسلامي الذي غمر الكون بنهار المعرفة الساطعة لم تعرف **الحياة في غابرها** وحاضرها شروقاً مثله ، هذا الامتداد نوع من الهجرة العربية ، سبق لهذا الجنس أن قام بمثيل لها وإن كان الناس لا يشعرون !! .

أما القرآن وهدير آياته الذي حطم الخرافات . وأما الرسول العظيم ﷺ الذي أحيا بالوحي أمة من العدم ، وشق بها ما اكتنفت الأجيال من ظُلَم ، فهذا أو ذاك شيء لا ينبغي أن يذكر[١٢] .

ورحم الله عبد الوهاب عزام عندما كتب ، وهو سفير لمصر في الباكستان ، حول الفتح الإسلامي العظيم فقال :

(إنهم لم يسيروا في الأرض ابتغاء المال والملك والسلطان والجبروت ، ولكن دعاة دين عظيم ، وشرعٍ قويم ، ورسل عدل ورحمة ، وأخوة ومواساة ، شعارهم تلك الآية :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (الأنبياء : ٩٢) .

عباد زهاد ، شعارهم : الأذان ، وحداؤهم : القرآن ، وما رأى الناس جيوشاً من العباد قبلهم سارت للدعوة إلى الحق وتمكين عدل الله في الأرض ؛ بهذا طار ذكرهم وانتشر صيتهم ، لقد أخرجوا عبادة الله من الصوامع المنعزلة إلى أرض الله الواسعة[١٣] .

إن حرب الإسلام ونشر الأشواك في طريقه ليست جديدة ولكنها قديمة قدم الإسلام ، وستبقى ما دام على وجه الأرض حق وباطل .

لقد ظنت قريش قديماً ، وفي بدء الدعوة ـ كما افترى « حتي » في العصر

---

(١٢) مع الله : لمحمد الغزالي ص ٣٦٩ .

(١٣) من مقال له في مجلة الأزهر .

الحديث ـ أن محمداً ﷺ لم يقم بدعوته هذه إلا وهو يبغي من ورائها فائدة لنفسه ؛ وذلك لأنهم قاسوه على أنفسهم ، ووزنوه بميزانهم ، وذهبوا إليه عليه صلوات الله ، فقال قائلهم : اسمع مني أعرضْ عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .. فقال له ﷺ : « قل يا أبا الوليد ؛ أسمعْ » .

قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا .

وجاء الرفض القاطع من الرسول ﷺ لذلك كله ... وكان بعد ذلك صراع طويل ، ولم يكن صراعاً في شهوات البطن واحتكار موارد الرزق ، بل كان نزاعاً بين الإسلام والجاهلية ، بين إخلاص العبودية لله وحده والانقياد لشرعه ، وبين العبودية للعباد في أية صورة كانت هذه العبودية ، بين الحق الذي قامت عليه السموات والأرض وبين الباطل مهما اختلفت أسماؤه وتخفت صفاته .

لذا فما الذي ننتظر من « فيليب حتي » وأمثاله الذين تركوا كل الروايات التي تظهر الدافع النبيل الذي حدا بالمسلمين أن يحملوا أرواحهم على أكفهم ويطيروا إلى الموت بفرح ، ليقتنصوا بيتاً من الشعر وجدوه في ديوان الحماسة ، أو ليذكروا قسماً من رواية يؤيد ما ادّعوْه ، ويتركوا القسم الذي ينقضه تماماً ، كما يفعل الشيطان عندما يوسوس للإنسان قائلاً : ألم تسمع قوله الله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة ﴾ فقط دون أن يأتي ببقية الآية ، علّه بهذا يتوصل إلى مبتغاه الذي يسعى للوصول إليه ، وهو إخراج المؤمن من النور وإعادته إلى الظلمات .

وكذلك يريد منا هذا الإنسان وأمثاله أن نتناسى ماضي أمتنا المجيد الذي

كتبه أجدادنا وأسلافنا بمداد من نور نشراً للعقيدة ، وإعلاء لكلمة الله تعالى في الأرض ، وذلك ليصل إلى مبتغاه الأساسي الذي يسعى إليه ، وهو : إخراجنا من النور إلى الظلمات ، وسلخ أمتنا عن ماضيها المجيد لتلبس ثوب التبعية لمن سخروا من سخروا لخدمتهم ، وأصدق مثال على ما نقول ما جاء عن الجهاد الإسلامي في كتاب « تاريخ العرب » المذكور ، ففي الصفحة ١٦٨ قال المؤلف ما يلي :

(إن الجهاد في السنوات الحديثة يظفر باهتمام أقل في العالم الإسلامي ويرجع السبب في ذلك إلى ترامي أطراف البلاد الإسلامية ، وازدهارها تحت حكومات أجنبية)[١٤] .

إنا لا نظلم هذا المخلوق ولا نتجنى عليه ، فكتابه أكبر شاهد على إخلاصه للعلم وللعرب والإسلام !!!! .

بعد هذا الذي تقدم نستطيع القول : إن الفتوح الإسلامية كانت فتوح هداية «لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ في فحل، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى المسلمين يقولون: يا معشر المسلمين، أنتم أحبُّ إلينا من الروم، وإن كان الروم على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكفُّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا... وغلَّق أهل مدينة حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحبُّ إليهم من ظلم الروم وتعسفهم» (الدعوة إلى الإسلام ص ٦٦ ـ ٦٧ توماس آرنولد).

ولم تكن أبداً حروب جباية ، لأن مهمتها : **الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ؛ ومعيارها : **سمو الروح ، والتحلي**

---

(١٤) إن النفوذ الأجنبي كان ولا يزال عاملاً خطيراً في تسرب الضعف والانحلال إلى حياة العالم الإسلامي ، لا إلى الازدهار كما يدعي « حتي » ، ولكنه صوت سيده .

بالفضائل والأخلاق الحميدة ، والإقبال على الآخرة وطلبها ، والتنافس في الخيرات . وهكذا كانت الفتوح الإسلامية .

وأما حروب الجباية فمهمتها السلب والنهب والاستعباد والإذلال ؛ والحروب الاستعمارية أكبر مثل على ذلك .

ولله در عمر بن عبد العزيز رحمه الله عندما قال قولته الشهيرة : **(إن محمداً ﷺ لم يُبعث جابياً ؛ وإنما بُعث هادياً)**[١٥] .



---

(١٥) يراجع بتوسع كتاب إلى الإسلام من جديد للندوي : فصل دعوتان متنافستان ، وفصل بين الهداية والجباية .

الباب الثاني

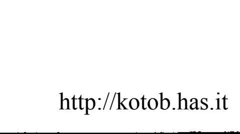
مع الشرقاوي في مفترياته

الفصل الأول : الخليفة المفترى عليه

الفصل الثاني : أبو هريرة رضي الله عنه حبيب المؤمنين

الفصل الثالث : الصديقة : المبرأة من السماء

الفصل الرابع : مع طلحة والزبير رضي الله عنهما



الفصل الأول

الخليفة المفترى عليه

تمهيد

قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه الترمذي في « جامعه » وابن حبان في « صحيحه » عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه :

[اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذىٰ الله ، ومن آذى الله يوشكُ أن يأخذه] .

الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، جيل القدوة ، وحَمَلة الوحي الإلٰهي إلى النـاس ، الجيل الـذي استعلى على الجاهليـة بقيمها وتصوراتها ، وتحمل في سبيل دعوة الله ما تحمل من عنت ومشقة ، وبذل ما بذل من تضحيات عظيمة ... من حق الأجيال المسلمة أن تعرفهم على حقيقتهم ، أنقياء أطهاراً صادقين ، فتطمئن نفوسهم إلى الخير الذي حمله هؤلاء إلى البشرية ...

روى الإمام ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله : ٢/ ٩٧) والإمام ابن القيم في (إعلام الموقعين : ٤/ ١٣٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

[من كان منكم متأسِّيًا ، فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلّفًا ، وأقومها هديًا ، وأحسنها حالاً ؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتَّبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم] .

وفي رواية أخرىٰ : [من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات ، فإنَّ الحي لا يؤمن عليه الفتنة ، أُولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا أفضل هذه الأمة ...] .

وروى عنه الإمام أحمد في (المسند : ١/ ٣٧٩) أنه قال :

[إنَّ الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته ؛ ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ ، فوجد قلوب أصحابه خيرَ قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون عن دينه ...] .

وروى أبو نعيم في (الحلية: ١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: [من كان مستنّاً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ، كانوا على الهدى المستقيم، والله رب الكعبة].

وروى الإمام الحافظ الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد : ١٠/ ١٧٤ في ترجمة عبد الله بن مصعب الزبيري) بسنده إلى الزبير بن بكار ، قال : حدَّثني عمي مصعب بن عبد الله ، قال : حدَّثني أبي عبد الله بن مصعب ، قال : قال لي أمير المؤمنين المهدي : يا أبا بكر ، ما تقول فيمن ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ ؟

قال : **قلت** : زنادقة .

قـــال : ما سمعت أحدًا قال هذا قبلك .

قـــال : **قلت** : هم قوم أرادوا رسول الله ﷺ بنقص ، فلم يجدوا أحدًا من الأمة يتابعهم على ذلك ، فتنقَّصوا هؤلاء عند أبناء هؤلاء ، وهؤلاء عند أبناء هؤلاء ، فكأنَّهم قالوا : رسول الله ﷺ يصحبه صحابةُ السوء ، وما أقبح الرجل أن يصحبه صحابةُ السوء !!

فقـــال : ما أراه إلَّا كما قلـت ...

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله في (الإِحكام في أصول الأحكام : ٥/ ٨٩) عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم : [وكلهم عدل إمام فاضل رضيً ، فَرْضٌ علينا توقيرهم وتعظيمهم ، وأن نستغفر لهم ونحبّهم ...] .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في (فتح الباري : ٧/ ٧) :

[والذي ذهب إليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يَعْدِلُها عملٌ ، لمشاهدة رسول الله ﷺ ، وأما من اتفق له الذبُّ عنه ، والسَّبقُ إليه بالهجرة أو النصرة ، وضَبْطُ الشرع المتلقّى عنه ، وتبليغُه لمن بعده ، فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده ، لأنَّه ما من خصلة من الخصال المذكورة ، إلَّا وللَّذي سبق بها مثلُ أجر مَن عمل بعده ، فظهر فضل الصحابة رضي الله عنهم] .

ما آفـــة الأخبـــار إلَّا رواتها ...

في العام الثلاثين للهجرة ، وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، تحركت أصابع اليهودية التي ذاقت الهزيمة على يد رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ، وكان على رأسها « عبد الله بن سبأ » اليهودي الذي أظهر الإسلام ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول

إضلالهم ، وانتهى إلى مصر ، وأظهر القول بالرجعة : [العجب ممن يزعم أن عيسىٰ يرجع ، ويكذِّب بأنَّ محمداً - ﷺ - يرجع ... ومحمد أحق بالرجوع من عيسى] ثم أظهر القول بالوصاية : [محمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء ... من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، ووثب على وصي رسول الله ﷺ ؟.. إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر] (الطبري : ٣/ ٣٧٨ - رواية السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي)[1] .

---

(١) قال عثمان رضي الله عنه : (آفة هذه الأمة عيّابون طعّانون ، يُرُونكم ما تحبون ، ويسترون عنكم ما تكرهون ... أحب مواردهم إليهم البعير ، لا يردون إلَّا عكراً ، لا يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الأمور ...) .

جاء في « مقالات الإسلاميين » للأشعري رحمه الله : ١/ هامش ص ٥٠ ما يلي : [وقد كان عبد الله بن سبأ يهودياً ، في قلبه حفيظة - حقد - على الدين الجديد الذي أزال ما كان اليهود يتمتعون به من الهيمنة والسلطة على عرب المدينة والحجاز عامة ، فأسلم في أيام عثمان رضي الله عنه ، ثم تنقل في بلاد الحجاز ، ثم ذهب إلى البصرة ، ثم إلى الكوفة ، ثم إلى الشام ، وهو يحاول في كل بلد ينزل بها أن يُضل ضعاف الأحلام ، ولكنه لم يستطع السبيل إلى ذلك : فأتى مصر فأقام بين أهلها ، وما فتيء يلفتهم عن أصول دينهم ، ويزين لهم بما يزخرفه من القول حتى وجد مرتعاً خصيباً : وكان مما قاله لهم :

« إني لأعجب كيف تصدقون أن عيسى بن مريم يرجع إلى هذه الدنيا وتكذبون أن محمداً - ﷺ - يرجع إليها ؟ » ، وما زال بهم حتى انقادوا إلى القول بالرجعة .

ثم قال لهم بعد ذلك : إنه قد كان لكل نبي وصي ، وإن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - هو وصي محمد - ﷺ - وليس في الناس من هو أظلم ممن احتجز وصية رسول الله - ﷺ - ولم يجزها ، بل هو يتعدىٰ ذلك فيثب على الوصي ، ويقتسره على حقه ، وإن عثمان - رضي الله عنه - قد أخذ حق علي - رضي الله عنه - وظلمه ، فانهضوا في هذا الأمر ، وليكن سبيلكم إلى إعادة الحق لأهله : الطعن على =

وكانت الفتنة الكبرىٰ بين المسلمين في العام الخامس والثلاثين للهجرة ، والتصدع الذي لم يرتئب إلى الآن ، وبدأ الصراع السياسي بين شيعهم مما أدىٰ إلى التقول على رسول الله ﷺ ، والاجتراء على الوضع في مجال السنة النبوية ، وإدخال الكثير من الشوائب في التاريخ الإسلامي ، لذا أصبح أئمة الأمة وأعلامها يشترطون ذكر سند الرواية الموصل إلى رسول الله ﷺ ، وفي ذلك قال ابن سيرين رحمه الله : [لما

= أمرائكم ، وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنكم تستميلون بذلك قلوب الناس ...

واتخذ لهذه الدعوة أنصاراً بثهم في الأمصار ، وما زال يكاتبهم ويكاتبونه حتى نفذ قضاء الله ، وكان الضحية الأولى لهذه المؤامرة ذلك الخليفة الذي قتل مظلوماً وبين يديه كتاب الله ، واعتدي على منزله وحرمه ، وكان قضاء الله قدراً مقدوراً] (وانظر أيضاً : تاريخ الطبري : ٥/٩٨ وما بعدها ، البداية والنهاية لابن كثير : ١٦٧/٧) .

أما ابن خلدون فيقول عنه في تاريخه : ٢/ ١٣٩ تحت عنوان : بدء الانتقاض على عثمان رضي الله عليه :

[إن عبد الله بن سبأ يعرف بابن السوداء ، كان يهودياً فهاجر أيام عثمان ، فلم يحسن إسلامه ، فأُخرج من البصرة فلحق بالكوفة ثم بالشام ، وأخرجوه فلحق بمصر ، وكان يكثر الطعن على عثمان رضي الله عنه ، ويدعو في السر إلى أهل البيت ... وكان يحرض الناس على القيام في ذلك ، والطعن على الأمراء ، فاستمال الناس بذلك في الأمصار ، وكاتب به بعضهم بعضا ، وكان معه : خالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر ، فثبطوا عماراً رضي الله عنه المسير إلى المدينة ...] .

أما الطبري رحمه الله فيقول عنه في تاريخه (٥/ ٩٠ ـ ١٠٤) :

[لما مضى من إمارة ابن عامر ثلاث سنين بلغه أن في عبد القيس رجلاً نازلاً على حكيم بن جبلة ، وكان حكيم رجلا لصاً ، إذا قفل الجيوش خنس عنهم ، فسعى في أرض فارس يغير على أهل الذمة ، ويتنكر لهم ، ويفسد في الأرض ، ويصيب ما شاء ، ثم يرجع : فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ فكتب إلى عبد الله بن عامر أن احبسه ومن كان مثله ، فلا يخرجن من البصرة حتى =

حديثهم، وإلى أهل البدع فلا يؤخذ...] وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول: [الإسناد سلاح المؤمن، إذا لم يكن معه سلاح، فبأي شيء يُقاتل؟!] (كتاب المجروحين: ١/٢٧). وقال ابن المبارك رحمه الله: [بيننا وبين القوم: القوائم - أي: الإسناد - وكثيراً ما كان يقول: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء] (علوم الحديث: ٦). وكان يقول أيضاً: [إن الله حفظ الأسانيد على أمة محمد] (شرح العلل: ٨٨). وقال الشافعي رحمه الله: [مثل الذي يطلب الحديث بلا

= تأنسوا منه رشداً . فحبسه ، فكان لا يستطيع أن يخرج منها : فلما قَدِم ابن السوداء نزل عليه ، واجتمع إليه نفر ، فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح ، فقبلوا منه واستعظموه ؛ وأرسل إليه ابن عامر ، فسأله ما أنت ؟ فأخبر أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ، ورغب في جوارك . فقال : ما يبلغني ذلك ، فاخرج عني ، فخرج حتى أتى الكوفة ، فأُخرج منها ، فاستقر بمصر ، وجعل يكاتبهم ويكاتبونه ، ويختلف الرجال بينهم ...

ومن مصر جاء مع قتلة عثمان رضي الله عنه إلى المدينة : خرج أهل مصر في أربع رفاق ، على أربعة أمراء ، المقلل يقول : ستمائة ؛ والمكثر يقول : ألف . على الرفاق عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر الليثي ، وسودان بن حمران السكوني ، وقتيرة بن فلان السكوني ؛ وعلى القوم جميعاً : الغافقي بن حرب العكي ؛ ولم يجترئوا أن يُعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن سوداء ...] .

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني فيقول عنه (لسان الميزان : ٣/ ٢٨٩) :
[كان أصله من اليمن ، وكان يهودياً ، فاظهر الإسلام ، وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويُدخل بينهم الشر ، ودخل دمشق لذلك .] .

وجاء في كتاب « فرق الشيعة » للنوبختي :وهو أبو محمد ، الحسن بن موسى من أعلام الشيعة الإمامية في القرن الثالث الهجري :

[والسبئية : أصحاب عبد الله بن سبأ ، وكان ممن أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة - رضوان الله عليهم - وتبرأ منهم ، وقال : إن علياً عليه السلام أمره بذلك ؛ فأخذه علي ، فسأله عن قوله هذا ، فأقرَّ به ، فأمر بقتله ؛ فصاح الناس إليه : يا أمير المؤمنين ، أتقتل رجلاً يدعو إلى حبكم أهل البيت ، وإلى ولايتك =

إسناد مثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب فيها أفعى تلدغه وهو لا يدري] (مقدمة صحيح مسلم: ١/٨٤ ـ تاريخ بغداد: ٦/١٦٦). وقال الحاكم: [فلولا الإسناد، وطلبُ هذه الطائفة له، وكثرة مواظبتهم على حفظه لدَرَسَ منارُ الإسلام، ولتمكن أهل الإلحاد والبدع فيه بوضع الأحاديث، وقلب الأسانيد، فإن الأخبار إذا تعرت عن وجودِ الأسانيد فيها كانت بتراء] (علوم الحديث: ٦). وقال ابن حبان: [ولو لم يكن الإسناد وطلب هذه الطائفة له، لظهر في هذه الأمة من تبديل الدين ما

= والبراءة من أعدائك ؟ فصيره ـ فنفاه ـ إلى المدائن .

وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي عليه السلام أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً ، فأسلم ووالىٰ علياً ، وكان يقول ـ وهو على يهوديته ـ في يوشع بن نون وصيّ موسى عليه السلام ، فقال بعد إسلامه في علي عليه السلام بمثل ذلك : وهو أول من شهر القول بفرض إمامة علي عليه السلام ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه وكفّرهم ؛ فمن هنا قال من خالف الشيعة : إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية .. ولما بلغ عبد الله بن سبأ نعي علي بالمدائن قال للذي نعاه : كذبت لو جئتنا بدماغه في سبعين صرّة ، وأقمت على قتله سبعين عدلاً لعلمنا أنه لم يقتل ، ولا يموت حتى يملك الأرض] (فرق الشيعة للنوبختي : ٤١ ـ ٤٢) .

وجاء في كتاب « رجال الكشي » و « الكشي » هو أبو عمرو بن عبد العزيز الكشي من أعلام الشيعة الإمامية في القرن الرابع الهجري : عدد من الروايات حول ابن سبأ ، منها :

[ما رواه عن أبان بن عثمان ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لعن الله عبد الله بن سبأ ، إنه ادّعى الربوبية في أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان والله أمير المؤمنين عليه السلام عبداً لله طائعاً ، الويل لمن كذب علينا ، وإن قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا ، نبرأ إلى الله منهم ، نبرأ إلى الله منهم ...

وعن أبي حمزة الثمالي ، قال : قال علي بن الحسن صلوات الله عليهما : لعن الله من كذب علينا ، إني ذكرت عبد الله بن سبأ فقامت كل شعرة في جسدي ، لقد ادّعىٰ أمراً عظيماً ما له ، لعنه الله ، كان علي عليه السلام والله عبداً لله صالحاً ، آخى رسول الله ـ ﷺ ـ ما نال الكرامة من الله إلَّا بطاعته لله ولرسوله ـ ﷺ ـ وما نال رسول الله ﷺ وآله الكرامة من الله إلَّا بطاعته الله ... =

ظهر في سائر الأمم، وذلك أنه لم تكن أمة لنبي قطّ حفظت عليه الدين من التبديل ما حفظت هذه الأمة حتى لا يتهيأ أن يزداد في سنة من سنن رسـول الله ﷺ ألِفٌ ولا واو، لحفظ هذه الطـائفـة السنَنَ على المسلمين، وكثرة عنايتهم بأمر الدين، ولولاهم لقال من شاء ما شاء] (كتاب المجروحين: ١/٢٥).

وتميز تاريخ الإسلام بعلم الجرح والتعديل الذي صار على أيدي علماء الحديث علماً محترماً له قواعده ، أُلِّفت فيه الكتب ، ونظمت للرواة

= وعن عبد الله بن سنان ، قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إنا أهل بيت صديقون ، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا ، ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس ؛ كان رسول الله صلى الله عليه وآله أصدق الناس لهجة ، وأصدق البرية كلها ، وكان مسيلمة يكذب عليه ، وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام أصدق من برأ الله بعد رسول الله ـ ﷺ ـ وكان الذي يكذب عليه ، ويعمل في تكذيب صدقه ، ويفتري على الله الكذب : عبد الله بن سبأ ...] ثم يورد « الكشي » ما سبق وأثبته « النوبختي » من أن ابن سبأ هو الذي وضع عقيدة « الوصاية » وأنه أول من أشهر القول بفرض إمامة علي رضي الله عنه (رجال الكشي : ١٠٠ ـ ١٠١) .

أما الحلي ـ من علماء الإمامية أيضاً ـ وهو الحسن بن علي فيقول في كتابه « الرجال » :

[عبد الله بن سبأ : رجع إلى الكفر ، وأظهر الغلو ، كان يدعي النبوة ، وأن علياً عليه السلام هو الله ، فاستتابه عليه السلام ثلاثة أيام ، فلم يرجع ، فأحرقه بالنار في جملة سبعين رجلاً ادّعوا فيه ذلك] (ص : ٤٦٩) ويؤكد هذا القول من علمائهم : الاستر آبادي في كتابه « منهج المقال : ٢٠٣ » .

ويقول صاحب كتاب « تاريخ شيعي : روضة الصفا ـ باللغة الفارسية : ص ٢٩٢ » :

[إن عبد الله بن سبأ توجه إلى مصر حينما علم أن مخالفيه ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ كثيرون هناك ، فتظاهر بالعلم والتقوى حتى افتتن الناس به ، وبعد رسوخه فيهم بدأ يروج مذهبه ومسلكه ، وأن لكل نبي وصياً وخليفة ، فوصي رسول الله ـ ﷺ ـ وخليفته ليس إلّا علياً المتحلي بالعلم والتقوى ، والمتزين بالكرم والشجاعة ، والمتصف بالأمانة والتقى ... وقال : إن الأمة ظلمت علياً ، وغصبت =

معاجم حافلة بالتراجم ، فيها التنبيه على مَبْلَغ كل راوٍ من الصدق والتثبت والأمانة في النقل ، وإذا كان لبعضهم نزعات حزبية أو مذهبية قد يجنح معها إلى الهوىٰ ذكروا ذلك في ترجمته ليكون دارس أخبارهم ملماً بنواحي الضعف والقوة في هذه الأخبار ، يستطيع التمييز بين صادقها وكاذبها ، صحيحها وسقيمها ... ولم يهملوا الإسناد في جانب

= حقه ، حق الخلافة والولاية ، ويلزم الآن على الجميع مناصرته ومعاضدته ، وخلع طاعة عثمان ـ رضي الله عنه ـ وبيعته ؛ فتأثر كثير من المصريين بأقواله وآرائه ، وخرجوا على الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ .] .

أما عبد القاهر البغدادي صاحب كتاب « الفَرْق بين الفِرَق » فيذكر أن المحققين من أهل السنة قالوا :

[إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود ، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي رضي الله عنه وأولاده ، لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارىٰ في عيسى عليه السلام ، فانتسب إلى الرافضة السبئية حين وجدهم أعرق أهل الأهواء في الكفر ، ودلَّس ضلالته في تأويلاته] (ص : ٢٣٥) .

وروى ابن حجر العسقلاني رحمه الله في « لسان الميزان : ٣/٢٩٠ » أن سويد بن غفلة دخل على علي رضي الله عنه في إمارته فقال :

[إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ يرون أنك تضمر لهما مثل ذلك ؛ منهم : عبد الله بن سبأ ـ وكان أول من أظهر ذلك ـ فقال علي رضي الله عنه : ما لي ولهذا الخبيث الأسود ... ثم قال : معاذ الله أن أضمر لهما إلاَّ الحسن الجميل . ثم أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيره ـ نفاه ـ إلى المدائن ، وقال : لا يساكنني في بلدة أبداً . ثم نهض إلى المنبر حتى اجتمع الناس ، فذكر القصة في ثنائه عليهما ، وفي آخره : ولا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلاَّ جلدته حدَّ المفتري] ، أوردها بطولها القاضي عبد الجبار الهمداني في كتابه : « تثبيت دلائل النبوة : ٢/٥٤٦ ـ ٥٤٨ » ويراجع كتاب « المقالات والفرق » لسعد بن عبد الله القمي ؛ وكتاب « نهج البلاغة » المنسوب لعلي رضي الله عنه وأرضاه ، ص : ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

التاريخ أيضاً ، خاصة وأن آفة الأخبار رواتها ، وها هو شيخ المؤرخين المسلمين الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله يذكر في مقدمة تاريخه ما يلي : [... فما كان في كتابي هذا مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ؛ من أجل أنه لم يُعرف له وجه في الصحة ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا ، وإنما أُتي من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أديناه على نحو ما أُدي إلينا] ، ويسترسل رحمه الله موضحاً ومعتذراً عن إيراد الروايات التالفة ، فيقول : [إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج] ؛ ولو أنه كان يروي الأخبار ليحتج بها ، أو ليرتب عليها حكماً وقضية ، كالسنة النبوية ، لما تركها هكذا ... ومع ذلك فإنه أورد الروايات التاريخية بأسانيدها تاركاً لمن أراد الاحتجاج والحكم أن يتثبت ويتحقق .

ولما كان أي مبدأ وأية فكرة لا فائدة ترجى منها ما لم تبرز إلى واقع الوجود في صورة أنموذج حي يتمثلها ويترجمها عملياً ، ولما كانت النماذج الحيَّة في تاريخ أمتنا هي التي شكلت الجيل الأول ، جيل القدوة الذي ربَّاه رسول الله ﷺ ، فكان النبع الفيَّاض بعظمة هذا الدين ، والآية الكبرىٰ على أنه جاء ناظماً لحياة الأفراد والمجتمع في شتى جوانبها ...

جيل القدوة هذا الذي أثنى عليه الله عزَّ وجل في آيات عديدة من كتابه الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّه عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ (الفتح : ١٨) وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (التوبة : ١٠٠).

وقوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار

رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (الفتح: ٢٩).

ولهذا كان الإمام مالك رحمه الله يقول: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية ﴿محمد رسول الله... إلى قوله: ليغيظ بهم الكفار﴾ وقال القرطبي رحمه الله تعليقاً على قول الإمام مالك: لقد أحسن مالك في مقالته، وأصاب في تأويله، فمن نقص واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد ردَّ على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين... (الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٩٧ وما بعدها).

وآيات كثيرة أثنى فيها سبحانه وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ، منها: (الآيات: ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ من سورة آل عمران ـ الآية: ٧٤ من سورة الأنفال ـ الآية: ١١٧ من سورة التوبة ـ الآيتان: ١٨ ـ ١٩ من سورة الفتح ـ الآيتان: ٨ ـ ٩ من سورة الحشر).

وكان مما قاله رسول الله ﷺ في حقهم، ما رواه الشيخان عن عمران بن حصين رضي الله عنه: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً. (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمن). وفي الحديث إثبات الخيرية للصحابة وأنهم مقدمون في الفضل على التابعين وأتباع التابعين وإن قدموا ما قدموا من خير وعمل صالح، وفضيلتهم في ذلك ظاهرة (فتح الباري: ٧/٦).

وما رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم

أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ) لقد نهى النبي ﷺ عن سبهم، ووصفهم بالصحبة وأضافها إلى نفسه عليه الصلاة والسلام تنويهاً بفضلهم، وبياناً لشرف منزلتهم... كما بين عليه الصلاة والسلام أنهم يفضلون غيرهم بما ينفقون من أموالهم في سبيل الله تعالى، وما ذلك إلا لأن نفقاتهم كانت في وقت الضرورة وضيق الحال ونصرة النبي ﷺ، بخلاف غيرهم... (النووي على مسلم: ١٦/٩٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله اختارني واختار أصحابي، فجعلهم أصهاري، وجعلهم أنصاري، وإنه سيجيء في آخر الزمان قوم ينتقصونهم، ألاَ فلا تناكحوهم، ألاَ فلا تنكحوا إليهم، ألاَ فلا تصلوا معهم، ألاَ فلا تصلُّوا عليهم، عليهم حلَّت اللعنة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في « مختصر الفتاوى المصرية : ٤٧٨ وما بعدها » : [من لعن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنهم ، كمعاوية وعمرو بن العاص ، أو من هو أفضل من هؤلاء ، كأبي موسى الأشعري وأبي هريرة ، أو من هو أفضل من هؤلاء ، كطلحة والزبير وعثمان وعلي وأبي بكر وعمر وعائشة ، فإنه يستحق العقوبة البليغة باتِّفاق المسلمين : وتنازعوا : هل يعاقب بالقتل أو ما دون القتل ؟ وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه » واللعنة أعظم من السب ، وقد قال النبي ﷺ : « لعن المؤمن كقتله » وأصحابه خيار المؤمنين ، كما قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم » وكل من رآه وآمن به فله من الصحبة بقدر ذلك .] .

وقال الطحاوي رحمه الله في عقيدته (٥٢٨): [وحبهم - الصحابة - رضي الله عنهم دين وإيمان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان].

وفي حديث معاذ مرفوعاً قال : إذا حدث في أمتي البدع ، وشتم أصحابي فليظهر العالم علمه ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وما ذلك إلاَّ لأن الطعن بهم طعن بالدين نفسه ، والعيب عليهم عيب على الدين نفسه ، وفي ذلك جاء قول الإمام أبي زُرْعة رحمه الله ، - عبيد الله بن عبد الكريم الرازي ، من موالي بني مخزوم ، كان أحد أعلام الأئمة ، قال عنه الإمام أحمد رحمه الله : ما جاز الجسر أحفظ من أبي زرعة . وقال الإمام أبو حاتم : إن أبا زرعة ما خلف بعده مثله ، عالم بالحديث والفقه والسنة - : [إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، لأن الرسول ﷺ حقٌ ، والقرآنَ حقٌ ، وإنما أدىٰ إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله ﷺ ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة] (الإصابة : ١/ ١٠) .

وإبطال الكتاب والسنة يحققْ غاية الفتنة التي أشعلها ابن سبأ اليهودي ...

ويقول الخطيب البغدادي في (الكفاية : ٩٦) تعليقاً على الآيات والأحاديث التي تزكي الصحابة رضوان الله عليهم :

[وجميع ذلك يقتضي : طهارة الصحابة ، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم ، فلا يحتاج أحد منهم - مع تعديل الله تعالى ، المطَّلِعِ على بواطنهم - إلى تعديل أحد من الخلق له ؛ فهم على هذه الصفة إلا أن

يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية والخروج من باب التأويل فيحكم بسقوط العدالة ، وقد برأهم الله تعالى من ذلك ، ورفع أقدارهم عنه ، على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسولهﷺ فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة في الدين ، وقوة الإيمان واليقين القطعَ على عدالتهم ، والاعتقادَ لنزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع المعدِّلين والمزكِّين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين ... هذا مذهب العلماء كافة ومن يعتَد بقولهم من الفقهاء .] وكم ظلم نفسه ذلك الذي افترى على الصحابة ، وقال بأن المسلمين [نسوا اعتماد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومعاوية وعلمائهم ومحدثيهم على كعب الأحبار اليهودي الذي كان من أوثق الناس عند عمر ومعاوية ، وكانا يرجعان إليه ويأخذان قوله حجة شرعية ...] ليصل بعد ذلك إلى القول بأن : [مسألة عدالة الصحابة ليست من أصول الدين وفروعه بشيء ، ولا مدخلية لمثل هذا مما نسجته يد السياسة الأثيمة] مسوغاً طعنه بهم وتطاوله عليهم دون أن يفطن إلى أن العيب عليهم عيب في الدين نفسه (انظر : صوت الحق ودعوة الصدق للسيد الصافي ص : ٣٨ وما بعدها) .

غير أن هذا لا يعني أن ننسب العصمة إلى الصحابة أو السلف الصالح رضوان الله عليهم ، لأن العصمة لا تكون لأحد بعد رسول الله ﷺ ، وكل من ادعاها بعده فهو كاذب ، والصحابة بشر يخطئون ويصيبون ، يكون منهم الحق كما يكون منهم الهفوات ، فهم ليسوا ملائكة ، ومن الواجب هنا أن نفصل بين الإسلام فكرةً وعقيدةً لا تتغير ، وبين المسلمين عبر التاريخ ، فهم يقتربون مرة ويبتعدون أخرى ،

يرتفعون بالإسلام تارة ويهبطون بالبعد عنه ، وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله : [... إنَّ منهج الله ثابت ، وقيمه وموازينه ثابتة ، والبشر يبتعدون أو يقتربون من هذا المنهج ، يخطئون ويصيبون في قواعد التطبيق والسلوك ، ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوباً على المنهج ، ولا مغيراً لقيمه وموازينه الثابتة ، وحين يخطىء البشر في التصور والسلوك فإنه يصفهم بالخطأ ، وحين ينحرفون عنه فإنه يصفهم بالانحراف ولا يتغاضى عن خطئهم ، مهما تكن منازلهم وأقدارهم ، فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص] (في ظلال القرآن : ٤/ ١٦٨) .

التاريخ الإســــلامي وكيف نقرؤه ؟

إنَّ كتابة التاريخ الإسلامي تحتاج حتماً إلى إدراك طبيعة الفكرة الإسلامية ونظرتها إلى الحياة والأحداث والأشياء ، ودراسة الشخصيات الإسلامية تقتضي إدراكاً كاملاً لطبيعة استجابة الشخصية الإسلامية لإيحاءات الفكرة الإسلامية ... ولن يدرك طبيعة الفكرة ، ولا طريقة استجابة الشخصيات الإسلامية لها إلَّا كاتب مؤمن بهذه الفكـرة ، مستجيب لها في أعماقه ، لكي يكون إدراكه لها ناشئاً عن تلبس ضميره بها ، لا عن رصيدها من الخارج بالذهن المتجرد البارد ، وما ذلك إلَّا لأن التاريخ ليس الحادثة ، أو الحوادث ، إنما هو تفسيرها ، ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها : روحية وفكرية وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : غيبية ومعنوية ومادية : وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقوعها في مداركه ، ولا يرفض شيئاً من

استجاباته لها إلاَّ بعد تحرّج ونقد وتمحيص ... لذا كانت المناهج الغربية (الرهبانية النصرانية ، واللادينية الاستشراقية ، والمادية التاريخية) غير صالحة لتناول الحياة الإسلامية[٢] ...

وأخـــــرىٰ : إن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلاَّ في أيَّام العباسيين ، بعد زوال حكم الأمويين وقيام دول لا يسر رجالَها التحدث بمفاخر ذلك الماضي ومحاسن أهله ، وظهرت طوائف ثلاث في تدوين التاريخ الإسلامي :

- طائفة تقربت إلى ذوي السلطة بما يرضيهم من أجل أن تعيش بما تكتبه ، فهي تحتطب بحبلهم دون اهتمام بالحقيقة التاريخية أو الوصول إليها .

- وطائفة ظنت أن تدوين التاريخ الإسلامي لا يكون إلاَّ بتشويه سمعة الراشدين الثلاثة رضي الله عنهم ، وسواهم من أصحاب محمد ﷺ ، وذلك لتحقيق أهدافها الباطنة في القضاء على الإسلام وأهله[٣] ...

---

(٢) انظر مقدمة كتاب « خالد بن الوليد » لصادق عرجون رحمه الله ، ص : ١٤ وما بعدها .

(٣) يقول الإمام الغزالي عن هؤلاء في كتابه « فضائح الباطنية : ص ١٨ وما بعدها » : [... ولو شافهناهم بالدعاء إلى مذهبنا ـ القضاء على الدعوة الإسلامية ـ لتنمروا علينا ، وامتنعوا من الإصغاء إلينا ، فسبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم ، هم أركَهم عقولاً ، وأسخفهم رأياً ، وألينهم عريكة لقبول المحالات ، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات ، وهم الروافض ... ونتحصن بالانتساب إليهم والاعتزاء إلى أهل البيت عن شرهم ، ونتودد إليهم بما يلائم طبعهم : من ذكر ما تم على سلفهم من الظلم العظيم والذل الهائل ، ونتباكى لهم على ما حلَّ بآل محمد ـ ﷺ ـ ونتوصل به =

■ وثالثـــة رأت الإنصاف في أن تجمع أخبار الإخباريين على اختلاف مشاربهم وأهوائهم بعد إثبات أسماء رواة الأخبار التي أوردوها ، ليكون الباحث ـ فيما بعد ـ على بينة من أمره ، وعلى بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه ، ويأتي على رأس هذه الطائفة : أبو جعفر الطبري رحمه الله ، شيخ المؤرخين المسلمين ، الذي كان شعاره : « العهدة على الراوي » و « من أسند لك فقد حَمَّلك » ، خاصة وأن سلف علماء هذه الأمة كانوا قد قَعَّدُوا القواعد وأرسَوْا أسس المناهج « الجرح والتعديل » ، وفي ذلك يقول الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله : [إنَّ الحفاظ الأقدمين يعتمدون في روايتهم الأحاديث الموضوعة ـ الكاذبة ـ مع سكوتهم عنها ، على ذكرهم الأسانيد ؛ لاعتقادهم أنهم متى أوردوا الحديث بإسناده فقد

إلى تطويل اللسان في أئمة سلفهم الذين هم أسوتهم وقدوتهم ، حتى إذا قبحنا أحوالهم في أعينهم ، وما ينقل إليهم شرعهم بنقلهم وروايتهم ، اشتد عليهم باب الرجوع إلى الشرع ، وسهل علينا استدراجهم إلى الانخلاع عن الدين ...] . وفي العدد الصادر أول يناير (كانون الثاني) ١٩٦٤م من مجلة « الإيكونومست » الشيوعية جاء قولها : [علينا أن نعيد تفسير قصص الدين وسير رجاله ومواعظهم وأحاديثهم وأقوالهم بقالب اشتراكي ، فإذا قلنا بأن « يسوع » تأثر بطلب العمل للفقراء ، فهذا تفسير اشتراكي ، وبمثل هذا نقول عن محمد ـ ﷺ ـ وغيره ...] ، وجاء في العدد نفسه : [مكافحة الدين وروابطه لا تكون بنسف الدين ومعابده ... فلا تحطم الفأسُ ما في الضمير ، وإذا اقتضت مراحل التحويل الاشتراكي تعايشاً مع العقيدة الدينية ، أو إظهار الاهتمام بها في بعض الحالات ، كما هو الحال في المناطق الإسلامية ، فإن هذا الاهتمام تدبير مؤقت ... ولا بد أن يأتي وقت تقرر فيه القيادة الاشتراكية تقريراً حازماً بألَّا مبرر بعد للهدنة مع الميراث الديني وأصحابه ...] .

برئوا من عهدته ، وأسندوا أمره إلى النظر في إسناده ...] .

ولا تخفى أهمية التعرف على السند للوصول إلى أحوال الرواة ، خاصة وأننا نعيش الآن في عصر تقدمت فيه وسائل الإعلام وتطورت ، وأصبح الاتصال بين البشر ميسوراً سهلاً مهما كانت المسافات بعيدة ، في عصر ساد فيه التدوين والتأريخ ، وتقدمت وسائل الكتابة والطباعة والنشر تقدماً كبيراً ، وعلى الرغم من هذا كله نجد أن كثيراً من الوقائع والأحداث التي قد يكون الإنسان معاصراً لها أو معايشاً إيَّاها في بعض الأحيان ، تدون ويتناقلها الناس على غير حقيقتها وبحسب أهواء رواتها وارتباطاتهم ... فكم من مظلمة اجتماعية قدمت على أنها عدالة ورفاهية وتقدم ومساواة بين الناس ! وكم من هزيمة ، تكاد تكون ماحقة ، قدمت على أنها نصر مؤزر !! وكم من مستبد طاغية متسلط رويت سيرته على أساس أنه من أعدل العادلين ، بل أعدلهم !! وكم من حاكم حاول بعضهم إيجاد نسب له يُلْحِقُه برسول الله ﷺ . . . !!

ونقطـــة ثالثـــة : على دارس التاريخ الإسلامي بعد تثبته من السند ، أن يمحص الرواية ذاتها ، ولا يكتفي بمجرد النقل ، وهذا الذي سماه علماؤنا رحمهم الله « علم الدراية » ، أي : إن عليه أن ينقد الخبر رواية ودراية ...

أمَّا ما نراه الآن من بعض الذين يتهجمون على كتابة التاريخ الإسلامي ، وتصنيف الكتب فيه ، فهم من الذين لم يستكملوا العدة الصحيحة لذلك ، لا سيما في نقد الرواة ، ومعرفة ما حققه علماء الرجال في عدالتهم أو تجريحهم ، فضلاً عن تأثرهم بمناهج

الغربيين في تفسير التاريخ ، خاصة المادية التاريخية ... لذا فإنهم يقعون في أخطاء مميتة ، وتحريفات كثيرة ، هذا إن أحسنًا الظن ، ولم يكونوا كأولئك الذين ذكرهم الإمام الغزالي في كتابه « فضائح الباطنية » يعتمدون الطعن في الأسوة والقدوة ليسهل عليهم التخلص من الإسلام نفسه ... وهؤلاء بالتالي يشوهون التاريخ الإسلامي ورجالاته ، ويساهمون ـ علموا أم جهلوا ـ في بقاء الأمة فاقدة لأصالتها وذاتيتها ، وفي حالة من الضياع المؤدي إلى الهلاك ... ولو أنهم استكملوا الوسيلة الصحيحة للبحث في التاريخ الإسلامي لكانوا مصدر بناء ، وبعث ثقة ، ودعاة أصالة ... لا معاول هدم وتفريق ، ودعاة يأس وهوان ... في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى ما يجمع ويحشد الطاقات لمقابلة عدوان المعتدين من صهاينة وصليبيين وشيوعيين ملاحدة ، لا إلى ما يفرق ويذكّر بأحقاد القرون الفائتة ...

ليس حبـــاً لعلي !!

ويمكن أن نقدم أنموذجاً لهذه الدراسات المبتسرة القاصرة ، ما نشرته جريدة « الـراية » القطـرية في حلقـات أسبوعيـة (كل أربعـاء) لعبد الرحمن الشرقاوي(٤) تحت عنوان « علي إمام المتقين(٥) » وكأنه

---

(٤) عندما أرسل المقال إلى الجريدة المذكورة اعتذر ناصر العثمان رئيس تحريرها عن نشره : بحجة أن « هذا الرأي يبقى ناقصاً علماً ومعرفة طالما أنه تجاهل مكانة كاتب مثل الأستاذ الكبير عبد الرحمن الشرقاوي » وكأنَّ الشرقاوي إيَّاه اعترف بمكانة أصحاب رسول الله ﷺ حتى نشر له السيد العثمان ما نشر ، أم أنَّ مكانتهم لا ترقى إلى مكانة الشرقاوي هذا في نظره ؟! والشرقاوي هذا كاتب تدثَّر بدثار التقدمية =

يريد لتلك الفتنة التي ذرت قرنها بين المسلمين ، وبعد أن أفضى الجميع إلى ربهم ، وطويت صفحاتها نوائياً ، أن تعود من جديد ببعث أشخاصها

= الماركسية ، فلمّا وجد أنَّ بضاعته مزجاة ، وكتبه كاسدة لجأ إلى التاريخ الإسلامي ليقرأ حوادثه من خلال « المادية التاريخية » يدغدغ عواطف العامة ويستثير أحقاد القرون ... وهو صاحب قصة « الأرض » التي يهاجم الإسلام فيها من خلال مهاجمته الشيخ الشناوي « رجل الدين » بتعبيره حيث يقول عنه :

« لو كان يملك قيراطاً واحداً على الأقل لآمن أن الحكومة هي التي تحرم الفلاحين من الماء ، ولتأكد أن الحكومة وحدها هي التي تصنع المصائب » « لم يكن الشيخ الشناوي يملك في كل أرض القرية إلَّا المقبرة » إنَّ الذين يملكون أرضاً في القرية يضعون أيديهم في النار ، أما سيدنا فهو كخضرة ـ المومس ـ يده في الماء ... وفي مسرحيته « جميلة » بمناسبة انتصار ثورة الجزائر المسلمة على الصليبية الفرنسية ، يؤكد أنَّ مأساة الجزائر مأساة جزائرية ، ليست عربية ولا مسلمة ، وأنَّ هدف المقاتلين الجزائريين « الحرية والإخاء والأمن والحب وحياة أفضل » أما العروبة والإسلام والعودة إلى محمد ﷺ فليست هي أهدافهم بزعمه ، أما لحنهم الحبيب عند الاستقلال :

مبروك يا محمد عليك الجزائر رجعت إليك

فهذا لا يستحق أن يذكر عند هذا التقدمي !! كما يؤكد على دور « سيمون » العاهرة الفرنسية في جيش التحرير الجزائري ، ويجعل « جميلة » الجزائرية المسلمة تنطق بتقاليد « فرنسة » النبيلة ، وبكرامة « فرنسة » التي يزري بها تعذيب الجلادين لها ، ويشيد بمواقف فرنسيين يساريين تجاه ثورة الجزائر ، والمعروف لكل ذي عينين أن اليسار الفرنسي لم يدافع عن الجزائر ، بل غرق في عار الاستعمار ... ولم يدافع عن « جميلة » العربية المسلمة إلَّا العرب المسلمون أبطال جيش التحرير الوطني الجزائري ... وفي الوقت الذي يؤكد فيه على نصرانية « جان » وأنها تدفعه للسلوك الطيب المتعاون مع الثوار الجزائريين لم يشر أية إشارة إلى الدور الذي أدّاه الإسلام في الحفاظ على عروبة الجزائر ، وفي أنَّه هو الذي قهر فرنسا ، بل على العكس من ذلك فالصلاة والإسلام لا يذكره إلَّا الخونة عملاء الاستعمار « فالجاسوس هارون يقول : لم لا تقوم لكي تصلي ، هل سهوت عن الصلاة ؟ » ووردت عبارة « الله أكبر » مرتين على لسان الجاسوس ، ومرة على لسان المحامي =

من قبورهم وجعلها مادة يصول فيها ويجول لتقطيع كل رابط يمكن أن يشد المسلم إلى أخيه ، يوقظ أحقاد القرون ، ويستدر عواطف

= الخائن عميل « فرنسة » ، ومرّات على لسان « هند » بعد أن فقدت عقلها ... ولا ينسى أن ينتقص المسلمين ، فيقول في روايته هذه على لسان « هند » : « من يوم أن ذبح الحسين وأهله في كربلاء لم تأت غاشية كتلك » وكأنه يريد أن يعتذر عن المجازر الفرنسية ، وأن المسلمين ارتكبوا أفظع منها ضد بعضهم بعضاً ... هذا في الوقت الذي يعلن فيه « عمار أوزيجان » الوزير الجزائري بعد الاستقلال أن « رفض الأيديولوجية الإسلامية في بلاد مستعمرة ، يضطهد دين أكثرية سكانها الساحقة ، علامةُ تجدد أخرق ، تنادي به فئة منفصلة عن الشعب ، غريبة الحياة والفكر ، امتصتها أو شلّتها أيديولوجية المستعمر » وهذا الوصف ينطبق على الشرقاوي ذي المكانة الكبيرة عند رئيس تحرير الراية .. (انظر كتاب الغزو الفكري : ص ٨٧ ـ ١٢٣) .

(٥) إمام المتقين هو محمد ﷺ ، ولا يضير ذلك علياً رضي الله عنه فهو من أئمة الهدىٰ والرشاد كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ...

يقول ابن أبي الحديد ، وهو شارح « نهج البلاغة » المنسوب لعلي رضي الله عنه (٣/٢٦) :

[إن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل ـ فضائل الأشخاص ـ كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوةُ خصومهم ؛ فلما رأت البكرية ـ نسبة إلى أبي بكر رضي الله عنه ـ ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث] .

ويقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله في (لسان الميزان : ١/١٣) :

[وأما الفضائل فلا تحصى كم وضع الرافضة في فضل أهل البيت وعارضهم جهلة أهل السنة بفضائل معاوية بدءاً ، وبفضائل الشيخين ـ أبي بكر وعمر ـ وقد أغناهما الله وأعلا مرتبتهما عنها] .

وقد نقل الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه « بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص : ٢١ » عن ابن عساكر ، « التاريخ الكبير : ١/٦٩ » عن عائشة رضي الله عنها قالت :

[يا أهل العراق ، أهل الشام خير منكم ، خرج إليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ =

المقهورين ، ويثير ريح الكراهية نحو الجيل القدوة ، وما في ذلك من تحقيق لأهداف أعداء الأمة ، وكأنه يريد أن يقول للناس : هذا هو سلفكم ، وهذا سلوكه وتصرفاته !! معتمداً في ذلك كله على مفتريات وأكاذيب أشاعها أصحاب الأهواء ممن أسلسوا قيـادهم لابن سبأ اليهودي : تابعهم فيها ولم يكلف نفسه عناء نقدها وتمحيصها ، فضلاً عن أنه لم يذكر أي مصدر لأية رواية احتج بها وهو يتهجم على صحابة رسول الله ﷺ ... وكان من جملة مفترياته :

١ - أبو بكر وعمر وعثمان[٦] رضي الله عنهم بغاة [... جمع علي - رضي الله عنه على زعم الكاتب - كبار المهاجرين والأنصار وفتيان بني هاشم - في المدينة المنورة - وقال لهم : ويم الله ما زلت مبغياً عليَّ منذ قضى رسول الله ﷺ] .

٢ - عثمان رضي الله عنه ألعوبة بيد بطانة السوء ، ومخادع غاش [... وكنت كلما نصحته يا عليّ تاب إلى الله وأزمع عزل بطانة السوء . فتجيئه تلك البطانة فتغير رأيه ... لكم دافعتَ عنه ، وهو يعدك ويستغشك] .

= كبير ، فحدثونا بما نعرف ، وخرج إليكم نفر قليل من أصحابه فحدثتمونا بما نعرف وبما لا نعرف] .

كما نقل الخطيب البغدادي في كتابه « الكفاية : ٥٥٩ » عن عبد الله بن سلمة أنه قال :

[ما كنّا نتهم أن أحداً يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً حتى جاءنا قوم من أهل المشرق ، فحدثوا عن أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا عندهم بأحاديث لا نعرفها] .

(٦) روى الترمذي في « جامعه » عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صعد أُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اثبت أُحد ، فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٣ ـ عثمان رضي الله عنه أقطع بني أمية وكثيرين من الصحابة رضي الله عنهم إقطاعات من بيت مال المسلمين ، وأعطاهم أموالاً كثيرة من بيت المسلمين لا يستحقونها [ألا وإن كل ما أقطعه عثمان من مال الله مردود إلى بيت مال المسلمين] .

٤ ـ مأساة عثمان رضي الله عنه جاءت نتيجة الجمع بين ورع الإمامة وأبهة الملكية [صنع ـ عثمان ـ مأساته ونهايته الفاجعة بنفسه منذ أصبح إماماً لنفسه وملكاً على الآخرين ، أخذ نفسه بورع الإمامة والخلافة والسنة الشريفة ، وأخذ المسلمين بسياسة الملك العضوض ...] وهو الذي نفى أبا ذر إلى الربذة لأنه جهر بتحريم الكنز ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر !

٥ ـ عمر رضي الله عنه [ضرب أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ وقاسمه أمواله ، واتهمه في صدقه ، ومنعه من رواية الحديث الشريف ، وأبدى عجبه كيف يروي أبو هريرة عن الرسول ﷺ أضعاف ما روى عنه أبو بكر وعمر نفسه وعلي ، وما كان أحد ألصق برسول الله ﷺ ولا أكثر صحبة له من هؤلاء الثلاثة ...] .

٦ ـ التشكيك بنفر من الصحابة منهم : عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين ، وطلحة والزبير رضي الله عنهما المبشران بالجنة ، ويصفهم بالنفر الذين [انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرىء منهم لنفسه ... هؤلاء الراغبون في أن تكون الولاية على الناس سطوة ملك عضوض ...] واتهمهم بأنهم كانوا المحرضين على قتل عثمان رضي الله عنهم جميعاً .

٧ ـ بنو أميَّة أهل كيد وسوء [لا تعلمون أيها الناس كيد بني أميَّة ومكرهم السيِّء ، والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلَّا استحلوه ، ولا عقداً إلَّا أحلَّوه ...] .

٨ ـ صراع الطبقات وتفسير التاريخ الإسلامي تفسيراً مادياً[٧] تبعاً لماركس [أيمكن لطلحة والزبير أن يعيدوا هذا المال إلى بيت المال ، أم أن المصالح التي تربطهما بكبار بني أمية ، كمعاوية وعصبته ، هي الآن أقوى مما عسى أن يربطهما بالإمام ... سيلحق طلحة والزبير بمعاوية وعصبته بلا مراء ...] لأن علياً رضي الله عنه [سيحرمهم من كل متاع ومن كل مآربهم في حياتهم الجديدة الرغيدة ، وسينصر عليهم المساكين ، ويظل حتى يفقدوا أبهة الملك وزخرف الغنى وسطوة الجاه ...] .

وهو في جميع مفترياته هذه لم يَعْزُ أية رواية اعتمدها إلى مصدرها ، ولم يذكر أي مصدر من المصادر التي رجع إليها واستقى منها ما سوّد من صفحات ، وتعمد هكذا أن يلقي الكلام على عواهنه حتى لا يُفْتَضَح هدفه ، وتنكشف غايته ، وأكبر الظن أنه تستر عليها ولم يذكرها لكونها جاءت وصدرت عن أهل الأهواء والفتن[٨] ... ولا ندري إن كان هذا هو منهج البحث التاريخي والطريقة الموضوعية فيه التي ارتضاها رئيس تحرير

---

(٧) ذكر الشرقاوي نفسه في مقال نشره في « الأهرام القاهرية » بتاريخ ٤ يناير [كانون الثاني] ١٩٨٤م أن كتاباته أقرب إلى الفن الروائي المعتمد على حقائق التاريخ (!!) وأنه لا يلتزم المذهب المادي ، ولكنه لا يهمله (!!) .

(٨) يقول أحمد الوائلي في كتابه (هوية التشيع ص : ٤١) :
[إني خلال مراجعتي كتب التاريخ لم أر في الفترة التي تمتد من بعد وفاة النبي ﷺ حتى نهاية خلافة الخلفاء من عمد إلى الشتم من أصحاب الإمام ، وإنما هناك من قيم الخلفاء وقيم الإمام ، وحتى في أشد جمحات عاطفة الولاء لم نجد من يشتم أحداً ممن تقدم الإمام بالخلافة ...

يضاف إلى ذلك أنه حتى في الفترة الثانية ، أي : في عهود الأمويين ، كان معظم الشيعة يتورعون عن شتم أحد من الصحابة أو التابعين] .

الراية : فأكبر الشرقاوي لأجلها وقدمه ونشر له مفترياته في حق صحابة رسول الله ﷺ ؟!

ويبقى التساؤل قائماً : لمصلحة من يكتب هذا الكلام ، وينشر في هذا الظرف بالذات حيث تحتاج الأمة إلى ما يرص صفوفها ويشد بعضها إلى بعض ، لا إلى من ينبش القبور ، ويثير الأحقاد والضغائن ، ويصب البترول على النار ؟!

الراشـــدون الثلاثـــة :

زعم الكاتب أن علياً رضي الله عنه ، قال : [ويم الله ما زلت مبغياً عليّ منذ قضى رسول الله ﷺ] وكأنه يريد أن يصف الراشدين الثلاثة رضي الله عنهم بأنهم بغاة ، فأخرج الوصف على لسان علي رُضي الله عنه ليخدع القارىء ويطعن الصحابة كلهم ؛ وعلي رضي الله عنه هو الذي خطب الناس على منبر مسجد الكوفة ، وكان مما قاله : [خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ : أبو بكر ، ثم عمر ... لا أُوتى بمن يفضلني على أبي بكر وعمر إلَّا أقمت عليه حد المفتري ـ أي: الكاذب][9] (منهاج الاعتدال

---

(٩) أخرج الهروي والدارقطني من طرق أن بعضهم مر بنفر يسبون الشيخين رضي الله عنهما، فأخبر عليًّاً رضي الله عنه وقال: لولا أنهم يرون أنك تضمر ما أعلنوا ما اجترؤوا على ذلك. فقال علي رضي الله عنه: أعوذ بالله، رحمهما الله، ثم نهض، فأخذ بيد المخبر وأدخله المسجد، فصعد المنبر، ثم قبض على لحيته، وهي بيضاء، فجعلت دموعه تتحادر على لحيته، وجعل ينظر حتى اجتمع الناس، ثم خطب خطبة بليغة، من جملتها: ما بال أقوام يذكرون أخوي الرسول ﷺ، ووزيريه، وصاحبيه، وسيدي قريش، وأبوي المسلمين، وأنا بريء مما يذكرون، وعليه معاقب؛ صحبا رسول الله ﷺ بالحب والوفاء، والجد في أمر الله تعالى، يأمران وينهيان، ويقضيان ويعاقبان، لا يرىٰ رسول الله ﷺ كرأيهما رأياً، ولا يحب كحبهما حبّاً، لما يرى من عزمهما في أمر الله، فقبض وهو عنهما راض، والمسلمون راضون، فما تجاوزا في أمرهما وسيرتهما رأي رسول الله ﷺ وأمره في حياته وبعد مماته، فقبضا على ذلك رحمهما الله تعالى؛ فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا =

للذهبي : ١٨٥) ، وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن عمر بن حريث ، وعن شريح القاضي أنهما سمعا علياً رضي الله عنه ، يقول : [ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ...] وأخرج الإمام أحمد هذا الحديث، وقال الذهبي: إنه متواتر؛ كما قال ذلك ابن كثير في البداية والنهاية.

أخرج البزار في مسنده عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي رضي الله عنه أنه قال: أخبروني؛ من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت. قال: أما إني ما بارزت أحداً إلَّا انتصفت منه، ولكن أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر، إنه لما كان يوم بدر، فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منه أحد إلَّا أبو بكر شاهراً سيفه على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلَّا هوىٰ إليه، فهذا أشجع الناس... وتابع علي رضي الله عنه قائلًا:

ولقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش ، فهذا يجبؤه ، وهذا يتلتله ، وهم يقولون : أنت الذي جعل الآلهة إلٰهاً واحداً ؟ فوالله ما دنا منَّا أحد إلَّا أبو بكر ، يضرب هذا ، ويجبأ هذا ، ويتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم : أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله ؟.. ثم رفع عليّ رضي الله عنه بردة كانت عليه ، فبكىٰ حتى اخضلّت لحيته ، وهو يقول : أنشدكم الله ، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم : فقال : ألا تجيبوني ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مؤمن آل فرعون : ذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه ...

= يحبهما إلا مؤمن فاضل، ولا يبغضهما ويخالفهما إلا شقي مارق، وحبهما قربة وبغضهما مروق... ثم ذكر أمر النبي ﷺ لأبي بكر بالصلاة وهو يرى مكان علي، ثم ذكر أنه بايع أبا بكر، ثم ذكر استخلافه لعمر، وقال: ألا ولا يبلغني عن أحد أنه يبغضهما إلا جلدته حد المفتري.

لما توفي الصديق رضي الله عنه ، وقف علي رضي الله عنه يرثيه ، فكان مما قاله : [... وخلفته في دين الله وأمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، وقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي ، فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، وثبتَّ إذ تتعتعوا ، ومضيت بنور الله إذ وقفوا ، فاتبعوك فَهُدوا ... كنت على الكافرين عذاباً صباً ولهباً ، وللمؤمنين رحمة وأُنساً وحصناً ، وكنت ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ ضعيفاً في بدنك قوياً في الله ، جليلاً في أعين الناس ، كبيراً في أنفسهم ، لم يكن فيك مغمز ، ولا لقائل فيك مهمز ... فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً]

(الرياض النضرة في مناقب العشرة: ١/ ١٨٣) (إعجاز القرآن للباقلاني: ١٤٣ وما بعدها)

وأخرج ابن عساكر عن علي رضي الله عنه أنه قال : [لقد أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس ، وإني شاهد وما أنا بغائب ، وما بي مرض ، فرضينا لدنيانا ما رضي النبي ﷺ لديننا ...] وأخرج الدارقطني والخطيب وابن عساكر عن علي رضي الله عنه ، قال : [قال رسول الله ﷺ : سألت الله أن يقدمك ثلاثاً ، فأبى عليَّ إلَّا تقديم أبي بكر] وأخرج صاحب « أسد الغابة في معرفة الصحابة » عن علي رضي الله عنه قال : [إنَّ الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة ، فسبقا والله سبقاً بعيداً ، وأتعبا والله من بعدهما إتعاباً شديداً ، فذكرهما حزن للأمة وطعن على الأئمة] .

وفي رواية صحت عن جعفر الصادق عن أبيه الباقر أن عليّاً رضي الله عنه وقف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدما مات، وهو مسجى، قائلاً: [ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء أحب إليَّ أن ألقى الله تعالى بصحيفته من هذا المسجى] وفي رواية أنه قال له وهو مسجى: صلى الله عليك، ودعا له.

وكما بايع عليٌّ أبا بكر الصديق رضي الله عنهما بالخلافة [قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث طويل : إن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة ، فنظر في وجوه القوم ، فلم ير الزبير رضي الله عنه ، فدعا به ، فجاء ، فقال : ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين ؟ فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ ، فقام فبايعه . ثم نظر في وجوه القوم ، فلم ير علياً رضي الله عنه ، فدعا به فجاء ، فقال : ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين ؟ فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ ثم قام فبايعه ...] كذلك بايع عمر بن الخطاب وعثمان بن عفَّان رضي الله عنهم جميعاً ، ولم يتخلف عن بيعتهما ، وكان وزيراً ومساعداً ومشيراً لهما ، كما حفظ لنا التاريخ الصحيح . وهو الذي نافح عن عثمان رضي الله عنه وأرسل ولديه الحسن والحسين رضي الله عنهما ليكونا ردءاً لعثمان ، وهو القائل في الخطبة التي خطبها على الغرائر في معسكره بالكوفة عندما كان الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي يسعى بإتمام المهمة التي جاءت عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم لإتمامها ، وعلى مسمع من قتلة عثمان : [إن الله أنعم على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ - أي بأبي بكر - ثم الذي يليه - أي بعمر - ثم الذي يليه - أي بعثمان - ثم حدث هذا الحادث الذي جره على الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حسدوا من أفاء الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها[٩] ...] ثم ذكر أنه

(٩) روى الترمذي في « جامعه » أن خطباء قامت بالشام ، وفيهم رجال من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقام آخرهم رجل يقال له : مُرَّة بن كعب ، فقال : لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت ، وذكر الفتن فقرَّبها ، فمر رجل مقنع في ثوب ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هذا يومئذ على الهدى » فقمت إليه ، فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه . قال : فأقبلت عليه بوجهه ، فقلت : هذا ؟ فقال ﷺ : « نعم » . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

راحل غداً إلى البصرة ليجتمع بأخويه وبأم المؤمنين رضي الله عنهم ، وقال : [ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان رضي الله عنه بشيء في شيء من أمور الناس ، وليُغْنِ السفهاء عنِّي أنفسهم ...] (الطبري : ٥/ ١٩٤) فهل يعقل بعد هذا أن يكون صادقاً من قَوَّلَ علياً رضي الله عنه ليتهمه ويتهم الراشدين الثلاثة معه ؟!

عثمان رضي الله عنه وسياسة المُلْكِ العَضُوض ..

نعود إلى رواية السري عن شعيب عن سيف[١٠] عن عطية عن يزيد الفقعسي حول الفتنة التي أوردها الطبري في تاريخه (٣/ ٣٧٨) حيث يقول : [فبث ـ ابن سبأ ـ دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...] ووصلت الأخبار إلى المدينة المنورة ، ودخل محمد بن مسلمة ، وطلحة بن عبيد الله على أمير المؤمنين عثمان على

---

(١٠) إنَّ معظم التشويه في تاريخنا لهذه الفترة جاء من روايات أبي مخنف لوط بن يحيى ، والتي أوردها الطبري في تاريخه بسندها ، كما أورد إلى جانبها رواية السري عن شعيب عن سيف بن عمر بسندها أيضاً ، حتى يعود طالب الحقيقة إلى علم الجرح والتعديل ليرجح رواية على أخرىٰ ، ولقد اخترت رواية السري عن شعيب عن سيف لأن علماء الرجال شهدوا لسيف في التاريخ ووثقوه ، وقالوا عنه : [كان إخبارياً عارفاً] وقالوا عنه أيضاً: [ثقة في التاريخ] وقالوا عنه: [ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ] مع الأخذ في الاعتبار أن مقاييس المحدثين تختلف عن مقاييس المؤرخين، فقد كان المحدثون أشد في الاحتياط. وفوق هذا فإن معنى ضعيف في الحديث: أي: أنه لا يترك حديثه، بل يعتبر به [انظر: مقدمة ابن الصلاح بتحقيق الدكتورة بنت الشاطىء: ٢٣٩ وما بعد] روى عنه الترمذي. أما لوط بن يحيىٰ أبو مخنف، فقالوا عنه: [إخباري تالف لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره، وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال مرة: ليس بشيء؛ وقال ابن عدي: شيعي محترق، صاحب أخبارهم، وقال يحيىٰ بن معين: ليس بثقة؛ وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا حاتم عنه، فنفض يده، وقال: أحد يسأل عن هذا!! لسان الميزان: ٤/٤٩٢].

عجل ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا والله ، ما جاءني إلاَّ السلامة . قالا : فإنه قد أتانا ... وأخبروه بما تناهى إلى سمعهم عن الفتنة ، فقال : أنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا علي ... قالا : نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم . فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ... ولم يكتف رضي الله عنه بهذا ، ولكنه كتب إلى أهل الأمصار جميعاً كتاباً شاملاً ، جاء فيه : [فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلاَّ أعطيته ، وليس لي ولعيالي حق قِبَلَ الرعية إلاَّ متروك لهم ، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ، وآخرين يُشتمون ، فيا من ضُرب سراً وشُتم سراً ، من ادعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي ، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين ...] .

هل يصدر هذا عن إنسان يسوس الناس بسياسة الملك العضوض ، أم عن إنسان يسوسهم بالسنة الراشدة ؟! ألا قاتل الله الهوىٰ .

ولم يكتف رضي الله عنه بهذا ، بل استدعى الولاة على عجل (عبد الله بن عامر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبيد الله بن سعد بن أبي سرح) وأدخل معهم في المشورة (سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص) من الولاة السابقين ، وقال عثمان رضي الله عنه : [ويحكم ما هذه الشكاية ؟ وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ، وما يعصب هذا إلاَّ بي ...] فأجابه الولاة : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر ؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الأمر

أصلاً ... وما هي إلَّا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها ... [وقال عثمان : أشيروا عليَّ] وكان مما قاله عمرو بن العاص : أرىٰ أنك قد لنت لهم ، وتراخيت عنهم ، وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرىٰ أن تلزم طريقة صاحبيك ، فتشتد في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين ، إنَّ الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللين .

وقال عثمان رضي الله عنه :

كل ما أشرتم به عليّ قد سمعت ، ولكل أمر باب يؤتى منه ، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة إلَّا في حدود الله تعالى ... وقد علم الله أني لم آلُ الناس خيراً ولا نفسي ، ووالله إن رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغتفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنـوا فيها] (الطبـري : ٣/ ٣٨٠ وما بعدها) إنه يرفض استعمال الشدة أو القوة ، ويصر على اتباع سياسة التسامح واللين إلَّا في حدود الله عز وجل ، فهذه لا هوادة فيها ، لأن مهمة الإمام أن يحكم بشريعة الله وينفذ حدوده ... أهذه طريقة رجل يسوس الناس بسياسة الملك العضوض ؟!

محاسبـــة علنيـــة ...

عندما جاء الكوفيون والبصريون الناقمون إلى المدينة المنورة ، قال المسلمون : اقتلهم ؛ فإن رسول الله ﷺ ، قال : « من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله ، فاقتلوه » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لا أُحِلُّ لكم إلَّا ما قتلتموه وأنا شريككم ...) فقال عثمان

رضي الله عنه : بل نعفوا ونقبل ، ونبصرهم بجهدنا ، ولا نحادُّ أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً ... إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ، ألا إنهم زعموا أنهم يُذَكِّرُونِيهَا ليوجبوا عليَّ[11] عند من لا يعلم .

- **وقالوا : أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم . ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي فأتممت ، أوَكذلك ؟ قال المسلمون : اللهم نعم .**

- **وقالوا : وحَمَيْتُ الحمى . وإني والله ما حميت ، حُمي قبلي ، والله ما حَمَوْا شيئاً لأحد ، ما حموا إلَّا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رَعْيِه أحداً ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا**

---

(١١) روىٰ الترمذي في « جامعه » عن عثمان بن عبد الله بن موهب أن رجلاً من أهل مصر حج البيت ، فرأىٰ قوماً جلوساً ، فقال : من هؤلاء ؟ قالوا : قريش . قال : فمن هذا الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر . فأتاه ، فقال : إني أسألك عن شيء فحدِّثني : أنشدك الله بحرمة هذا البيت ، أتعلم أن عثمان فرّ يوم أُحد ؟ قال : نعم . قال : أتعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : أتعلم أنه تغيب يوم بدر فلم يشهد ؟ قال : نعم .

قال : الله أكبر .

فقال له ابن عمر : تعالَ أُبين لك ما سألت عنه : أما فراره يوم أُحد ، فأَشهدُ أن الله عفا عنه وغفر له .

وأما تغيبه يوم بدر ، فإنه كان عنده ، أو تحته ، ابنة رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « لك أجر رجل شهد بدراً وسهمه » وأمره أن يخلف عليها ، وكانت عليلة

وأمَّا تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلو كان أَحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثه رسول الله ﷺ مكان عثمان ؛ بعث رسول الله ﷺ عثمان إلى مكة ، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة . قال : فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى : « هذه يد عثمان » وضرب بها على يده ، فقال : « هذه لعثمان » ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

روىٰ البخاري في « التاريخ الصغير : ١/ ٥٩ » عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال : عمل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ثنتي عشرة سنة ، لا ينكرون من إمارته شيئاً ، حتى جاء فسقة ، فداهن والله في أمره أهل المدينة .

يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نحّوا منها أحداً إلَّا من ساق درهماً ، وما لي من بعير غير راحلتين ، وما لي من ثاغية ولا راغيةٍ (إنه لا يملك غنماً ولا إبلًا) ، وإني قد وليت وأنا أكثر العرب بعيراً وَشَاءً ، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجّي ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

- **وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها إلَّا واحداً . ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء - أصحاب محمد ﷺ - أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم[١٢].**

- **وقالوا : إني رددت الحَكَمَ وقد سيَّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ، ثم رده رسول الله ﷺ ، فرسول الله ﷺ سيَّره ، ورسول الله ﷺ ردّه ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .**

- **وقالوا : استعملت الأحداث ؛ ولم أستعمل إلَّا مجتمِعاً ؛ مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل بلدهم ؛ ولقد ولّى من قبلي أحدث منهم (أسامة بن زيد ولَّاه رسول الله ﷺ وعمره سبعة عشر عاماً) وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .**

---

(١٢) ذكر صاحب البرهان في علوم القرآن: ١/٢٣٩ عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال: «رحم الله أبا بكر، هو أول من جمع المصحف بين اللوحين، ولم يحتج الصحابة في أيامه وأيام عمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان، ولقد وُفِّقَ لأمرٍ عظيم: رفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة».

- وقالوا : إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه ؛ وإني إنما نفلته خُمْس ما أفاء الله عليه من الخمس ، فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر ؛ فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

- وقالوا : إني أحب أهل بيتي وأعطيهم . فأما حبي لهم فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم فإني أعطيهم من مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أُعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ شحيح حريص ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي ، وفَنِيَ عمري ، وودعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا ؟ وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددت عليهم ، وما قدم عليّ إلّا الأخماس ، ولا يحل لي منها شيء ، فَوَلِيَ المسلمون وضعها في أهلها دوني ، ولا تبلّغت من مال الله بفلس فما فوقه ، وما أتبلغ منه ؛ ما آكل إلّا مالي .

- وقالوا : أعطيت رجالاً ، وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ؛ فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ، ومن رجع إلى أهله لم يُذْهب ذلك ما حوىٰ الله له ، فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم ، فبعته لهم بأمرهم من رجالٍ أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني ...

وكان عثمان رضي الله عنه قد قسم ماله وأرضه في بني أمية ، وجعل ولده كبعض من يعطي ، فبدأ ببني أبي العاص ، فأعطى

آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف ، فأخذوا مائة ألف ، وأعطى بني عثمـان مثل ذلـك ، وقسم في بني العاص ، وفي بني العيص ، وفي بني حرب ...

بعد هذا أبى المسلمون إلَّا قتلهم ، وأبىٰ هو رضي الله عنه إلَّا تركهم ... فهل هذا البيان الشامل ، والمحاسبة العلنية ، ثم العفو والصفح عن المتآمرين والمغرضين والمفسدين في الأرض طريقة رجل يسوس الناس سياسة الملك العضوض ؟ ! .

الكتـــــاب المزعـــــوم ...

ويعود هؤلاء إلى البلاد التي جاؤوا منها [مصر ـ الكوفة ـ البصرة] بعد أن فشلوا في إثارة الفتنة وتنحية الخليفة رضي الله عنه ، على أن يقوموا بغزو المدينة المنورة مع الحجاج كالحجاج ، وتكاتبوا وقالوا : « موعدكم ضواحِيَ المدينة في شوال » .

ولما كان شوال من سنة (٣٥) هجرية ؛ خرج أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث ، تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشبٍ ، وجاءهم ناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص ،

وجاءهم ناس من أهل مصر ، وتركوا عامتهم بذي المروة ... فاجتمع نفر من أهل مصر ، فأتوا علياً رضي الله عنه ، وكان في عسكر عند أحجار الزيت ـ للدفاع عن الخليفة والمدينة ـ عليه حلَّة أفواف ، مُعْتَمٌّ بشقيقة حمراء يمانية ، متقلد السيف ، ليس عليه قميص ، وقد سرح الحسن رضي الله عنه ولده ـ إلى عثمان فيمن اجتمع إليه ـ فالحسن جالس عند

عثمان وعلي عند أحجار الزيت ـ فسلم عليه المصريون ، وعرضوا له ، فصاح بهم رضي الله عنه واطردهم قائلاً :

« لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة ، وذي خشب ، والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فارجعوا ، لا صَحِبَكم الله » فانصرفوا من عنده على ذلك .

وأتى البصريون طلحة ، وهو في جماعة أخرىٰ إلى جنب علي ، وقد أرسل ابنيه إلى عثمان ، فصاح بهم واطردهم ، وقال لهم كما قال علي رضي الله عنه لوفد مصر .

وأتى الكوفيون الزبير ، وهو في جماعة أخرىٰ ، وقد سرح ابنه عبد الله إلى الخليفة ، فصاح بهم واطردهم ، وقال لهم ما قاله علي وطلحة رضي الله عنهم جميعاً .

فخرج هؤلاء الماكرون ، وأروهم أنهم يرجعون ، فانفشوا عن ذي خشب والأعوص حتى انتهوا إلى عساكرهم ، وهي ثلاث مراحل ، وافترق أهل المدينة لخروجهم ، فلما بلغ هؤلاء عساكرهم كروا بهم ، فلم يفجأ أهل المدينة إلَّا والتكبير في نواحيها ، فنزلوا في مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان رضي الله عنه ، وقالوا : من كفَّ يده فهو آمن ... وصلى عثمان بالناس أياماً ، ولزم الناس بيوتهم ، ولم يمنعوا أحداً من الكلام ، وأتوا الناس وفي الناس علي رضي الله عنه ، فقال : « ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟! » .

قالوا : أخذنا مع بريد كتاباً[١٣] بقتلنا ... وقال الكوفيون والبصريون : فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً .

---

(١٣) اتهم مروان بن الحكم في روايات الإخباريين وأصحاب الأهواء ، بأنه هو الذي زوّر الكتاب وأرسله إلى والي مصر من قبل عثمان رضي الله عنه ، عبد الله بن أبي =

=/ السرح ليقتل رؤوس الفتنــة، لذا طـالبوا بتسليمــه إليهم ليقتلوه، ورفض عثمــان رضي الله عنه الرضــوخ لمشيئة أصحــاب الفتنة، وأقسم أنــه لم يكتب، ولم يأمــر، ولم يعلم... ورواية الطبري التي ذكرناها، وغيرها من الــروايات تؤكـد تزويــر دعاة الفتنــة لهذا الكتــاب وغيره من الكتب على لســان طلحــة والــزبيـر وعــائشــة أم المؤمنين رضي الله عنهم جميعــاً... ويظهر ذلك واضحًا من المحاورة التي تمت بين هؤلاء البغاة وعلي رضي الله عنه ...

ورغم ذلك فإننا نتساءل : كيف يكتب مروان بن الحكم إلى ابن أبي سرح والي مصر بقتلهم ، وهو يعلم أنه كان قد استأذن الخليفة رضي الله عنه في القدوم إلى المدينة المنورة عن طريق العقبة والعريش بعد أن وقعت الفتنة ، وأذن له الخليفة ، واستخلف على مصر : السائب بن هشام ؛ وقبل أن يصل ابن أبي سرح إلى المدينة بلغه خبر استشهاد الخليفة مظلومًا رضي الله عنه ؟!

لقد كان مروان بن الحكم موضع ثقة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ؛ وزين العابدين أحد الذين يروون الحديث عن مروان ، روى ذلك الحفاظ والأئمة ، وآخرهم الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة ... وممن نص ابن حجر على روايته عن مروان : سعيد بن المسيب وإخوانه من فقهاء المدينة السبعة وأمثالهم كعراك بن مالك الغفاري المدني فقيه أهل دهلك ، وعبد الله بن شداد بن الهاد أحد الرواة عن عمر ، وعلي ، ومعاذ رضي الله عنهم ... وإن رواية عروة بن الزبير عن مروان في كتاب الوكالة من صحيح البخاري ، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وفي مصنف الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني إمام اليمن ؛ فكيف يوثقه علماء الجرح والتعديل ، ويأخذون بحديثه لو كان كما يفتري المفترون ؟! خاصة وأن شدة علماء الحديث في التوثيق معروفة ومشهود بها حتى من الأعداء ...

أما عبد الله بن أبي سرح فيقول عنه الليث بن سعد ، إمام مصر وعظيمها ، فيما يرويه عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة : « كان ابن أبي سرح على الصعيد زمن عمر رضي الله عنه ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلّها ، وكان محمودًا في ولايته » فهو إذًا محمود السيرة ، ولّاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يستعمله عثمان رضي الله عنه ... كانت ولايته على مصر كلها عام (٢٥هـ) وفي عام (٢٧هـ) افتتح أفريقية كلّها ، وكان ذلك من أعظم الفتوح : وكان العبادلة على جلالة =

فقال لهم علي رضي الله عنه : « كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا ؟ هذا أمر أبرم بالمدينة » .

قالوا : « فضعوه على ما شئتم . » .

ألا يكفي هذا ليكون إقراراً منهم بالافتراء والكذب ، والادعاء بالكتاب المرسل مع البريد لقتلهم لتسويغ رجوعهم ونكثهم العهد والبيعة ، وخروجهم على الإمام ومفارقتهم الجماعة ؟!

ذكر ابن خلدون في مقدمته (ص : ٢١٥) قوله : [فانصرفوا قليلاً ، ثم رجعوا وقد لبَّسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم ، وحلف عثمان على ذلك ، فقالوا : مكِّنا من مروان فإنه كاتبك . فحلف مروان ؛ فقال : ليس في الحكم أكثر من هذا] .

وكتب عثمان رضي الله عنه إلى أهل الأمصار كتاباً يشرح لهم الموقف ، ويستمدهم ، ومما جاء فيه قوله : « فصبرت لهم نفسي ، وكففتها عنهم

= قدرهم تحت قيادته في هذا الجهاد ، وهو قائد المسلمين في معركة ذات الصواري عام (٣٤هـ) أوَّل معركة بحرية يخوضها المسلمون ضد البيزنطيين ، حيث حُطِّم الأسطول البيزنطي ، وانتصر المسلمون نصرًا مؤزرًا حوَّل البحر المتوسط إلى بحر إسلامي ... مضى إلى فلسطين بعد وصول أخبار استشهاد الخليفة إليه وهو في طريقه إلى المدينة المنورة لنصرته ، واختار الإقامة بين عسقلان والرملة ، واعتزل الناس حتى توفي عام (٥٧هـ) روى البغوي بإسناد صحيح عن يزيد بن أبي حبيب ، قال : « خرج ابن أبي سرح إلى الرملة ، فلما كان عند الصبح قال : اللهم اجعل آخر عملي الصبح ، فتوضأ ثم صلّى ، فسلم على يمينه ، ثم ذهب يسلم عن يساره ، فقبض الله روحه ، يرحمه الله » .

منذ سنين وأنا أرىٰ وأسمع ، فازدادوا على الله عزَّ وجل جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه ، وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب ، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب ، أو من غزانا بأُحد ، إلَّا ما يظهرون ، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق ... » .

أهذه أقوال رجل يسوس الناس بسياسة الملك العضوض ، أم أنها سياسة راشدة تخشى الله وتتقيه ؟ وهل يمكن أن يوصف صاحبها بأنه « يَعِدُ ويستغش » ؟ أم أنها الأهواء والعصبيات الجاهلية المقيتة ؟ ! .

وتجرأ أصحاب الفتنة على الخليفة في مسجد محمد ﷺ ، وحصبوه حتى صُرِع عن المنبر مغشياً عليه ، فاحتمل وأُدخل في داره ... وشمر أناس من الصحابة فاستقتلوا ، منهم : سعد بن أبي وقاص ، وأبو هريرة ، وزيد بن ثابت ، والحسن بن علي رضي الله عنهم ... فبعث إليهم عثمان أن ينصرفوا ، وهو يصر رضي الله عنه ألَّا يراق من أجله قطرة دم واحدة :

« يا أهل المدينة ، إني أستودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي ، إني والله لا أدخل على أحد بعد يومي هذا حتى يقضي الله فيَّ قضاءه ، ولأدعن هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتخذونه عليكم دَخَلاً في دين الله أو دنيا حتى يكون الله عزَّ وجل هو الصانع في ذلك ما أحب »[١٤] وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم ،

---

(١٤) روى أحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ قال : « يا عثمان ، إنَّ الله عسىٰ أن يلبسك قميصاً ، فإذا أرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقاني » قالها له ثلاثاً . ورواه أيضاً ابن ماجه والترمذي ، وقال : حديث حسن غريب .

فرجعوا إلَّا الحسن بن علي ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير وأشباهاً لهم ، جلسوا بالباب عن أمر آبائهم ، وثاب إليهم ناس كثير ، ولزم عثمان رضي الله عنه الدار . [الطبري : ٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨] .

استشهـــــاد الخليفـــــة :

وحاصر أصحاب الفتنة داره ، ورموها بالحجارة ، ومنعوا الماء عنه ، فأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأزواج النبي ﷺ « أنهم قد منعونا الماء ، فإن قدرتم على أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا ... » وجاء علي رضي الله عنه في الغلس ، فقال : « أيها الناس ، إنَّ الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ، ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وما تعرض لكم ، فبم تستحلون حصره وقتله ؟ » .

وجاءت أم حبيبة رضي الله عنها برحالة مشتملة على إداوة ، فضربوا وجه بغلتها ، وقد كادت تقتل ... وأشرف عثمان رضي الله عنه على الناس ، فقال : يا عبد الله بن عبَّاس ـ وكان ممن لزم باب دار الخليفة يمنع عنه ـ فدُعِيَ له ، فقال : اذهب ، فأنت على الموسم ـ ليحج بالناس ـ فقال عبد الله : والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إلى من الحج . فأقسم عليه عثمان لينطلقن .

ورمى عثمان إلى الزبير بوصيته ، فانصرف بها ... ثم كان ما كان من تسوُّر أصحاب الفتنة الدار وقتلهم الخليفة رضي الله عنه وأرضاه وهو يقرأ كتاب الله تعالى .

روايـــة ابن كثير رحمـــه الله :

جاء في رواية أوردها ابن كثير في (البداية والنهاية : ٧/ ١٧١) ما يلي :

« ... فانطلق علي بن أبي طالب إليهم - أصحاب الفتنة - وهم بالجُحفة ، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره ، فردهم وأنَّبهم وشتمهم ... ويقال : إنه ناظرهم في عثمان ، وسألهم : ماذا ينقمون عليه ؟ فذكروا أشياء ، منها : أنه حمى الحمى ، وحرق المصاحف ، وأتمَّ الصلاة ، وولى الأحداث الولايات وترك الصحابة الأكابر ، وأعطى بني أمية أكثر من الناس ...

فأجاب علي رضي الله عنه عن ذلك : أما الحمى ، فإنما حماه لإبل الصدقة - الزكاة - لتسمن ، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه ، وقد حماه عمر من قبله . وأما المصاحف ، فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف ، وأبقى لهم المتفق عليه كما ثبت في العرضة الأخيرة . وأما إتمامه الصلاة بمكة ، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتمها . وأما توليته الأحداث ، فلم يولّ إلَّا رجلًا سوياً عدلًا ، وقد ولّى رسول الله ﷺ عَتَّاب بن أُسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة ، وأسامة بن زيد ، وطعن الناس في إمارته ، فقال : إنه لخليق بالإمارة ... » .

لقد رفض عثمان رضي الله عنه أن تراق قطرة دم واحدة في سبيله ، وأراد أن يلقى الله عزَّ وجل طاهراً بريئاً ليس في عنقه قطرة دم مسلم ، في حين نجد عبر التاريخ في القديم والحديث الكثيرين من الحكام ، وعلى

رأسهم في عصرنا دعاة الماركسية وأرباب المادية يسفكون دماء الناس كلهم لنجاتهم ، بل إنهم ليقتلون أقرب الناس إليهم في سبيل سطوتهم وجاههم وبقائهم في السلطة [ما فعله ستالين بالذين أوصلوه إلى السلطة وكم عدد ضحاياه ، وما فعله خلفاؤه من بعده ـ من الذي اجتاح تشيكوسلوفاكيا وطحن الناس بالدبابات طحناً ... وما فعله الرفاق برفاقهم في كثير من الانقلابات العسكرية حتى في بقاع من عالمنا الإسلامي لا يخفى على أحد ، ولا ينكره منصف ...] .

صحيح أن عثمان رضي الله عنه رفض أن يعتزل الأمر ، وأن يتنازل عن الخلافة استجابة لطلب المنحرفين ، ولم يكن هذا الرفض حباً في المنصب ، ولا طلباً للجاه والسلطة ، إنما هو تنفيذ لتوجيه محمد ﷺ ؛ روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ادعي لي بعض أصحابي » قلت : أبو بكر ؟ قال : « لا » ، قلت : عمـــر ؟ قال : « لا » ، قلت : ابن عمك علي ؟ قال « لا » . قلت : عثمان ؟ قال : « نعم » .

فلما جاء عثمان ، قال : « تنحَيْ » فجعل يسارّه ، ولون عثمان يتغير ... قال أبو سهلة راوي الحديث عن عائشة رضي الله عنها : فلما كان يوم الدار ، وحُصر فيها ، قلنا : يا أمير المؤمنين ، ألا تقاتل ؟ قال : لا ، إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً وأنا صابر نفسي عليه ...

وكان قول رسول الله ﷺ له : « يا عثمان ، إذا ألبسك الله قميصاً وأرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه » . وقد وردت البشرى لعثمان رضي الله عنه بالجنة في حديث يرويه البخاري في صحيحه عن أبي موسى

الأشعري رضي الله عنه يوم استأذن عثمان على رسول الله ﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ائذن له ، وبشره بالجنة على بلوىٰ تصيبه » .

وعن توليته رضي الله عنه بعض أقربائه من بني أميَّة ، فقد ولّى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب على نجران ، ومات عليه الصلاة والسلام وأبو سفيان أمير عليها ، وكذلك ولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان قيادة واحد من جيوش الفتح ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي ولّى معاوية بن أبي سفيان على دمشق وجمع له بلاد الشام كلها ، وأقره عثمان رضي الله عنه في ولايته ... وكل من له أدنى معرفة بالتاريخ يعلم أنَّ علياً رضي الله عنه لمَّا أصبح أميراً للمؤمنين ولّى أقاربه من قبل أبيه وأمّه [عبيد الله بن عباس ، قثم بن عباس ، سهيل بن حنيف ، ثمامة بن عباس ، عبد الله بن عباس ، محمد بن أبي بكر ربيبه ...] روىٰ الطبري أنَّ علياً رضي الله عنه (لمَّا فرغ من وقعة الجمل ، واستعمل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على البصرة ، بلغ الأشترَ الخبرُ ، فغضب وقال : علىٰمَ قتلنا الشيخ إذن ؟ اليمن لعبيد الله ، والحجاز لقثم ، والبصرة لعبد الله ، والكوفة لعلي ... ثم دعا بدابته وركب راجعاً ...) والأشتر هذا ، قائد جيش علي رضي الله عنه ، ومن رؤوس الفتنة على عثمان رضي الله عنه ...

ولو تذكرنا الإنجازات الرائعة التي تحققت على أيدي ولاة عثمان رضي الله عنه الذين عابوا عليه توليتهم ، لعرفنا أنه رضي الله عنه كان ينظر إلى مصلحة جماعة المسلمين لا إلى القرابة والهوى كما يزعم الشانئون ... فعبد الله بن عامر مثلاً هو فاتح خراسان كلها وأطراف فارس ، وسجستان ، وكرمان حتى بلغ أعمال غُزنة وقضى على يزدجرد

آخر ملوك الدولة الفارسية : ولعلَّ هذا عيبه الذي استحق من أجله أن يحقد عليه المنحرفون وعلى عثمان رضي الله عنه الذي ولاه ..

الوليـــــد بن عقبـــة :

أما الوليد بن عقبة الذي ولاه عثمان رضي الله عنه الكوفة ، فكان أول من استعمله الصديق رضي الله عنه حيث كان موضع سره في الرسائل الحربية التي دارت بينه وبين خالد بن الوليد رضي الله عنه : ثم وجهه أبو بكر رضي الله عنه مدداً إلى عِياض بن غُنم ، وولاه صدقات قُضَاعة ، ثم ولاه قيادة فيلق من فيالق الجهاد في الشام : وعيَّنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أميراً على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة : ولما ولاه عثمان الكوفة كان من خير ولاتها عدلًا ، وكانت جيوشه مدة ولايته تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة ...

روى صاحب (التمهيد والبيـان في مقتل الشهيـد عثمان : ٥٠ وما بعدها) عن محمد وطلحة قالا : لما بلغ عثمانَ رضي الله عنه الذي كان بين عبد الله بن مسعود وسعد رضي الله عنهما من خلاف ، غضب عليهما وهمّ بهما ، ثم إنه ترك ذلك ، وعزل سعداً ، وأخذ ما عليه من المال ، وأقرّ عبد الله ، وتقدم إليه ، وأمَّر مكان سعدٍ الوليدَ بن عُقبة ، وكان على عرب الجزيرة عاملًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقدم الوليدُ في السنة الثانية من إمارة عثمان رضي الله عنه ، وقد كان سعد عمل عليها سنة وبعض أخرى ، فقدم الكوفة ، وكان أحبَّ الناس إلى الناس وأرفقهم بهم ، فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب ... ثم

إن شباباً من شباب أهل الكوفة نقبوا على رجل من خزاعة ـ الحيسمان الخزاعي ـ وكابروه ـ كاثروه ـ فنذِر بهم ، ـ استعدّ لهم ـ فخرج عليهم بالسيف ، فلما رأى كثرتهم استصرخ ، فقالوا له : اسكت ، فإنما هي ضربة حتى نريحك من روعة هذه الليلة ؛ وأبو شُرَيح الخزاعي مشرف عليهم ، فصاح بهم ، فضربوه فقتلوه . وأحاط الناس بهم ، فأخذوهم ، وفيهم زهير بن جُندُب الأزدي ، ومورِّع بن أبي مورع الأسدي ، وشُبيل بن أُبيٍّ الأزدي في عدة ، فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه ، فمنع بعضهم بعضاً من الناس ، فقتله بعضهم ، فكتب فيهم الوليد إلى عثمان رضي الله عنه ، فكتب إليه في قتلهم ، فقتلهم على باب القصر في الرحبة ، فقال في ذلك عاصم بن عمرو التميمي :

لا تأكلوا أبداً جيرانكم سرفاً — أهلَ الدَّعارة في مُلْكِ ابن عفان
إن ابن عفان الذي جرَّبْتُمُ — فَطَمَ اللصوصَ بمُحكم القرآن
ما زال يعملُ بالكتاب مهيمناً — في كُلِّ عُنْقٍ منْهُمُ وبَنَانِ

وعن عبد الله بن سعيد ، عن أبي سعيد قال : كان أبو شُريح الخزاعي من أصحاب رسول الله ﷺ ، فتحول من المدينة إلى الكوفة ليدنو من الغزو ، فبينا هو ليلة على سطح داره إذ استغاث جاره ، فأشرف ، فإذا شباب من أهل الكوفة قد بَيَّتُوا جاره ، وجعلوا يقولون : لا تَصِحْ ؛ فإنما هي ضربة حتى نريحك ، فقتلوه ، فارتحل إلى عثمان رضي الله عنه ، ورجع إلى المدينة ونقل أهله ... ولهذا الحدث ـ حين كثر ـ أُحدثت القسامة ، وَأُخِذَ بقول وَلِيِّ المقتول ليفطم الناس عن القتل .

وعن محمد بن كريب ، عن نافع بن جبير : قال عثمان رضي الله عنه :

القسامة على المدَّعى عليه وعلى أوليائه ، يحلف منهم خمسون رجلًا إذا لم تكن بينة ، وإن نقصت قسامَتُهم أو نكل رجل واحد ردّتْ قسامتهم ، ووليها المدعون وأُحلفوا ، فإن حلف منهم خمسون استحقوا .

وعن محمد وطلحة قالا : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد استعمل الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة ، فنزل في بني تغلب ، وكان أبو زبيد في الجاهلية والإسلام في بني تغلب حتى أسلم ، وكانت بنو تغلب أخواله ، فاضطهده أخواله دَيناً له ، فأخذ له الوليد بحقه ، فشكرها له أبو زبيد ، وانقطع إليه وغشيه بالمدينة ، فلما ولي الوليد الكوفة ، وذلك في سنة ثلاثين ، أتاه مسلماً ومعظماً على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة ، فنزل دار الضيفان ، وتلك آخر قدْمةٍ قَدِمَها أبو زبيد على الوليد ، وقد كان ينتجعه ويرجع ، وكان نصرانيًّا قبل ذلك . فلم يزل الوليد به حتى أسلم في آخر إمارةِ الوليد وحَسُنَ إسلامُهُ : فاستدخله الوليد ـ وكان عربياً شاعراً حين أقام على الإسلام ـ فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورِّع وجُندُباً ، وهم يحقدون للوليد منذ قتل أبناءهم ، ويضعون له العيون ، فقال لهم : هل لكم في الوليد يشارب أبا زبيد ، فثاروا في ذلك ، فقال أبو زينب وأبو مورِّع وجندب لأناس من أهل الكوفة : هذا أميركم وأبو زبيد خيرته ، عاكفان على الخمر ، فقاموا معهم ، ومنزلُ الوليد في الرحبة مع عُمارة بن عقبة ليس عليه باب ، فاقتحموا عليه من المسجد ، وبابه إلى المسجد ، فلم يفجأ الوليد إلا وهم في داره ، فنحَّى شيئاً فأدخله تحت السرير ، فأدخل أحدهم يده ، فأخرجه ـ لا يؤامره ـ فإذا طبقٌ عليه تفاريقُ عنب ، وإنما نحاه استحياء أن يُرى طبقُهُ ليس عليه إلا تفاريق عنب ، فقاموا فخرجوا على الناس ، فأقبل بعضهم على بعض

يتلاومون ، وسمع الناسُ بذلك ، فأقبلوا عليهم يسبّونهم ويلعنونهم ، ويقولون : أقوام غضب لعمله ، وبعضهم أرغمه الكتاب ، فدعاهم ذلك إلى التجسس والخبث ، فستر عنهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان رضي الله عنه ، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء ، وكره أن يفسد بينهم ، وسكت عن ذلك وصبر .

وعن عمرو ومجالد ، عن الشعبي أن الوليد كان يغزو في كل عام ثغر الكوفة الأيسر ، ويغزو حذيفة ثغرها الأيمن ، ينتهي هذا إلى الباب ، وهذا إلى الري ، غزا خمس غزوات .. وعن الفيض بن محمد قال : رأيت الشعبي جلس إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ، وهو خليفة محمد بن عبد الملك ، فذكر عنده غزو مسلمة ، فقال : كيف لو أدركتم الوليد وغزوه وإمارته ؟! إن كان ليغزو فينتهي إلى كذا وكذا ، ما نقض ولا انتقض عليه أحد حتى عزل عن عمله ، وعلى الباب يومئذٍ عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، وإن كان مما زاد عثمانُ بن عفان رضي الله عنه الناسَ على يديه أن ردَّ على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة في كل شهر ، يتسعون بها من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم .

وعن الغصن بن القاسم عن عمر بن عبد الله قال : جاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود رضي الله عنه ، فقالوا : الوليد يعكف على الخمر ، وأذاعوا ذلك ، حتى طرح على ألسن الناس ، فقال ابن مسعود رضي الله عنه : من استتر منا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك سيرته ، فأرسل إلى ابن مسعود فأتاه ، فعاتبه في ذلك ، وقال : يرضى مثلك بأن يجيب أقواماً موتورين بما أجبت عنّي ؟ أي شيء أستتر به ؟ إنما يقال هذا للملجلج ـ المريب ـ فتلاحيا وافترقا على تغاضبٍ ، ولم يكن بينهما أكثر من ذلك .

وعن محمد وطلحة قالا : وأُتي الوليد بساحر ، فأرسل إلى ابن مسعود رضي الله عنه يسأله عن حدّه ، فقال : وما يدريك أنه ساحر ؟ قال : زعم هؤلاء النفر الذين جاؤوا به أنه ساحر ، قال : وما يدريكم أنه ساحر ؟ قالوا : يزعم ذلك ، فقال : أساحر أنت ؟ قال : نعم . قال : أو تدري ما السحر ، قال : نعم ، وثار إلى حمار ، فجعل يركبه من قبل ذنبه وينزل من قبل رأسه ، ومن قبل رأسه فينزل من قبل ذنبه ، ويريهم أنه يخرج من فيه وإستِهِ ، فقال ابن مسعود : فاقتله ، فانطلق الوليد ، فنادوا في المسجد أن رجلاً يلعب بالسحر عند الوليد ، فأقبلوا وأقبل جندب واغتنمها يقول : أين هو ؟ أين هو ، حتى أريه ؟ فضربه ، وأجمع عبدُ الله والوليد على حبسه حتى كتب إلى عثمان رضي الله عنه ، أجابهم عثمان رضي الله عنه أن استحلفوه بالله ما علم برأيكم فيه ، وإنه لصادق بقوله فيما ظن من تعطيل حدِّه ، وعزِّروه ، وخلُّوا سبيلَه ، وتقدَّم إلى الناس في أن لا يعملوا بالظنون أو يقيموا الحدود دون السلطان ، فإنا نُقِيدُ المخطىء ونؤدب المصيب ، ففعل ذلك به ، وتُرِك لأنه أصاب حدًّا ، وغضب لجندب أصحابه ، وخرجوا إلى المدينة وفيهم : أبو حُشة الغفاري ، وجثّامة بن الصعب بن جثامة ، ومعهم جندب ، فاستعفوا من الوليد ، فقال لهم عثمان رضي الله عنه : تعملون بالظنون ، وتخطئون في الإسلام ، وتخرجون بغير إذن ؟ ارجعوا . فردهم إلى الكوفة ، فلم يبق موتور في نفسه إلا أتاهم ، فاجتمعوا على رأي فأصدروه ، فتغفلوا الوليد ، وكان ليس عليه حجاب ، فدخل عليه أبو زينب الأزدي وأبو مورع الأسدي ، فسلّا خاتمه ، ثم خرجا إلى عثمان ، فشهدا عليه ، ومعهما نفر ممن يُعرف من أعوانهم . فبعث إليه عثمان رضي الله عنه ، فلما قدم أمر به سعيد بن العاص فجلده ، فقال : يا أمير المؤمنين ،

أنشدك الله ، فوالله إنهما لخصمان موتوران ، فقال : لا يضرك ذلك ، إنما نعمل بما ينتهي إلينا ، فمن ظلم فالله وليُّ انتقامه ، ومن ظُلِمَ فالله وليُّ جزائه .

وعن أبي غسان عن عبد الرحمن بن حُبيش قال : اجتمع نفر من أهل الكوفة ، فعملوا في عزل الوليد ، فانتدب لـه أبو زينب بن عـوف وأبو مورع بن فلان الأسدي للشهادة عليه ، فغشوا الوليد ، وأكبوا عليه ، فبيناهم معه يوماً في البيت ، وله امرأتان في المخدع ، بينهما وبين القوم ستر ، إحداهما : بنت ذي الخمار ، والأخرى : بنت أبي عقيل . فنام الوليد ، وتفرق القوم عنه وثبت أبو زينب وأبو مورع ، فتناول أحدهما خاتمة ، ثم خرجا . فاستيقظ الوليد ، وامرأتاه عند رأسه ، فلم يجد خاتمه ، فسألهما عنه ، فلم يجد عندهما منه علماً ، فقال : فأي القوم تخلف عنهم ؟ قالتا : رجلان لا نعرفهما ما غشياك إلا منذ قريب ، قال : حلياهما ـ صفاهما ـ قالتا : على أحدهما خميصة ، وعلى الآخر مطرف ، وصاحب المطرف أبعدهما منك ، قال : الطوال ؟ قالتا : نعم ، وصاحب الخميصة أقربهما إليك ، قال : القصير ؟ قالتا : نعم ، وقد رأيناه يده على يدك ، قال : ذاك أبو زينب والآخر أبو مورع ، وقد أرادا هنة ، فليت شعري ما يريدان ؟ فطلبهما ، فلم يقدر عليهما ، وكان وجههما إلى المدينة ، فقدما على عثمان رضي الله عنه ومعهما نفر ممن يعرف عثمان رضي الله عنه ممن قد عزل الوليدُ عن الأعمال ، فقالوا له ، فقال : من يشهد منكم ؟ فقالوا : أبو زينب وأبو مورع ، وكاع الآخرون ـ هابوا وجبنوا ـ فقال : كيف رأيتماه ؟ قالا : كنا من غاشيته ، فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر ، فقال : ما يقيء الخمر إلا شاربها ، فبعث إليه ، فلما دخل على عثمان رضي الله عنه رآهما عنده ، فقال متمثلاً .

ما إنْ خَشيتُ على أمرٍ خَلَوت به   فلم أَخَفْك على أمثـالهـا حـارِ

فحلف له الوليد ، وأخبره ، فقال : نقيم الحدود ، ويبوء شاهد الزور بالنار ، فاصبر يا أخي .. فأمر سعيد بن العاص فجلده ، فأورث عداوة بين ولديهما حتى اليوم ، وكانت على الوليد يوم أمر به أن يجلد خميصة ، فنزعها عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وفي رواية أخرى - رواية سيف بن عمر - أن أبا زينب وأبا مورع لما قدما على عثمان رضي الله عنه فأخبراه الخبر على رؤوس الناس ، أرسل إلى الوليد ، فقدم ، فإذا هو بهما ، فدعا بهما عثمان رضي الله عنه ، فقال : بم تشهدان ، أتشهدان أنكما رأيتماه يشرب الخمر ؟ فقالا : لا ، وخافا ؛ قال : وكيف ؟ قالا : اعتصرناها من لحيته ، وهو يقيء الخمر ، فقال : لم يقئها إلا وقد شربها ، فأمر سعيد بن العاصي بجلده ، فأورث ذلك عداوة بين أهليهما ، هكذا ذكر صاحب الفتوح ..

والصحيح أن الذي جلده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، لأن علياً رضي الله عنه أمره بجلده ، فجلده أربعين ، وعلي رضي الله عنه يعد ، فقال علي : أمسك ، جلد رسول الله ﷺ وأبو بكر أربعين ، وجلد عمر ثمانين ، وكل سنة ، وهذا أحب إلي (رواه مسلم في صحيحه) فإن قيل : قد روى أحمد في مسنده بإسناده عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما من رجل أقمت عليه حدًّا فمات ، فأجد في نفسي عليه إلا صاحب الخمر ، فإنه لو مات وَدَيْتُهُ ، لأن رسول الله ﷺ لم يَسُنَّه ، أخرجاه (البخاري ومسلم) . وفي الحديث المتقدم أن علياً رضي الله عنه جلد أربعين ، وقال : جلد رسول الله ﷺ وأبو بكر أربعين ، وجلد عمر ثمانين ، وكل سنة ، فكيف الجمع بينهما ؟ فالجواب أن الضرب في الجملة سنة ،

والعدد مجتهد فيه . ذكره الحافظ ابن الجوزي في جامع المسانيد .

وعن عطية عن أبي العريف ويزيد الفقعسي قالا : كان الناس في الوليد فرقتين : العامة معه والخاصة عليه ، فما زال عليهم من ذلك خشوع حتى كانت صفين ، فولي معاوية ، فجعلوا يقولون : عيب عثمان بالباطل ، فقال لهم علي رضي الله عنه : إنكم وما تعيرون به عثمان كالطاعن نفسه ليقتل ردفه ، وما ذنب عثمان في رجل قد ضربه بقولكم ، وعزله ؟ وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا ؟

وعن أبي كبران عن مولاة لهم ، وأثنى عليها خيراً ، قالت : وقد كان الوليد أدخل على الناس خيراً ، حتى كان يقسم للولائد والعبيد ، ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك . كان يُسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن :

يا ويلتا .. قد عُزل الوليد وجاءنا مجوِّعاً سعيدُ
ينقص في الصاع ولا يزيد قد جُوِّع الإماء والعبيدُ

أبو ذرّ رضي الله عنه :

كان أبو ذرّ رضي الله عنه ينكر على من يقتني مالاً من الأغنياء ، ويمنع أن يدخر فوق القوت ، ويوجب أن يتصدق بالفضل ، ويتأول قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة : ٣٤) .

وكان معاوية بن أبي سفيان والي دمشق قد نهاه عن إشاعة ذلك فلم يمتنع ، فبعث إلى أمير المؤمنين عثمان يشكوه ، خاصة وأن أبا ذرّ رضي الله عنه كان بين أناس كلهم دونه فقهاً وورعاً وزهادة ، وبين آخرين

مستغلين يريدون أن يستحكم الخلاف بين المسلمين ويتصدع صفهم الداخلي ؛ الأمر الذي يسهل القضاء عليهم ؛ « وبهذا يتجهون جميعاً إلى معاوية يطالبونه أن ينفق كل ما لديه من مال المسلمين ، وفي ذلك هلاك الأمة وضياع الثغور » فكتب إلى عثمان أنَّ أبا ذرّ قد ضيَّق عليه ، فكتب عثمان إلى أبي ذرّ رضي الله عنه أن يقدم عليه المدينة ، وإلى معاوية يقول له : « إنَّ الفتنة قد أخرجت خِطْمها وعينها ، ولم يبق إلَّا أن تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذرّ وابعث معه دليلًا ، وزوده وارفق به ، وكَفكِفِ الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت » [الطبري : ٣/ ٣٣٦] .

وقدم أبو ذرّ المدينة المنورة ، ولامه عثمان على بعض ما صدر منه ، واسترجعه فلم يرجع ، وسأل أبو ذرّ عثمان رضي الله عنهما أن يأذن له أن يقيم بالربذة ، [وهي شرقي المدينة ، على ثلاثة أميال منها ، قريبة من ذات عِرْق على طريق الحجاز ، كانت عامرة ، كثيرة الشجر والماء ، خربت سنة تسع عشرة وثلاثمائة على يد القرامطة ـ كما يذكر ياقوت ـ وليست ذلك المكان المنقطع في عرض الصحراء] وقال : إن رسول الله ﷺ قال لي : « إذا بلغ البناء سلعاً فاخرج منها » وقد بلغ البناء سلعاً ؛ فأذن له عثمان رضي الله عنه بالمقام بالربذة وأقطعه قطيعاً من الغنم ، وصدقة من الإبل ، وأمره أن يتعاهد المدينة في بعض الأحيان حتى لا يرتد أعرابياً بعد هجرته ، ففعل ، ولم يزل مقيماً بها حتى مات فيها ودفن سنة اثنتين وثلاثين الهجرية ، وقد أرسل عثمان رضي الله عنه إلى أهله ـ امرأته وأولاده ـ فضمهم مع أهله . [البداية والنهاية : ٧/ ١٥٥ و ١٦٥] ، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : [قدمنا مكة ، وأخبرنا عثمان رضي

الله عنه خبر وفاة أبي ذرّ ، فقال : يرحم الله أبا ذرّ ، ويغفر له نزوله الربذة . ولما صدر ـ عثمان ـ خرج ، فأخذ طريق الربذة فضم عياله إلى عياله .] .

أخرج أحمد في مسنده عن رجل من المسلمين ، قال : كنَّا قد حملنا لأبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ شيئًا نريد أن نعطيه إيَّاه ، فأتينا الرَّبذة ، فسألنا عنه ، فلم نجده ؛ قيل : استأذن في الحج ، فأُذن له ، فأتيناه بالبلدة ، وهي منى ، فبينا نحن عنده إذ قيل له : إنَّ عثمان ـ رضي الله عنه ـ صلّى أربعًا ، فاشتد ذلك عليه ، وقال قولاً شديدًا ، وقال : صلّيت مع رسول الله ﷺ فصلّى ركعتين ، وصلّيت مع أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ركعتين ؛ ثم قام أبو ذرّ رضي الله عنه فصلّى أربعًا ؛ فقيل له : عِبْتَ على أمير المؤمنين شيئًا ثم تصنعه ؟! قال : الخلاف أشدّ ، إنَّ رسول الله ﷺ خطبنا ، فقال : « إنه كائن بعدي سلطان فلا تذلّوه ، فمن أراد أن يذلّه فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، وليس بمقبول منه توبة حتى يسدَّ ثلمته التي ثلم ، وليس بفاعل ، ثم يكون فيمن يعزّه » أمرنا رسول الله ﷺ ألَّا يغلبونا على ثلاث : أن نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، ونعلِّم النَّاس السنن ...

فلو كان أبو ذرّ قد نُفي إلى الرّبذة ، كما يفتري المفترون ، أيكون هذا موقفه ممن نفاه ؟!

إنَّ هذا الكاتب وأمثاله يصورون عثمان رضي الله عنه كما لو كان إقطاعياً رأسمالياً يملك الكثير من العقارات والأموال بما يفوق الحصر ، وأن العلاقة بينه وبين أبى ذر كانت علاقة قهر واستبداد وطغيان انتهت

بنفيه في أعماق الصحراء ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَة تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاههمْ إن يَقُولُونَ إلَّا كَذِباً ﴾ ؛ فعثمان رضي الله عنه هو الذي ألقى على مسامع المسلمين بعد توليه الخلافة ، وعلى وجهه يرتسم ثقل المسؤولية والخوف من الله تعالى خطبة حدد فيها ملامح سياسته ، جاء فيها : [... إنكم في بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، ألا و إنَّ الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرَّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرَّنكم بالله الغرور ، ارموا الدنيا حيث رمى الله بها ...] وهو الذي قسم أمواله بين أقربائه جميعاً ، وجعل أولاده منهم ، وفي المحاسبة العلنية أمام مسلمي المدينة المنورة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه أعلن - وهو في أخريات أيامه - أنه لا يملك غير راحلتين ، وأقروه على ذلك . وهو الذي كان يُرىٰ دائماً في المسجد النبوي ، يقوم وآثار الحصىٰ على جنبه ، فيتساءل الناس : هذا عثمان بن عفان ؟ هذا أمير المؤمنين ؟

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول : [كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ويأكل الخل والزيت] ، ويقول شاهد عيان : رأيت عثمان رضي الله عنه يخطب في المدينة وعليه قميص مرقوع ثمنه أربعة دراهم ...

روى صاحب الطبقات (٣/ ٨١) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، أمين سر رسول الله ﷺ قوله عندما قتل عثمان رضي الله عنه : [فتق في الإسلام فتق لا يرتقه جبل] وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول حين قتل عثمان : [والله ما قتلت ، ولا أمرت ، ولكن غُلبت ... ثلاث مرات] وعن ابن أبي ليلى قال : رأيت علياً رضي الله عنه عند أحجار الزيت رافعاً ضَبعيه يقول : [اللهم إني أبرأ إليك من أمر

عثمان] وعن حماد بن زيد عن أيوب عن مطّرف أنه دخل على عمار بن ياسر رضي الله عنه ، فقال له : إنا كنا ضلّالاً فهدانا الله ، وكنا أعراباً فهاجرنا ، يقيم مقيمنا يتعلم القرآن . ويغزو الغازي ، فإذا قدم الغازي أقام يتعلم القرآن ، وغزا المقيم ، ننظر ما تأمروننا به ، فإذا أمرتمونا بأمر اتبعناه ، واذا نهيتمونا عن شيء انتهينا عنه ... جاءنا كتابكم بقتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وأنّا بايعنا عثمان رضي الله عنه ، ورضينا لأنفسنا ما رضيتموه لأنفسكم ، فبايعنا لبيعتكم ، فَلِمَ قتلتموه ؟ .

قال أيوب : فلم نجد عند ذلك جواباً ...

لذلك كان يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : [لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء] ورثاه حسان بن ثابت رضي الله عنه ، فكان مما قاله :

وكأن أصحاب النبي عشية
بُدُنٌ تُنْحَرُ عند باب المسجد
أبكي أبا عمرو لحسنِ بلائه
أمسى رهيناً في بقيع الفرقد .



الفصل الثاني

أبو هريرة رضي الله عنه حبيب المؤمنين

نشأت يتيماً ، وهاجرت مسكيناً ، وكنت أجيراً لبَرَّة بنت غزوان بطعام بطني وَعُقْبة رحلي (العقبة: النوبة) فكنت أخدمهم إذا نزلوا، وأحدو لهم إذا ركبوا، فزوّجنيها الله عز وجل، فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وجعل أبا هريرة إماماً... [من خطبة له وهو أمير، صفة الصفوة: ١/٦٨٦].

إسلامه ...

أبو هريرة ، عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني ، أسلم في اليمن على يد « الطفيل بن عمرو الدوسي » رضي الله عنه ، وهاجر منها إلى المدينة المنورة سنة سبع للهجرة ورسول الله ﷺ بخيبر ، فقدمها وصلى الصبح وراء سباع بن عرفطة رضي الله عنه : الذي كان قد استخلفه الرسول ﷺ على المدينة أثناء غزوة خيبر ، وقد ثبت في الصحيح أنه ضل غلامه في الطريق في الليلة التي اجتمع في صبيحتها بالنبي ﷺ وأنه جعل ينشد :

يـاليلـــةً من طولهـا وعنائهـا   على أنها من دارة الكفر نَجَّتِ

فلما قدم الرسول ﷺ إذ طلع الغلام ، فقال له : يا أبا هريرة هذا غلامك . فقال : هو حرٌ لوجه الله تعالى ، وأعتقه ...[صفة الصفوة: ١/٦٨٦].

لازم أبو هريرة رضي الله عنه النبي ﷺ فلم يفارقه في حضر ولا سفر ، وقصر نفسه على خدمته وتلقي العلم عنه على شبع بطنه ، جعله رسول

الله ﷺ عريف أهل الصُّفة ؛ صبر على الفقر الشديد حتى إنه كان يلصق بطنه بالحصى من شدة الجوع ؛ (فعن مجاهد أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول : والله إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ... صفة الصفوة : ١/ ٦٨٩) ، (وعن ابن سيرين أن أبا هريرة ، كان يقول : لقد رأيتني أصرع ما بين منبر رسول الله ﷺ وبين حجرة عائشة رضي الله عنها ؛ ما بي إلا الجوع) ويطوي نهاره من غير أن يجد ما يقيم صلبه ، قال سعيد بن المسيب :

(رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق ، ثم يأتي أهله ، فيقول : هل عندكم من شيء ؟ فإن قالوا : لا ؛ قال : إني صائم) (حلية الأولياء : ١ / ٣٨) إلا أنه مع هذا الفقر الشديد كان عفيف النفس لا يسأل الناس، فعن أبي رافع أن أبا هريرة رضي الله عنه، قال: (ما أحد من الناس يهدي لي هدية إلا قبلتها، فأما أن أسأل فلم أكن أسأل) جواداً يحب الخير ويكرم ضيوفه، قال الطفاوي: (نزلت على أبي هريرة في المدينة المنورة ستة أشهر، فلمْ أرَ من أصحاب رسول الله ﷺ أشد تشميراً ولا أقوم على ضيف منه) (البداية والنهاية: ٨/١٠٨).

طَلَبُـــــــهُ للعلـــــــم ...

قال له رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري :

[ألا تسألني من هذه الغنائم التي سألني أصحابك ؟ فقال : أسألك أن تعلمني مما علمك الله ، قال : فنزع نَمِرَةً (شملة فيها خطوط بيض وسود) على ظهري ، فبسطها بيني وبينه حتى كأني إلى القمل يدب عليها ، فحدثني حتى إذا استوعبت حديثه ، قال : « اجمعها إليك فَصُرْها »

فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدثني] (فتح الباري : ١/ ٢٢٥) .

وجاء رجل إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه فسأله عن شيء ، فقال له زيد :

عليك بأبي هريرة ، فإني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله عز وجل ونذكره ، إذ خرج علينا النبي ﷺ حتى إذا جلس إلينا فسكتنا ، فقال : « عودوا إلى الذي كنتم فيه » قال زيد :

فدعوت أنا وصاحبي قبل أبي هريرة ، وجعل رسول الله ﷺ يُؤَمِّنُ على دعائنا ـ يقول : آمين ـ ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إني أسألك ما سألك صاحباي ، وأسألك علماً لا ينسى : فقال ﷺ آمين فقلنا : يارسول الله ، ونحن نسأل الله علماً لا ينسى ، فقال « سبقكم بها الغلام الدوسي » (فتح الباري : ١/ ٢٢٦) . روىٰ عن رسول الله ﷺ (٥٣٧٤) حديثاً ، نقلها عنه أكثر من ثمانمائة رجل بين صحابي وتابعي ، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له ... (غريب الحديث لابن سلام : ٤/ ١٧٩) .

أراد مروان بن الحكم يوماً أن يبلو مقدرته على الحفظ، فدعاه وأجلسه معه، وطلب منه أن يحدثه عن رسول الله ﷺ بينما أَجْلَسَ كاتبَهُ وراء حجاب، وأمره أن يكتب كل ما يقوله أبو هريرة. وبعد عام دعاه مروان مرة أخرى، وأخذ يستقرئه الأحاديث نفسها، فما نسي رضي الله عنه كلمة منها.

روىٰ عنه من الصحابة خلق كثير ، منهم : عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وزيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وابن عباس وعائشة وجابر وعبد الله ابن عمر وأُبيٌّ بن كعب وأبو موسى الأشعري رضوان الله تعالى عليهم (المستدرك : ٣ / ١٥٣ ، والبداية والنهاية : ٨ / ١٠٨) وهذا اجماع منهم على صدقه وأمانته .

ورعـــــه وتقــــواه ...

كان أبو هريرة رضي الله عنه من الصدق والحفظ والأمانة والديانة والعبادة والزهادة والعمل الصالح على جانب عظيم ، قال أبو عثمان النهدي رحمه الله :

(كان أبو هريرة يقوم ثلث الليل ، وامرأته ثلثه ، وابنته ثلثه ، يقوم هذا ، ثم يوقظ هذا ، ثم يوقظ هذا هذا) وفي رواية أخرى قال :

(تضيفت أبا هريرة سبعاً ، فكان هو وامرأته وخادمه يتعاقبون الليل أثلاثاً ـ يتناوبون ـ يصلي هذا ثم يوقظ هذا ، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا) (صفة الصفوة : ١/ ٦٩٢ البداية والنهاية : ٨/ ١٠٩) .

وكان أبو هريرة يقول : إني أُجزِّىء الليل ثلاثة أجزاء : فجزءاً لقراءة القرآن ، وجزءاً أنام فيه ، وجزءاً أتذكر فيه حديث رسول الله ﷺ .

وكان يقول :
أوصاني خليلي بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام ، وكان يسبح في كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة ويقول : أسبح بقدر ذنبي .

كانت له زنجية فرفع عليها السوط يوماً وقال : لولا القصاص لأغشيتك به ، ولكني سأبيعك ممن يوفيني ثمنك ، اذهبي فأنت لله عز وجل . (صفوة الصفوة : ١/ ٦٩١ ـ ٦٩٢) .

قالت له ابنته يوماً : يا أبت ، إن البنات يُعَيِّرْنَنِي ، يقلن : لِمَ لا يحلِّيك أبوك بالذهب ؟ فقال : يا بنية ، قولي لهن : إن أبي يخشى عليَّ حرَّ اللهب ... وكان رضي الله عنه يقول لابنته . لاتلبسي الذهب ، فإني أخشى عليك حر اللهب .

كان يحذر الناس من الانغماس في ملذات الدنيا وشهواتها (إن هذه الكناسة - الشهوات وما يأكلونه - مهلكة دنياكم وآخرتكم) ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، لا يفرق في ذلك بين أمير وحقير ، أو بين غني وفقير ، لما أرسله النبي ﷺ مع العلاء بن الحضرمي والي البحرين من قِبَلِهِ ﷺ ووصاه به ، لينشر الإسلام ، ويفقه المسلمين ويعلمهم أمور دينهم ، فحدث الناس عن رسول الله ﷺ وأفتاهم ، جعله العلاء مؤذناً بين يديه ، فقال له أبو هريرة : لا تسبقني بآمين أيها الأمير ...

عن ميمون بن ميسرة ، قال : كان لأبي هريرة صيحتان في كل يوم ، أول النهار صيحة يقول : ذهب الليل وجاء النهار وعُرِض آلُ فرعون على النار ، وإذا كان العشي يقول : ذهب النهار وجاء الليل وعرض آل فرعون على النار . فلا يسمع أحد صوته إلا استعاذ بالله من النار ... وكان رضي الله عنه يقول : لا تغبطن فاجراً بنعمة ، فإن وراءه طالباً حثيثاً طلبه ، جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ... وروي أنه كان يتعوذ في سجوده أن يزني أو يسرق أو يكفر أو يعمل كبيرة ؛ فقيل له : أتخاف ذلك ؟ فقال : ما يؤمنني : وإبليس حي ، ومصرِّف القلوب يصرِّفها كيف يشاء ؟

وعن ثعلبة بن أبي مالك أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب ، وهو يومئذ خليفة لمروان أمير المدينة ، فقال : أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك ، فقلت : أصلحك الله ، يكفي هذا . فقال : أوسع الطريق للأمير ، والحزمة عليه ... (صفوة الصفوة : ١/ ٦٩٣) .

أجـــاب الله دعوتك ...

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن أمي كانت مشركة ، وإني كنت أدعوها إلى الإسلام ، وكانت تأبى عليَّ ، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ

وأنا أبكي ، فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فكانت تأبى علي ، وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله عزوجل أن يهدي أم أبي هريرة . فقال رسول الله ﷺ .

« اللهم اهد أمَّ أبي هريرة » فخرجت أعدو لأبشرها بدعاء رسول الله ﷺ ، فلما أتيت الباب إذا هو مُجافىً ، وسمعت خضخضة الماء ، وسمعت خشخشة رِجْل ، فقالت : يا أبا هريرة ، كما أنت . ثم فتحت الباب وقد لبست درعها وعجلت عن خمارها ، فقالت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ؛ فرجعت إلى رسول الله ﷺ أبكي من الفرح كما بكيت من الحزن ، فقلت : يارسول الله ، أبشر فقد استجاب الله دعاءك ، وقد هدىٰ أمَّ أبي هريرة . وقلت : يا رسول الله . ادع الله لي أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا ، فقال :

« اللهم حبب عُبَيْدَك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحببهم إليهما » فما خلق الله مؤمناً يسمع بي ولا يراني أو يرىٰ أمي إلا وهو يحبني ...

أبو هريرة وعمر رضي الله عنهما :

من الأمور التي حاول ويحاول بعضهم إثارتها ، منع عمر لأبي هريرة رضي الله عنهما من الحديث ، لاتخاذ ذلك ذريعة لاتّهامه في صدقه والتشكيك فيما يرويه عن النبي ﷺ ...

الثابت عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول : « اشتغلوا بالقرآن ، فإن القرآن كلام الله » ولهذا لما بعث أبا موسى الأشعري إلى العراق ، قال له : « إنك تأتي قوماً لهم في مساجدهم دَوِيّ بالقرآن كدوي النحل ، فدعهم على ما هم عليه ولا تشغلهم بالأحاديث وأنا شريكك في هذا » ويعلق ابن

كثير رحمه الله قائلاً: هذا معروف عن عمر رضي الله عنه... فقد كان يرىٰ رضي الله عنه أن على المسلمين في تلك الفترة ألا يقرؤوا، أو يحفظوا سوى آيات الله عز وجل حتى تثبت في أفئدتهم؛ لذا كان يقول: «أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلا فيما يعمل به».

قال أبو هريرة : بلغ عمر حديثي ، فأرسل إليَّ فقال : كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ في بيت فلان ؟ قلت : نعم وقد علمت لِمَ تسألني عن ذلك ، قال عمر : ولِمَ سألتك ؟ قلت : إن رسول الله ﷺ قال يومئذ : « من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » قال عمر : أما إذن فاذهب فحدث ...

وجاء هذا الإذن لأبي هريرة رضي الله عنه في الحديث عن رسول الله ﷺ بعد أن منع عمر كثيراً من الصحابة من رواية الحديث بسبب خشيته « من الأحاديث التي قد يضعها الناس على غير مواضعها ، وأنهم يتكلمون على ما فيها من أحاديث الرخص ، وأن الرجل إذا أكثر من الحديث ربما وقع في أحاديثه بعض الغلط أو الخطأ فيحملها الناس عنه ، أو نحو ذلك ... » كما قال ابن كثير رحمه الله ... (البداية والنهاية : ٨ / ١٠٦ ـ ١٠٧)

ولم يكن المنع من رواية الحديث لاتهامهم بصدقهم ، معاذ الله ، إن هذا تقوّل وظن سيّىء بأصحاب رسول الله ﷺ لا يقدم عليه محب لهم ... وإلا فكيف يوليّ عمر أبا هريرة على البحرين مثلاً وهو يتهمه في صدقه ؟! وهل كان عمر يولي غير القوي الأمين ؟ وكيف ائتمنه من قَبْلُ رسول الله ﷺ فبعثه إلى البحرين مع العلاء بن الحضرمي معلماً ومحدثاً ؟!

روىٰ عبد الرزاق في مصنفه أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين ، فقدم بعشرة آلاف ، فقال له عمر ـ وكان من عادته محاسبة عماله ومقاسمتهم ـ :

استأثرت بهذه الأموال أيْ عدو الله وعدو كتابه ؟ فقال أبو هريرة : لست بعدو الله ولا عدو كتابه ؛ ولكن عدو من عاداهما . فقال عمر : فمن أين لك هذا ؟ قال : خيل نُتِجت ، وغلة رقيق لي ، وأعطيات تتابعت ، فنظروا ، فوجدوه كما قال ... وفي رواية : لما صارت الخلافة إلى عمر رضي الله عنه استعمله على البحرين ، ثم رآه لين العريكة مشغولاً بالعبادة ، فعزله (غريب الحديث : ٤/ ١٧٩ هامش) .

لقد قاسمه عمر رضي الله عنه مع جملة من قاسمهم من العمال والولاة : وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : اللهم اغفر لأمير المؤمنين . (الطبقات : ٤ / ٦٠)

فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ليستعمله ، فأبى أن يعمل له ، فقال له : تكره العمل وقد طلبه من كان خيراً منك ، طلبه يوسف عليه السلام ؟ فقال : إن يوسف نبي ابن نبي ، وأنا أبو هريرة ابن أميمة ، وأخشى ثلاثاً أو اثنتين . قال عمر : فهلّا قلت خمساً ؟ قال : أخشى أن أقول بغير علم ، وأقضي بغير حلم ، وأن يضرب ظهري ، وينزع مالي ، ويشتم عرضي ... (سير أعلام النبلاء : ٢/ ٤٤١) فكيف إذن يعرض عليه عمر الولاية مرة أخرى بعد أن اتهمه في صدقه ؟!

وجاء في الصحيحين قول أبي هريرة رضي الله عنه : ويم الله لولا آية من كتاب الله ما حدثتكم بشيء أبداً ﴿ إن الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٩) لكن الله الموعد (فتح الباري : ١/ ١٤٤)

وهو الذي كان يقول : من كتم علماً ينتفع به ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ...

اعتزالــــه الفتـــن ...

كان أبو هريرة رضي الله عنه ممن نصر عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الدار ، كما نصره علي وطلحة والزبير والحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن الزبير وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ وبعد استشهاد الخليفة وقتله على أيدي الغوغاء والسبئيين ، اعتزل أبو هريرة الفتن التي حدثت بعد ذلك ، لم يشارك في « الجمل » ولا في « صفين » ، وأبىٰ أن يخوض غمارها مع عدد غيره من كبار الصحابة ، كسعد بن أبي وقاص ، ضناً منهم بأن يشاركوا في سفك دماء المسلمين ، واجتهاداً منهم أن الحياد بين الفريقين أرضى لله وأبرأ للذمة ، هذا رغم كونه رضي الله عنه محباً لآل البيت ، روىٰ في فضائل الحسن والحسين أكثر من حديث ... بل إنه كان يدعو الناس إلى اعتزالها أيضاً وهو يروي قول رسول الله ﷺ :

« ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، ومن يُشْرِف لها تَسْتَشْرِفْه ، ومن وجد ملجأً أو مَعَاذاً فَلْيَعُذْ بِهِ » (فتح الباري : ٧/ ٤٢٦) .

مع مــــروان بن الحــكم :

وقف في وجه مروان ، أمير المدينة المنورة ، عندما توفي الحسن بن علي رضي الله عنهما وأراد الناس أن يدفنوه مع جده المصطفى ﷺ ، وتدخل مروان ليمنع ذلك ، فقال له أبو هريرة رضي الله عنه :

والله ما أنت بوالٍ ، وإن الوالي لَغَيْرُكَ فدعه ، ولكنك تدخل فيما لا يعنيك ، وإنما تريد بهذا إرضاء من هو غائب عنك ، يعني الخليفة ،

فأقبل عليه مروان مغضباً ، فقال : يا أبا هريرة ، إن الناس قد قالوا إنك أكثرت على رسول الله الحديث ، وإنما قدمت قبل وفاته بيسير ؛ فقال أبو هريرة : نعم ، قدمت ورسول الله ﷺ بخيبر سنة سبع ، وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين ، وأقمت معه حتى توفي ، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه ، وأنا والله يومئذ مُقِلٌّ ، وأصلي خلفه ، وأحج وأغزو معه ، فكنت والله أعلم الناس بحديثه ، قد والله سبقني قوم بصحبته والهجرة إليه من قريش والأنصار ، وكانوا يعرفون لزومي له فيسألونني عن حديثه ، منهم : عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، فلا والله ما يخفى عليّ كل حديث كان بالمدينة ، وكل من أحب الله ورسوله ، وكل من كانت له عند رسول الله ﷺ منزلة ، وكل صاحب له ، وكان أبو بكر صاحبه في الغار ، وغيره قد أخرجه رسول الله ﷺ أن يساكنه ـ يعرض بأبي مروان ـ ثم قال :

ليسألني أبو عبد الملك عن هذا وأشباهه فإنه يجد عندي منه علماً جماً ومقالاً ... قال الوليد بن رباح : فوالله ما زال مروان يقصر عن أبي هريرة ويتقيه بعد ذلك ويخافه ويخاف جوابه ...

وفي رواية أن أبا هريرة قال : إني أسلمت وهاجرت اختياراً وطوعاً ، وأحببت رسول الله ﷺ حباً شديداً ، وأنتم أهل الدار وموضوع الدعوة أخرجتم الداعي من أرضه وآذيتموه وأصحابه ، وتأخر إسلامكم عن إسلامي إلى الوقت المكروه إليكم ... فندم مروان على كلامه واتقاه ..

الإكثـــــار من الحــديث ..

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن الأعرج ، قال : قال أبو

هريرة : إنكم تقولون : ما بال المهاجرين لا يحدثون عن رسول الله ﷺ بهذه الأحاديث ، وما بال الأنصار لا يحدثون بهذه الأحاديث ؟ وإن أصحابي من المهاجرين كانت تَشغلهم صفقاتهم في الأسواق (التجارة) ، وإن أصحابي من الأنصار كانت تَشغلهم أرضوهم والقيام عليها (الزراعة) ، وإني كنت امرءاً معتكفاً ، وكنت أُكثر مُجالسة رسول الله ﷺ ، أحضر إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ... وفي رواية أخرى : يقولون : إن أبا هريرة قد أكثر ، والله الموعد ، ويقولون : ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه ؟ وسأخبركم عن ذلك ، إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أراضيهم ، وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكنتُ ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني (أي : ألازمه وأقتنع بقوتي ، ولا أجمع مالاً لذخيرة وغيرها ، والمراد من حيث حصول القوت من الوجوه المباحة ، وليس هو من الخدمة بالأجرة كما بين ذلك النووي رحمه الله) .

وفي رواية ثالثة : كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطني ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق في الأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ... وكان يقول رضي الله عنه : ويم الله لولا آية في كتاب الله ما حدَّثتكم بشيء أبداً ، ثم يتلو : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أولئِكَ يَلْعَنهُمُ اللَّهُ ويَلعَنهُمُ اللَّاعِنونَ ﴾ (البقرة : ١٥٩) (فتح الباري : ١/ ٢٤٤) .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو بن العاص، فإنه كان يكتب ولا أكتب.

شهـــادة الصحابـــة ...

وقد شهد له إخوانه من أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة سماعه وأخذه عن الرسول ﷺ ؛ من ذلك مثلاً :

جاء رجل إلى طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، فقال : يا أبا محمد ، أرأيت هذا اليماني ؟ أهو أعلم بحديث رسول الله ﷺ منكم ؛ نسمع منه أشياء لا نسمعها منكم ؛ أم هو يقول عن رسول الله ﷺ ما لم يقل ؟!

قال طلحة رضي الله عنه : أما أن يكون سمع ما لم نسمع فلا أشك ، سأحدثك عن ذلك ، إنا كنا أهل بيوتات وغنم وعمل ، كنا نأتي رسول الله ﷺ طرفي النهار ، وكان مسكيناً ضيفاً على باب رسول الله ﷺ ، يده مع يده ، فلا شك أنه سمع ما لم نسمع ، ولا تجد أحداً فيه خير يقول عن رسول الله ﷺ ما لم يقل . (فتح الباري : ١/ ٢٥٥) .

أما أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، فيقول : إن أبا هريرة قد سمع ما لم نسمع ، وإني أَنْ أحدث عنه أحب إلي من أن أحدث عن رسول الله ﷺ ما لم أسمعه منه . (البداية والنهاية : ٨ / ١٠٧)

وكان كبار الصحابة ، كعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت رضي الله عنهما يحيلون السائلين عليه قائلين : أفته يا أبا هريرة ، قد جاءتك معضلة ...

أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فكان يقول :

أنت أعلمنا يا أبا هريرة برسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه ... (فتح الباري : ١/ ٢٢٥) . ويقول : أبو هريرة خير مني وأعلم بما يحدث ... (الإصابة : ٧ / ٢٠٤)

من شهـــادات علمـــاء الأمـــة :

قال الشافعي رحمه الله : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره

وقال سعيد بن أبي الحسن رحمه الله (أخو الحسن البصري) :

لم يكن أحد من الصحابة أكثر حديثاً من أبي هريرة ...

أما البخاري رحمه الله فكان يقول :

روى عنه نحو الثمانمائة من أهل العلم ، وكان أحفظ من روى الحديث في عصره ...

وقال الحاكم : كان من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ ، وألزمهم له ؛ ولذلك كثر حديثه ...

وقال الإمام أحمد بن حنبل : ستة من أصحاب النبي ﷺ أكثروا الرواية عنه ، وعمروا : أبو هريرة ، وابن عمر ، وعائشة ، وجابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وأنس . وأبو هريرة أكثرهم حديثاً ، وحمل عنه الثقات ... (علوم الحديث : ٢٦٥)

وقال أبو نعيم : وكان أحفظ الصحابة لأخبار رسول الله ﷺ ...

وقال ابن حجر :

أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثاً ، وكان أحفظ الناس للأحاديث النبوية في عصره ... (تهذيب التهذيب : ١٢/ ٢٦٦) وذكر في (فتح الباري : ١/ ٢٠٣) أن أبا هريرة سأل النبي ﷺ :

من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« لقد ظننت يا أبا هريرة ألَّا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك ، لِمَا رأيت من حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من

قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ولسانه » .

وقد أخرج له بقي بن مخلد في مسنده خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثاً ؛ ومسند بقي هذا من أهم مصادر الحديث ، حيث رتب حديث كل صحابي على أبواب الفقه ، فهو مسند مصنف ، وليست هذه الرتبة لأحد قبله (نفح الطيب : ١ / ٥٨١) .

وقال الإمام الذهبي : أبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمع من الرسول ﷺ وأدائه بحروفه ... كان وثيق الحفظ ، ما علمنا أنه أخطأ في حديث ... (سير أعلام النبلاء : ٢/ ٤٤٦) .

وقال ابن كثير : وقد كان أبو هريرة من الصدق والحفظ والديانة والزهادة والعمل الصالح على جانب عظيم ... (البداية والنهاية : ٨ / ١١٠) .

مرضه ووفاته ...

روى غير واحد ، وأخرج البغوي أن أبا هريرة رضي الله عنه بكى في مرض موته ، فقيل له : ما يبكيك يا أبا هريرة ؟ فقال : أما إنه ما أبكي على دنياكم هذه ، ولكني أبكي على بُعد سفري وقلة زادي ، وأني أصبحت في صعود مُهبط على جنة ونار ، ولا أدري أيهما يؤخذ بي إليه ...

وعن ابن شوذب قال : لما حضرت الوفاة أبا هريرة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : المفازة وقلة الزاد وعقبة كؤود ، المهبِطُ منها إلى الجنة أو النار ... (صفوة الصفوة : ١/ ٦٩٤) .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي سلمة ، قال : دخلت على أبي هريرة ، وهو شديد الوجع ، فاحتضنته فقلت : اللهم اشف أبا هريرة . فقال :

اللهم لا ترجعها ، وقال : يوشك يا أبا سلمة أن يأتي على الناس زمان يكون الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر ، ويوشك يا أبا سلمة إن بقيت إلى قريب أن يأتي الرجلُ القبر ، فيقول : يا ليتني مكانه ، أو مكانك ...

وأخرج ابن كثير أن مروان دخل عليه في مرضه الذي مات فيه يعوده ، فقال : شفاك الله يا أبا هريرة ، فقال أبو هريرة : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي ... فما بلغ مروان أصحاب القطا حتى مات أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان ذلك في سنة تسع وخمسين للهجرة على أرجح الأقوال ، وحضر جنازته عبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم ، وكان ابن عمر يسير أمامها ويكثر الترحم عليه ، ويقول : كان ممن يحفظ حديث رسول الله ﷺ على المسلمين ... وصلى عليه الوليد بن عتبة أمير المدينة ، ودفن في البقيع رضي الله عنه وأرضاه ...

هذا هو أبو هريرة رضي الله عنه الذي افترى « الشرقاوي » عليه وعلي عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عندما زعم [أن عمر ضرب أبا هريرة ، واتهمه في صدقه ، ومنعه من رواية الحديث ، وأبدى عجبه كيف يروي أبو هريرة عن الرسول ﷺ أضعاف ماروى عنه أبو بكر وعمر نفسه وعلي ، وما كان أحد ألصق برسول الله ولا أكثر صحبة له من هؤلاء الثلاثة] !!



الفصل الثالث

الصِّدِّيقة : المبرأة من السماء

كان مسروق بن الأجدع الهمداني ، التابعي الجليل ، إذا حدَّث عن عائشة رضي الله عنها ، قال :

حدَّثتني الصديقة بنت الصديق ، حبيبة رسول الله ﷺ ، المبرأة من فوق سبع سماوات ...

وثبت في صحيح البخاري من حديث أبي عثمان النهدي ، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قال :

قلت : يا رسول الله ، أي الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، قلت : ومن الرجال ؟ قال : أبوها ...

وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلَّا مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

وقال الزركشي : لم ينكح النبي ﷺ امرأة أبواها مهاجران سوى عائشة ...

حياتها ...

عائشة بنت أبي بكر الصديق ، قرشية من بني تيم بن مرة ، أمها : أم رومان ، زينب أو دعد بنت عامر من بني فراس بن غنم ؛ ولدت في

السنة السادسة أو الخامسة من بدء بعثة الرسول ﷺ في بيت صدق وإسلام ، لذا كانت تقول : لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين .

وكانت ولادتها في فترة من أشد فترات اضطهاد قريش للمسلمين في مكة المكرمة ؛ خطبها رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة الكبرىٰ أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكانت أول مراحل خطبتها وحياً من السماء ، فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعائشة :

« أُرِيتُكِ في المنام ثلاث ليالٍ ، جاءني بك الملَك في سَرَقَةٍ من حرير ، فيقول : هذه امرأتك ، فأكشف عن وجهِك فإذا أنت هي ، فأقول : إن يك هذا من عند الله يمضه » وروىٰ الترمذي أن جبريل عليه السلام جاءه بصورتها في خرقة من حرير خضراء ، فقال : هذه زوجتك في الدنيا والآخرة .

وكان ذلك بمكة المكرمة ؛ ولم يبن بها عليه الصلاة والسلام إلا في المدينة المنورة في شهر شوال من السنة الثانية للهجرة بعد النصر المؤزر للمسلمين على المشركين في موقعة بدر الكبرىٰ ، وأسكنها في حجرة ملاصقة للمسجد النبوي ، وهي واحدة من حجرات بناها لنفسه عندما بنى المسجد بعد وصوله المدينة المنورة ، وهي التي دُفن فيها ﷺ وصاحباه الصديق والفاروق رضي الله عنهما ...

عاشت في بيت رسول الله ﷺ متحملة خشونة العيش فيه ، راضية غير متذمرة ، أخرج البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول له :

« ابن أختي ، إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلّة في شهرين ، وما أُوقدت في أبيات رسول الله نار » ولما سألها عروة : يا خالة ، ما كان يعيشكم ؟

قـــالت : « الأسودان : التمر والماء ؛ إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا ... » .

ولما خيَّرها النبي ﷺ في جملة من خَيَّر من نسائِه بعد نزول قوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب:٢٨ ـ ٢٩) قائلًا : « إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ألا تتعجلي حتى تستأمري أبويك » .

قـــالت : في أي هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

من خصائصها ...

كان من أهم ما اختصت به السيدة عائشة رضي الله عنها أن الله عز وجل غار لها لما تكلم فيها أهل الإفك ، فأنزل براءتها في عشر آيات تتلى على تعاقب الأزمان [الآيات من ١١ إلى ٢٠ من سورة النور] حتى قال عـروة :

« لو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك لكفاها ذلك فضلاً وعلو مجد ، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة » لذا أجمع العلماء على تكفير من قذفها بعد براءتها ...

وكانت أعلم نساء النبي ﷺ ، بل هي أعلم النساء على الإطلاق ، قال الزهري :

لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواجه ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل .

وقال عطاء :

كانت عائشة أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً في العامة .

وقال عروة :

ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا شعر من عائشة ، ولم ترو امرأة ولا رجل غير أبي هريرة عن رسول الله ﷺ من الأحاديث بقدر روايتها رضي الله عنها .

وقال أبو موسى الأشعري :

ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديثٌ قط ، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً .

وقال مسروق :

رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض .

وقد تفردت السيدة عائشة بمسائل عن الصحابة لم توجد إلا عندها ...

وما يلهج به بعضهم من أن رسول الله ﷺ قال :

« خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء » فإنه ليس له أصل ، ولا هو مثبت في شيء من أصول الإسلام ، وبعد أن يذكر ابن كثير رحمه الله هذا ، يقول :

وسألت عنه شيخنا أبا الحجاج المزي ، فقال : لا أصل له .

وروى الإمام أبو حنيفة في مسنده عن أم هانىء أخت علي بن أبي طالب مرفوعاً : « يا عائشة ، سيكون سوارك العلم والقرآن » .

ولما سمع عمار بن ياسر رضي الله عنه وهو على منبر الكوفة ومعه

الحسن بن علي رضي الله عنهما رجلاً ينال منها ، قال له : اسكت مقبوحاً منبوذاً ، والله إنها لزوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة .

كذلك لم يكن في النساء أعلم من تلميذاتها : عمرة بنت عبد الرحمن ، وحفصة بنت سيرين ، وعائشة بنت طلحة .

مات رسول الله ﷺ في يومها ، وفي بيتها ، وبين سَحْرِهَا وَنَحْرِهَا (وهو مستند إلى صدرها ، والسحر : الكبد ، وقيل : القلب) ودفن في بيتها .

لم تتخلف السيدة عائشة رضي الله عنها عن المشاركة في غزوات الرسول ﷺ ، فكانت كغيرها من النساء تقوم بإعداد الطعام ، وسقي الماء ، ومداواة الجرحى ... أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال :

« ... ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر ، وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خَدَمَ (جمع خَدَمة وهو الخلخال) سوقهما ، تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواههم ، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم » وكان ذلك في غزوة أُحد ؛ وهي التي كانت تحث الرجال على الجهاد في سبيل الله ، قائلة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما خالط قلب امرىء مسلم رهج - غبار - في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار » (أخرجه الإمام أحمد في مسنده) .

سخاؤها و جودها :

مما وصف به أبو نعيم السيدة عائشة رضي الله عنها قوله : « كانت للدنيا قالية - زاهدة هاجرة - وعن سرورها لاهية ، وعلى فقد أليفها باكية » حرصت بعد وفاة النبي ﷺ أن تحافظ على أسلوب حياتها

ومعيشتها كما كانت على عهده ، لذلك كانت تكتفي بعطائها وترفض ما سواه ، إلا أنها عندما تذكرت قول الرسول ﷺ لها :

« يا عائشـــة ، من أعطاك عطاء بغير مسألة فاقبليه ، فإنما هو رزق عرضه الله لك » (مسند أحمد) أصبحت تقبل ، ولم يكن هذا لتستأثر به ، بل لتنفقه في سبيل الله ؛ أخرج مالك في الموطأ أنه بلغه عن عائشـــة رضي الله عنها أن مسكيناً سألها وهي صائمة ، وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : أعطيه إيَّاه . فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه . فقالت : أعطيـــه إيَّاه ؛ ففعلـــت ...

وذكر أبو نعيم قول عـــروة : بعث معاوية إلى عائشة بمائة ألف ، فوالله ما غابت الشمس عن ذلك اليوم حتى فرقتها ، فقالت مولاة لها : لو اشتريت لنا من هذه الدراهم بدرهم لحماً ؛ فقالت عائشـــة : لو قلت قبل أن أفرقها لفعلت ...

رآها جابر بن عبدالله وعليها ثوب مرقوع ، فقال لها : لو ألقيت عنك هذا الثوب . فقالت له : إن رسول الله ﷺ قال لي :

« إن سَـرَّكِ أن تلقيني فلا تُلْقِيَنَّ ثوباً حتى ترقعيه ، ولا تدخرِنَّ طعاماً لشهر » فما أنا بمغيرة ما أمرني به حتى ألحق به إن شاء الله ... قال عـــروة : فما كانت عائشة تستجد ثوباً حتى ترقع ثوبها وتُنَكِّسَـه (تقلبه) لقد رأيتها رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً وإنها لترقع جيب درعها ، فإذا قيل لها : أليس قد أوسع الله عليك ؟ قالت : إنه لا جديد لمن لا خَلِقَ له ... (طبقات ابن سعد) .

عائشـــة وعثمـــان ...

انفردت السيدة عائشة رضي الله عنها برواية عدة أحاديث في فضائل

عثمان رضي الله عنه ، من ذلك مثلاً : ما أخرجه مسلم في صحيحه من روايتها لقول رسول الله ﷺ : « إن عثمان رجل حيي » وحديث : « ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة » وما أخرجه أحمد والطبراني من أنها لما سمعت بعض الناس ينال من عثمان رضي الله عنه ، غضبت غضباً شديداً وقالت : لعن الله من لعنه ، لعن الله من لعنه ، لقد رأيت رسول الله ﷺ ، وهو مسند فخذه إلى عثمان وإني لأمسح العرق عن جبين رسول الله ﷺ ، وإن الوحي ينزل عليه ، ولقد زوجه ابنتيه ، إحداهما بعد الأخرىٰ ، وإنه ليقول « اكتب عُثيم » قالت : ما كان الله لينزل عبداً من نبيه بتلك المنزلة إلا عبد كريم .

أما ما نسبه بعض الإخباريين من أصحاب الأهواء إليها ، من أنها كانت تحرض على قتل عثمـــان رضي الله عنه وتقول « أبعده الله » وتسميه « نعثلاً » فهذا مما أشاعه خدام السبئية لإيغار الصدور ، والعيب على جيل القدوة من أصحاب رسول الله ﷺ . .

كانت ترىٰ رضي الله عنها أن معاتبة بعض الصحابة لعثمـان رضي الله عنهم جميعاً أمام العامة هي التي جرأت عليه الغوغاء (لما علمت باستشهاد عثمان رضي الله عنه ، وهي في طريق عودتها إلى المدينة من حجها ، قالت : أكياس ـ مفردها : كيِّس وهو العاقل ـ هذا غب ـ نتيجة ـ ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح) .

والصحيح الثابت عنها رضي الله عنها أنها أنكرت قتله رضي الله عنه ، وذمت من قتله ، ودعت على أخيها محمد وغيره لمشاركتهم في ذلك ، روى صاحب كتاب (التمهيد والبيان في فضل الشهيد عثمان) عن سعيد بن عبد الله بن أبي مليكة ، قال : ما زالت عائشة رضي الله عنها تدعوه مذمّمًا ، وتدعو عليه حتى الموت ، فلما مات كفّت عنه .. أي : عن أخيها

محمد . وأنها عندما علمت باستشهاد عثمان رضي الله عنه ، وهي في الطريق ، قفلت راجعة إلى مكة ، وخطبت الناس عندما اجتمعوا إليها خطبة بليغة ، أثنت فيها عليه بما هو أهله ، وقالت عن قتلته :

(فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً فلجُّوا وبادَوْا بالعدوان ، ونبا فعلُهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام ... والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ...) (الطبري : ٤/٤٤٨) .

وكان مما قالته بعد عودتها إلى المدينة المنورة : (حتى إذا تركتموه كالثوب المنقى من الدنس قتلتموه) وذلك عندما اجتمع إليها الناس ، ولما قال لها مسروق بن الأجدع : (عملُك ، كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه) قالت : (والذي آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ، ما كتبت إليهم سواداً في بياض) قال الأعمش : فكانوا يرون أنه كُتب على لسانها ... كما كُتب على لسان علي ، وعلى لسان عثمان رضي الله عنهما (الطبري : ٥/ ١٦٥ - ١٨٣ ، العواصم من القواصم : ١٣٦) (في الطبري : ٥/ ١٨٠ فأتوا - الغوغاء - علياً ، فقالوا له : ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا ، وقد أحل الله دمه ، فقم معنا إليه . قال : والله لا أقوم معكم . قالوا : فَلِمَ كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم ، فنظر بعضهم إلى بعض ...) .

وقالت رضي الله عنها في خطبة لها بالمربد: (كان الناس يتجنون على عثمان، ويزورون على عماله، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، فننظر في ذلك، فنجده بريئاً تقيًّاً وفيًّاً؛ ونجدهم فجرة غدرة كذبة، وهم يحاولون غير ما يظهرون، فلما قووا كاثروه، واقتحموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام، بلا ترة ولا عذر، ألا أن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره: أخذ

قتلة عثمان، وإقامة كتاب الله، وقرأت: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون...﴾ (الكامل: ٣/٢١٢ ـ ٢١٣).

أما كلمة « نعثل » فلم تعرف إلا على ألسنة قتلة عثمان رضي الله عنه ، وأول من تلفظ بها منهم : جبلة بن عمرو الساعدي ، ثم ترددت بعد ذلك مرة أخرى في حرب الجمل بلسان هانيء بن خطاب ، ومرة ثالثة في حرب صفين بلسان عبد الرحمن بن حنبل الجمحي ... ولما قال جبلة هذه الكلمة كانت السيدة عائشة رضي الله عنها في مكة المكرمة حيث كانت قد خرجت إليها بعد سيطرة الغوغاء على المدينة المنورة ، وبعد أن خشيت على نفسها أن يصيبها منهم ما أصاب أم المؤمنين أم حبيبة من الأذية (لما قطع البغاة الماء عن أمير المؤمنين عثمان ، وأخذ يستسقي الناس ، فجاءته أم حبيبة بالماء فأهانوها ، وضربوا وجه بغلتها ، وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فتجهزت أمهات المؤمنين إلى الحج فراراً من الفتنة) [الطبري : ٥/ ١٢٧ وابن كثير : ٧/ ٢٢٩] ولم تسمع السيدة عائشة هذه الكلمة إلا بعد رجوعها من الحج [الطبري : ٥/ ١١٤ ، المنتقى من منهاج الاعتدال : ٢٣٤] .

عائشـــة ... وعلي ..

روت السيدة عائشة رضي الله عنها أحاديث عديدة في فضل أهل البيت ، من ذلك مثلاً ما أخرجه مسلم في صحيحه أنها قالت : خرج النبي ﷺ غداة وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ من شعر أسود (المِرْط كل ثوب غير مخيط ، والمُرْط : كساء من خز أو صوف أو كتان . مُرحَّل : الذي نقشت فيه تصاوير الرِّحال) فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسـين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمـة فأدخلها ، ثم جاءه علي فأدخله ، ثم قال :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

وما أخرجه الترمذي وحسَّنه ، أنها سُئلت : أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ ؟

قالت : فاطمة . فقيل : ومن الرجال ؟ قالت : زوجها ، إنْ كان ما علمت صواماً قواماً ...

كما كانت السيدة عائشة رضي الله عنها كثيراً ما تحيل السائلين على علي رضي الله عنه ، من ذلك مثلاً ، ما أخرجه مسلم ، في صحيحه أن شريح بن هانىء سألها عن المسح على الخفين ، فقالت له : عليك بابن أبي طالب فَسَلْهُ فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ ...

بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه دعت السيدة عائشة الناس إلى بيعة علي رضي الله عنه أميراً للمؤمنين ، أخرج الطبري ، وذكر ابن حجر في « فتح الباري » أن الأحنف بن قيس ، قال : حججنا ، فإذا الناس مجتمعون في وسط المسجد - النبوي - فلقيت طلحة والزبير ، فقلت : إني لا أرى هذا الرجل - عثمان - إلا مقتولاً ، فمن تأمراني به ؟ قالا : عليّ . فقدمنا مكة ، فلقيت عائشة ، وقد بلغنا استشهاد عثمان ، فقلت لها : من تأمريني به ؟ قالت : عليّ ... قال الأحنف : فرجعنا إلى المدينة ، فبايعت علياً ورجعت إلى البصرة .

وما أخرجه ابن أبي شيبة ، وذكره ابن حجر في « فتح الباري » أن السيدة عائشة لما سألها عبدالله بن بُديل بن ورقاء الخزاعي بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه ، من يبايع ؟ قالت له : الزم عليّاً .

سبب خروجها ..

أما سبب خروجها مع طلحة والزبير رضي الله عنهم إلى البصرة فهو : الرغبة في الإصلاح بين المسلمين حتى تجتمع كلمتهم ، والاقتصاص من

قتلة عثمان رضي الله عنه ... نجد ذلك واضحاً في الرواية التي أخرجها الطبري عن سيف بن عمر الذي قال عنه علماء الجرح والتعديل : « ثقة في التاريخ » من أن علياً رضي الله عنه أرسل إليهم القعقاع بن عمرو التميمي ليسألهم عن سبب خروجهم ، فبدأ بعائشة قائلًا : (أي أمَّه ، ما أشخصك ، وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني : إصلاح بين الناس) فطلب منها أن ترسل إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما ، فأرسلت ، وجاءا ، فقال لهما : (إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها ؟ فقالت : إصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ فقالا : متابعان) ونجحت وساطة القعقاع ، واطمأنت النفوس وسكنت ، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين ، فلما أمسوا بعث عليّ عبدالله بن عباس إليهم ، وبعثوا محمد بن طلحة السجاد إلى عليّ ، وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط ، قد أشرفوا على الهلكة ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر ، واستسروا بذلك خشية أن يُفطن بما حاولوا من الشر ، فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالاً (ابن كثير : ٧/ ٢٣٩ ، الطبري : ٥/ ٢٠٢ ، ابن الأثير : ٣/ ١٠٥ ـ ١٠٧) قال عبدالله بن سبأ اليهودي : (يا قوم ، إن عزكم في خلطة الناس ، فصانعوهم ، فإذا التقى الناس غداً ، فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر ، فمن أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ، ويُشغل الله عليّاً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون ... فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون) (ابن الأثير : ٣/ ١٢٠) وهكذا أنشبوا الحرب بين علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين ...

ومما يؤكد أن الخروج كان للإصلاح والاقتصاص من قتلة عثمان

ما ذكره ابن حجر في (فتح الباري : ١٣/ ٤١) من أن أحداً لم ينقل عن عائشة ومن معها أنهم نازعوا علياً في الخلافة ، ولا دعوا لأحد منهم ليولوه الخلافة ...

وما قاله القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله في (العواصم من القواصم : ١٥٢) : فخرج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين رجاء أن يرجع الناس إلى أمَهم فيراعوا حرمة نبيهم ﷺ ، واحتجوا عليها عندما حاولت الامتناع بقوله تعالى :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (النساء:١١٤) ثم قالوا لها : إن النبي ﷺ قد خرج في الصلح ... فرجت المثوبة ، واغتنمت الفرصة وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها ....

ويؤكد هذا رد السيدة عائشة على أم سلمة رضي الله عنهما عندما نصحتها بعدم الخروج فقالت : ما أقبلني لوعظك ، وأعلمني بنصيحتك ، ولنعم المطلع مطلع فزعت فيه إلى فئتين متناحرتين ...

فرية وإبطالها ...

أما ما ذهب إليه بعضهم من أهل الأهواء أن الذي أخرج السيدة حقدُها على عليّ لكلمته التي قالها لرسول الله ﷺ عندما استشاره بشأن حديث الإفك : « النساء غيرها كثيرات » فهو بيِّن البطلان ، خاصة إذا عرفنا أن حسان بن ثابت الأنصاري الشاعر كان من الذين أذاعوا حديث الإفك وتناقلوه دون تبصر أو روية حتى أقيم عليه حد القذف بعد أن نزلت براءة السيدة عائشة من السماء ؛ ومع ذلك فإنها رضي الله عنها لم تحمل له حقداً ، وكانت ترجو له الخير ؛ أخرج عبدالرزاق في مصنفه أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : « لا تقولوا لحسان إلا خيراً ، فإنه كان يهاجي

عن النبي ﷺ ويهجو المشركين » وكان حسان إذا دخل عليها ألقت له وسادة فجلس عليها ... وفي الصحيح أن عروة ـ ابن اختها ـ قال : ذهبت أسبُّ حسان عند عائشة ، فقالت : « لا تسبه ، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ » ويقول المودودي رحمه الله في تفسيره لسورة النور :

« وكانت عائشة رضي الله عنها دوماً تبدي عطفها على حسان ولا تقابله إلا بالإحسان والتواضع ... ولما أن ذكّرها الناس مرة بما فعل ، قالت : إنه كان يدافع عن النبي ﷺ ، ومرة أخرى قالت : ما سمعت بشعر أحسن من شعره ، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة » .

فإن كان هذا موقفها من حسان ، فهل يعقل أن تقف غيره من علي رضي الله عنه ،وهي تعرف سابقته وجهاده ومنافحته عن رسول الله ﷺ وحبه له ، بل إنها هي التي روت ذلك بنفسها عن رسول الله ﷺ ، عدا عن أنه لم يرتكب ما ارتكبه حسان بحقها ؟!

هل يعقل أن تخرج لقتاله ، وترك باب الفتنة مفتوحاً بين المسلمين ، لكلمة قالها يريد بها أن يُسَرِّي عن رسول الله ﷺ ، ويفرج كربه ، ويخرجه من الهم الذي شغله بسبب حديث الإفك ، ولم يرد طعناً فيها رضي الله عنهما ؟! وهي التي وقفت بعد الجمل عندما حضر الناس لوداعها قبل توجهها إلى المدينة المنورة ، وبحضور علي رضي الله عنه ، لتقول لهم :

« يا بنيَّ تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتَدَّنَّ أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك ، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندي على معتبتي لمن الأخيار » وقال علي رضي الله عنه :

« صدقت والله وبرت ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة » .

وفـــــــاتها ...

مرضت السيدة عائشـــة رضي الله عنها سنة ثمان وخمسين للهجرة ، والأشهر أنها توفيت ليلة الثلاثاء السابع عشر من رمضان ، وأوصت أن تدفن بالبقيع ليلاً ؛ صلَّى عليها أبو هريرة رضي الله عنه بعد صلاة الوتر ، ونزل في قبرها خمسة : عبد الله وعروة ابنا الزبير من أختها أسماء ، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن ...

أخرج الإمام أحمـــد في مسنده عن ذكوان حاجب عائشـــة رضي الله عنها أنه جاء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يستأذن على عائشـــة ، فجئت ، وعند رأسها عبد الله بن أخيها عبدالرحمن ، فقلت : هذا ابن عباس يستأذن ، فأكب عليها ابن أخيها فقال : هذا ابن عباس يستأذن ، وهي تموت ، فقالت : دعني من ابن عباس ؛ فقال : يا أماه ، إن ابن عباس من صالح بنيك يسلم عليك ويودعك ، فقالت : ائذن له إن شئت . قال : فأدخلته ، فلما جلس ، قال : أبشري ، فقالت : بماذا ؟ قال : ما بينك وبين أن تلقي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد ، وكنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه ، ولم يكن يحب إلا طيباً ، وسقطت قلادتك يوم الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ وأصبح الناس وليس معهم ماء فأنزل الله آية التيمم ، فكان ذلك في سببك ، وما أنزل الله من الرخصة لهذه الأمة ، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات ، جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار ... فقالت : دعني منك يا ابن عباس ، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً ... قال عبيد بن عمير بعد وفاتها : أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه .. رضي الله عنها وأرضاها ...

وبعـــد : فقد سئل إبراهيم النخعي عن حروب الصحابة فقال : تلك دماء طهر الله أيدينا منها ، أفنلطخ ألسنتنا ؟ وأخرج البخاري مرفوعاً عن عائشــــة : رضي الله عنها « لا تسبـوا الأموات فـإنهم أفضوا إلى ما قدموا » وقد قال الله تعالى في آيات براءة السيدة عائشـــة رضي الله عنها محذراً المؤمنين :

﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (النور : ١٧) .



الفصل الرابع

مع طلحة والزبير رضي الله عنهما

روىٰ الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعتْ أذني من في ـ فم ـ رسول الله ﷺ وهو يقول : [طلحة والزبير جاراي في الجنة] .

وعن الزبير رضي الله عنه قال : كان على رسول الله ﷺ يوم أُحد درعان ، فنهض إلى صخرة ، فلم يستطع ، فأقعد تحته طلحة ، فصعد النبي ﷺ حتى استوىٰ على الصخرة ، فقال ، أي : الزبير ، سمعت النبي ﷺ يقول : « أوجب طلحة » أي : وجبت له الجنة .

وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ لكل نبي حوارياً ، وإن حواريَّ الزبير بن العوام » . قال سفيان بن عُيينة : الحواريُّ هو الناصر .

وفي الترمذي عن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وسعد في الجنة ، وسعيد في الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة » .

كان طلحة من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وضع جاهه وثراءه

العريض وسيفه في خدمة دين الله عزَّ وجل ، هاجر إلى المدينة المنورة ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلَّا غزوة بدر الكبرىٰ ؛ فإنَّ الرسول ﷺ كان قد كلَّفه ومعه سعيد بن زيد رضي الله عنهما بمهمة خارج المدينة المنورة ، وقسم لهما رسول الله ﷺ من غنائم بدر مثل من شهدها ، وأن لهما من المثوبة والأجر مثل ما للمقاتلين تماماً ... وعندما انكشف المسلمون يوم أُحد ، كان طلحة من الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت ، دافع دفاعاً مجيداً عن رسول الله ﷺ ، وجرح أربعاً وعشرين جراحة في جسده ، وهو مع ذلك محتمل رسول الله ﷺ حين كسرت رباعيتاه ، ويرجع به القهقرىٰ ، كلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه حتى أسنده إلى الشعب ، وفيها سماه رسول الله ﷺ (طلحة الخير) . تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنْتَظِر وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ وقال وهو يشير إلى طلحة : « من سرَّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض ، وقد قضى نحبه ، فلينظر إلى طلحة » ، وفي غزوة العسرة سمَّاه رسول الله ﷺ (طلحة الفياض) ، وفي غزوة حنين سماه (طلحة الجود) . وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ذكر يوم أُحد ، قال : « ذاك يوم كان يوم طلحة » . وسمع علي رضي الله عنه رجلاً يقول بعد يوم الجمل : ومن طلحة ؟ فزجره علي رضي الله عنه ، وقال : [إنَّك لم تشهد يوم أُحد ، لقد رأيته وإنه ليحترس بنفسه دون رسول الله ﷺ ، وإن السيوف لتغشاه ، وإن هو إلَّا جُنَّة بنفسه لرسول الله ﷺ] .

لم يلقبه الرسول ﷺ بتلك الألقاب [الجود - الفياض - الخير] إلَّا لكثرة ما كان ينفق في سبيل الله تعالى ، وما أكثر ما كان يَخْرُج عن ثروته كلها ، روىٰ صاحب (الطبقات) عن زوجة طلحة رضي الله عنه

سعدى بنت عوف ، قالت : [دخلت على طلحة يوماً فرأيته مهموماً ، فسألته : ما شأنك ؟ فقال : المال الذي عندي قد كثر حتى أهمني وأكربني .. فقلت له : ما عليك ، اقسمه ، فقام ودعا الناس ، وأخذ يقسمه حتى ما بقي منه درهم] . ويصف جابر بن عبد الله بذل طلحة رضي الله عنه فيقول : [ما رأيت أحداً أعطى لجزيل مال من غير مسألة من طلحة بن عبيد الله] . وكان رضي الله عنه لا يدع أحداً من بني تيم - أقربائه - إلَّا كفاه مؤونة عياله ، يزوج أياماهم ، ويخدم عائلهم ، ويقضي دين غارمهم ، . ويقول السائب بن يزيد : [صحبت طلحة بن عبيد الله في السفر والحضر ، فما وجدت أحداً أعم سخاء على الدرهم والثوب والطعام منه] .

أما الزبير رضي الله عنه فقد كان أيضاً من السابقين الأولين ، وواحداً من السبعة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام ، وكان عمره يومئذ خمس عشرة سنة ، وهو صاحب أول سيف سلَّ في الإسلام عندما سرت إشاعة مقتل رسول الله ﷺ على يد مشركي مكة ، فاندفع من دار الأرقم حيث كان المسلمون يتجمعون ، شاهراً سيفه ، يتبين الخبر ، معتزماً أن يُعْمِله في رقاب المشركين ، ولقيه محمد ﷺ في أعلى مكة ؛ وأنهىٰ إليه الزبير الخبر ، فدعا له رسول الله ﷺ بالخير ، ولسيفه بالغَلَب ؛ هاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وهاجر بعد ذلك إلى المدينة المنورة ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

روىٰ البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، قال : [لمَّا وقف الزبير يوم الجمل ، فدعاني ، فقمت إلى جنبه ، فقال : يا بني لا يُقْتل اليوم إلَّا ظالم أو مظلوم ، وإني لا أراني إلَّا سأُقتل اليوم

مظلوماً ، وإن من أكبر همي لَدَيْني ، أفترىٰ يُبْقي دَيْنُنَا من مالنا شيئاً ؟ فقال : يا بني ، بع ما لنا ، فاقض ديني ، وأوصىٰ بالثلث ، وثلثه لبنيه ، يعني بني عبد الله بن الزبير ، يقول : ثلث الثلث ؛ فإن فضل من مالنا فضل بعد قضاء الدين فثلثه لولدك ... قال عبد الله : فجعل يوصيني بدينه ، ويقول : يا بني إن عجزت عن شيء منه ، فاستعن عليه مولاي . قال : فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت : يا أبتَ من مولاك ؟ قال : الله . قال : فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلَّا قلت : يا مولى الزبير اقض عنه دينه ، فيقضيه ، فقتل الزبير رضي الله عنه ولم يدع ديناراً ولا درهماً ، إلَّا أرضين ، منها : الغابة ، وإحدىٰ عشرة داراً بالمدينة ، ودارين بالبصرة ، وداراً بالكوفة ، وداراً بمصر .. قال : وإنما كان دينه الذي عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إيَّاه ، فيقول الزبير : لا ، ولكنه سلف ، فإني أخشى عليه الضيعة ؛ وما وليَ إمارة قط ، ولا جباية خراج ، ولا شيئاً إلَّا أن يكون في غزوة مع النبي ﷺ ، أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم .

قال عبد الله بن الزبير : فحسبت ما عليه من الدين فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف . فلقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير ، فقال : يا ابن أخي ، كم على أخي من الدين ؟ فكتمه ، فقال : مائة ألف . فقال حكيم : والله ما أرىٰ أموالكم تتسع لهذه ؛ فقال له عبد الله : أرأيتك إن كانت ألفي ألف ومائة ألف ؟ قال : ما أراكم تطيقون هذا ، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي ... وكان الزبير اشترىٰ الغابة بسبعين ومائة ألف ، فباعها عبد الله بألف ألف وستمائة ألف ، ثم قام ، فقال : من كان له على الزبير حق فليوافنا بالغابة . فأتاه عبد الله بن جعفر ، وكان له على الزبير

أربعمائة ألف ، فقال لعبد الله : إن شئتم تركتها لكم ، قال عبد الله : لا ؛ قال : فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخَّرتم . فقال عبد الله : لا . قال : فاقطعوا لي قطعة . قال عبد الله : لك من ها هنا إلى ها هنا . قال : فباع منها ، فقضى دينه فأوفاه ... الحديث] وكان للزبير أربع نسوة ...
إنه رضي الله عنه يخشى ألَّا تكفي العقارات التي يمتلكها لسداد ديونه ، ويطلب من ابنه عبد الله أن يستعين بالله عزَّ وجل ويشدد عليه لوفاء الدين ، ويشهد له صحابيان جليلان هما : حكيم بن حزام ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً ، بأنه كان مديناً ، ويعرض أولهما على ابنه عبد الله استعداده للمساعدة في وفاء دين الزبير ، ويعرض الآخر التنازل عن دينه الذي له على الزبير ، فلما أبىٰ عبد الله ذلك ، طلب أن يؤخر دينه ...

بعد هذا هل يصح أن يقال في حقيهما : [إنهما من النفر الذين انتفخت أوداجهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرىء منهم نفسه ، هؤلاء الراغبون في أن تكون الولاية على الناس سطوة ملك عضوض] ويُفترىٰ عليهما بأنهما يرتبطان بالمال ، يدوران معه حيث دار ، دون النظر إلى حق أو باطل [أيمكن لطلحة والزبير أن يعيدا هذا المال إلى بيت المال ، أم أن المصالح التي تربطهما بكبار بني أميَّة ، كمعاوية وعصبته ، هي التي أقوىٰ مما عسىٰ أن يربطهما بالإمام ؟!] .

ويزداد الافتراء ظلمة : [سيلحق طلحة والزبير بمعاوية وعصبته بلا مراء ، لأن علياً سيحرمهم من كل متاع ، ومن كل مآربهم في حياتهم الجديدة الرغيدة ، وسينصر عليهم المساكين ، ويظل بهم حتى يفقدوا

أبهة الملك وزخرف الغنى وسطوة الجاه [14]] لا ندري أي مال هذا الذي يتحدث عنه ؟ وهو نفسه قبل قليل كان قد اتهمهما بالتحريض على عثمان رضي الله عنه وقتله ، فكيف يكون هذا ؟ عثمان برأيه زعيم معسكر الرأسماليين ، وهما من هذا المعسكر فَلِمَ يحرضان على قتله ؟ وأكبر الظن أنه أخذ التحريض من روايات أصحاب الأهواء ، ولو كلَّف نفسه مؤنة البحث العلمي !! لوجد أن الطبري رحمه الله يروي في تاريخه (٥ : ١٠٨) كيف زوّر هؤلاء على لسان أصحاب رسول الله ﷺ الكتب ليثيروا العامة على الخليفة ؛ [فأتوا علياً ، فقالوا له : ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا ، وقد أحلَّ الله دمه ، فقم معنا إليه . قال : والله لا أقوم معكم . قالوا : فلم كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم . فنظر بعضهم إلى بعض ...] . وفيه أيضاً أن مسروق بن الأجدع الهمداني - من أئمة التابعين المقتدىٰ بهم - عاتب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان ، فأقسمت بالله الذي آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون أنها ما كتبت سواداً في بياض ... وقال سليمان بن مهران الأعمش : فكانوا يرون أنه كتب على لسانها ، وكذلك قال طلحة والزبير ...

إنَّ الأيدي المجرمة التي زوَّرت الرسائل على لسان علي وعائشة وطلحة والزبير وعثمان رضي الله عنهم هي التي رتبت هذا الفساد كله (الطبري : ٥/ ١٨٧) .

---

(١٤) ذكرت مجلة أكتوبر القاهرية (يناير [كانون الثاني] ١٩٨٤م) أنه (بعد سنين من وفاة الزعيم اليوغوسلافي « تيتو » ، اكتشف أنه كان يكنز الذهب ، وأن مجموع ما تركه مبلغ (٩٦٠) كيلو غراماً من الذهب الخالص) وكأن الكاتب يظن أن أتباع محمد ﷺ ، كهؤلاء دعاة الاشتراكية العلمية الذين ينسج على منوالهم .

جاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٢٩ و ٥٦) أن الأحنف بن قيس ، قال : [حججنا ، فإذا الناس مجتمعون وسط المسجد - النبوي - فلقيت طلحة والزبير ، فقلت : إني لا أرىٰ هذا الرجل - عثمان بن عفان رضي الله عنه - إلّا مقتولاً ، فمن تأمراني به ؟ قالا : علي . فقدمنا مكة ، فلقيت عائشة ، وقد بلغنا مقتل عثمان ، فقلت لها : من تأمرينني به ؟ قالت : علي ...] ؛ فما داما رضي الله عنهما يخافان على دنياهما ، فَلِمَ يأمران الأحنف ببيعة علي رضي الله عنه ؟!

ويقول صاحب فتح الباري (١٣/ ٥٦) : [إنَّ أحداً لم ينقل أن عائشة ومن معها - طلحة والزبير - نازعوا علياً في الخلافة ، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة (١٥) ، وإنما أنكرت هي ومن معها على علي منعه من

---

(١٥) عن عمرو بن دينار أن أهل المدينة كلّموا ابن عبَّاس أن يحج بهم ، فدخل على عثمان فأمَّره ، فحج ثم رجع ، فوجد عثمان قد قتل ، فقال لعلي رضي الله عنه : إن أنت قمت بهذا الأمر ألزمك الناس دم عثمان إلى يوم القيامة . (سير أعلام النبلاء : ٣/ ٢٣٤) .

وفي البداية والنهايـــة لابن كثير :

عن سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه قالوا : بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان ، وأميرها الغافقي بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على علي وهو يهرب منهم إلى الحيطان ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ... فقالوا فيما بينهم : لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة ؛ فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص ، فقالوا : إنَّك من أهل الشورىٰ ؛ فلم يقبل منهم ؛ ثم راحوا إلى ابن عمر ، فحاروا في أمرهم ، ثم قالوا : إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ، ولم نسلم ؛ فرجعوا إلى علي فألحوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس ...

وفيـــه أيضـــاً :

وقد امتنع علي من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرر قولهم له ، وفر منهم إلى =

قتل قتلة عثمان ، وترك الإقتصاص منهم ، وكان علي ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان اقتص منه ، فاختلفوا بحسب ذلك ، وخشي من نسب إليهم القتل(١٦) أن يصطلحوا على قتلهم فأنشبوا الحرب بينهم إلى أن كان ما كان] .

نقل الحافظ ابن عساكر ، قول الشعبي : رأى علي بن أبي طالب طلحة رضي الله عنهما ملقىً في بعض الأودية ، فقال : ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ... وفي رواية قيس بن عبادة ، قال : قال علي رضي الله عنه يوم الجمل : يا حسن ، ليت أباك مات منذ عشرين سنة ، فقال له : يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا . قال : يا بني إني لم أر أن الأمر يبلغ هذا ... وقال أبو حبيبة مولىٰ طلحة : دخلت أنا وعمران بن طلحة على علي بعد الجمل ، فرحب بعمران وأدناه ، وقال : إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ وفي رواية أخرىٰ : [إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير وعثمان من الذين قال الله فيهم ...] .

وجاء في كتاب « قرب الإسناد » للحميري الشيعي (ص ٤٥) :

عن جعفر عن أبيه أن علياً عليه السلام كان يقول لأهل حربه :

حائط بني عمرو بن مبذول ، وأغلق بابه ، فجاء الناس ، فطرقوا الباب وولجوا عليه ، وجاؤوا معهم بطلحة والزبير ؛ فقالوا له : إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير ؛ ولم يزالوا به حتى أجاب [٧/٢٢٦ ـ ٢٢٧] .

(١٦) قال ابن سبأ لأتباعه من رؤوس الفتنة ، وقد رأىٰ الصلح أصبح وشيكاً بين علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم : [يا قوم ، إن عزّكم في خلطة الناس ، فإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر ، فمن أنتم معه ـ علي ـ لا يجد بداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأىٰ رأيهم عما تكرهون] .

[إنَّا لم نقاتلهم على التكفير لهم ، ولم يقاتلونا على التكفير لنا ، ولكنَّا رأينا أنا على حق ورأوا أنهم على حق] .

وفي رواية أخرىٰ عن جعفر عن أبيه محمد الباقر : [إن علياً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق ، ولكن يقول : هم إخواننا بغوا علينا] .

في رواية شيخ الإسلام ابن تيمية « منهاج السنة : ٣/ ٦١ » والذهبي في « المنتقى : ١٣٥ » وابن عساكر في « التهذيب : ٧٣ » والبيهقي في « السنن الكبرىٰ : ٨/ ١٧٣ » عن جعفر بن محمد عن أبيه الباقر قال :

[سمع علي يوم الجمل ويوم صفين رجلاً يغلو في القول ، فقال : لا تقولوا إلَّا خيراً ، إنما هم قوم زعموا أنا بغينا عليهم ، وزعمنا أنهم بغوا علينا فقاتلناهم] .

لما قتل ابن جرموز ـ أخزاه الله ـ الزبير رضي الله عنه غيلة وغدراً ذهب إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ليزف إليه نبأ عدوانه على الزبير وقتله ، قال علي رضي الله عنه : [بشِّر قاتل ابن صفية بالنار] ، وحين أدخلوا عليه سيف الزبير ، قبله وبكى وهو يقول : [سيف طالما والله جلا صاحبه الكرب عن رسول الله ﷺ] .

روى الترمذي في سننه أن الزبير رضي الله عنه ، قال : [ما مني عضو إلَّا وقد جرح مع رسول الله ﷺ حتى انتهى ذاك إلى فرجه] ، ويوم قريظة جمع له رسول الله ﷺ أبويه ، فقال : [بأبي وأمي] .

إنه يصور الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وكأنهم أعضاء في لجنة مركزية لحزب من هذه الأحزاب المادية التي استبدت برقاب

الجماهير تحت ستار « الاشتراكية العلمية » يقوم بعضهم بتصفية بعضهم الآخر جسدياً لينعم وحده بميزات التحكم برقاب الجماهير ، وهي تشقى وتعاني ، لأن السلطة عندهم تشريف لا تكليف ، وتسلط واستبداد وقهر .. وكأنه يريد أن يقول عن الصحابة الكرام : إنهم يتهالكون على السلطة ، ويستميتون في سبيل مغانمها الموهومة ...

هذا ما تجره محاولات إسقاط مناهج غريبة ، نبتت في بيئات غريبة على تاريخنا ، الأمر الذي يدفع إلى تَسَقُّطِ الروايات مهما كانت تالفة أو موضوعة ، والجري وراء إخباريّي عصر التدوين العباسي ، والبعد عن مؤرخيه ومحدِّثيه ، لبثّ الفرقة والسموم في هذه الأمة التي أكرمها الله عزَّ وجل بدينه ، وجعلها الأمة الوسط ﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلىٰ النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ .

تــــــأَلٍ على الله ...

إنَّ الذي أعطىٰ لنفسه الحق في أكل لحوم أصحاب رسول الله ﷺ الذين قال في حقهم محمد ﷺ : « لا تسبّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده ، لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه » ، وقال أيضاً : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً » أي : هدفاً يرمىٰ ، وتُصوَّب نحوه السهام ... فوقع في أعراضهم ولم ينج من قلمه حتى المبشَّرون بالجنة ، كما لم تنج منه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ... هذا الشخص يكون أكثر جرأة في أكل لحوم سواهم ، وأسرع إلى اتهامهم والافتراء عليهم ، من هنا جاء تعميمه بحق بني أميَّة : [لا تعلمون أيها الناس كيد بني أميَّة ومكرهم السيء ، والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلَّا استحلوه ، ولا عقداً إلَّا حلّوه ...] ، إنَّه يكفرهم جميعاً ، دون

استثناء ، يقف وكأنه من باباوات العصور الوسطى ، يوزع صكوك الغفران على من يشاء ، ويحرمها من يشاء !!

ولنا أن نسأله : ما دام بنو أُميَّة بهذه الصفات ، فكيف اتخذ منهم الرسول ﷺ أمراء وكتبة وحي ؟ كيف ائتمنهم عليه الصلاة والسلام ؟ ألم يكن أبو سفيان بن حرب أميراً على نجران بتعيين رسول الله ﷺ له ، ومات عليه الصلاة والسلام وهو أمير عليها ؟ ألم يُوَلِّ ابنه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه على شيماء ، وعتاب بن أسيد على مكة المكرمة ، وعلى إقامة الموسم بالحج بالمسلمين سنة ثمان الهجرية ، وله من العمر دون العشرين سنة ؟ ألم يكن معاوية كاتب وحي رسول الله ﷺ ؟ (زاد المعاد : ١ / ١٢٥) ماذا لو سألناه عن عمر بن عبد العزيز ، وهل هو من الذين لا يزالون حتى لا يدعوا لله عزَّ وجل محرماً إلَّا استحلوه ؟!

ماذا يفعل بشهادة محمد ﷺ لهؤلاء بأنهم من المسلمين ، في قوله عن الحسن بن علي رضي الله عنهما : « إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » ؟ ومن همـــا الفئتان العظيمتان ؟ أليستا فئة علي رضي الله عنه وفئة معاوية رضي الله عنه ؟ وإن استخدمنا تعابيره مؤقتاً ، وسألناه : أليس معاوية زعيم بني أميَّة ؟!

إنَّ الَّذي تجرّأ على الله سبحانه وتعالى وعلى نبيه محمد ﷺ حينما سوَّد في الصفحة (٢٢٧) من كتابه « محمد رسول الحرية » ما سوَّد من أكاذيب ، دون أن يذكر حتى المصدر الذي استقاها منه ، حيث قال :

(رُوِّع محمد من مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه في بدر وأُحد ينحدرون في يأس هائل ، فما يفيق الواحدُ منهم من الخمر ، وما يغادر أماكن القمار إلَّا ليستمتع بـإحدىٰ المغنيـات أو الراقصـات

اليهوديات : فأطلقَ مناديًا يدعو النّاس إلى ترك الخمر ، وألَّا يقربوا الميسر والفواحش) سيكون أشدّ جراءة على الصحابة وجيل القدوة رضوان الله تعالى عليهم ...

إنَّ من له أدنى اطلاع على كتاب الله تعالى يعرف أن الفاحشة حُرِّمت في سورة الإسراء ، وهي مكية - نزلت قبل الهجرة إلى المدينة المنورة - ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء : ٣٢) وقصة مرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه مشهورة ، عندما أرسله النبي ﷺ بعد الهجرة إلى مكة المكرمة ليحتمل واحدًا من المسلمين المستضعفين منها إلى دار الهجرة ، والتقته «عناق» - وهي واحدة من صاحبات الرايات - تدعوه إلى بيتها - وكانت بينهما علاقة في الجاهلية - فيقول لها : إنَّ الله تعالى قد حرَّم الزنا ، رغم تهديدها بأنها ستدل المشركين عليه ، ويعرِّض نفسه للهلاك في سبيل الالتزام بأمر الله جلّ وعلا ...

فكيف يرتكب الصحابة هذه الفاحشة إلى ما بعد غزوة أُحد على مرأىً ومسمع من النبي ﷺ ، ولا ينكر عليهم ذلك ؟!

ويعرف أيضًا أنَّ الخمر حُرِّمت بالتدريج لأنَّ النَّاس كانوا مفتونين بها ، حتى إنها لو حُرِّمت في أول الإسلام لكان تحريمها صارفًا لكثير من المدمنين لها عن الإسلام ، بل عن النظر الصحيح المؤدي إلى الاهتداء به ...

روى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال :

[قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ،

فسألوا رسول الله ﷺ عنهما ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة : ٢١٩) فقال النَّاس : ما حرم علينا ، إنما قال : ﴿ إثم كبير ﴾ وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلّى رجل من المهاجرين أمَّ أصحابه في المغرب ، فخلط في قراءته ، فأنزل الله تعالى آية أغلظ منها : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارىٰ ﴾ (النساء : ٤٣) ثم نزلت آية أغلظ من ذلك : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَل أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة : ٩٠ ـ ٩١) قالوا : انتهينا ربَّنا] .

وفي رواية عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما عند عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ ، والحاكم وصححها ، وابن مردويه ، والبيهقي : [إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار : شربوا ، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صَحَوْا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه وبلحيته ، فيقول : صنع بي هذا أخي فلان ، والله لو كان رؤوفًا رحيمًا ما صنع بي هذا !! حتى وقعت الضغائن في قلوبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِر ... (إلى قوله تعالى :) فَهَل أَنتُم مُّنتَهُون ﴾ فقال ناس من المتكلفين : هي رجس ، وهي في بطن فلان قتل يوم بدر ، وفي بطن فلان قتل يوم أُحد ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾] .

وفي مسند أحمد ، وسنن أبي داود ، والنسائي ، والترمذي ، أن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يدعو الله تعالى : اللهمَّ بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ... فلما نزلت آية البقرة قرأها عليه النبي ﷺ : فظلَّ على دعائه ، وكذلك لما نزلت آية النساء ؛ فلما نزلت آية المائدة دُعِيَ فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى : ﴿ فَهَل أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قال : انتهينا ، انتهينا ...

وعلى هذا نجد أنَّ الذي حرَّم الخمر هو الله سبحانه وتعالىٰ ، وأنَّ محمدًا ﷺ كان المبلِّغ عن الله تعالى : وسبب التحريم واضح في هذه الروايات ، وليس هناك أي ذكر لما أورده « الشرقاوي » من تخيلات ورؤىٰ ... حيث جعل الصحابة رضوان الله عليهم لا يصحون من خمر ، ولا يتورعون عن فاحشة ـ والعياذ بالله ـ وهو الذي قدَّمه من قدَّمه على أنه « كاتب إسلامي كبير » (!!) ألبسوه ثوب زور ليخدعوا الناشئة المسلمة عن حقيقته : الأمر الذي يسهل تحقيق ما يأملون من عزل الإسلام عن حياة المسلمين : ولكن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وهو الحافظ لدينه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

الخاتمـــــــة :

وبعــــد : فإننا لا ندري : لمصلحة من تنبش القبور ، وتُنفخ الحياة في المفتريات والأكاذيب بحق الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في هذه الأيام العجاف ، حيث غُزينا في عقر دارنا ، وتحكم برقاب كثير منَّا أذل خلق الله ـ يهــود ـ استباحوا الأعراض ، ودنسوا المقدسات ، واحتلّوا الأرض ؟! إننا في وقت أحوج ما نكون فيه إلى وحدة الصف والكلمة ، والبعد عن كل ما يمكن أن يثير الأحقاد والإحن القديمة ... إن من يعمل على نبشها لا يمكن إلَّا أن يكون مخرباً هداماً ، جندياً في جيش العدو ،

علم ذلك أم لم يعلمه ، لأنه يسعى لتفريق الكلمة و إثارة التقاتل بين أبناء الأمة الواحدة ، ورسول الله ﷺ عندما وصف المسلم قال عنه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

يجب على الأقلام الصادقة حقاً أن تتوجه إلى محاربة المظالم الاجتماعية ، والمفاسد الخلقية ، والتهارش والاقتتال ، والاستبداد السياسي الذي أوقع الأمة في الفرقة والاختلاف ، وجرَّأ عليها أعداءها يسومونها سوء العذاب ؛ وعليها أن تتحمل تبعة الكلمة الصادقة التي تدخل صاحبها الجنة ، لا أن تنحرف نحو الكلمة التي تهوي بصاحبها في نار جهنم : وأن تبتعد عن الكلمة التي يمكن أن تنحرف بالأمة عن المجال الحقيقي الذي يجب أن تحشد فيه الطاقات ، وتلهيها عن معاناتها المؤلمة ، ولتضع نصب أعينها قول الرسول ﷺ : « وهل يكب الناس على مناخرهم ـ وفي رواية : على وجوههم ـ في نار جهنم إلَّا حصائد ألسنتهم ؟ » والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .



الباب الثالث

في السياسة الشرعية

الفصل الأول : ما هكذا تورد يا سعد الإبل

الفصل الثاني : مع خلف الله في مفاهيمه

الفصل الثالث : هل الأغلبية مبدأ إسلامي أصيل ؟

الفصل الأول

ما هكذا تورد يا سعد الإبل

تصحيح مفهومات ودحض مفتريات

« وعلى هذا يمكننا القول : إنه من باب التضليل المؤذي إلى أبعد الحدود أن يحاول الناس تطبيق **المصطلحات التي لا صلة لها بالإسلام على الأفكار والأنظمة الإسلامية** . إن للفكرة الإسلامية نظاماً اجتماعياً خاصاً بها وحدها يختلف من عدة وجوه عن الأنظمة السائدة في الغرب ، ولا يمكن لهذا النظام أن يدرس ويفهم إلّا في حدود مفاهيمه ومصطلحاته الخاصة ، **وأي شذوذ عن هذا المبدأ سوف يؤدي حتماً إلى الالتباس بدلًا من الوضوح والجلاء حول موقف الشرع الإسلامي تجاه كثير من القضايا السياسية والاجتماعية التي تشغل الأذهان في الوقت الحاضر** ..»[1] .

هذه كلمة لابد منها بين يدي ردّنا على ما كتب في مجلة العربي الكويتية العدد ٢٢٠ بقلم **الدكتور** محمد عمارة لأنها تضع يدنا على الداء ، وتبين لنا أسباب وقوع العديد ممن تصدوا للاشتغال بالدراسات الإسلامية منذ بداية هذا القرن ، وهم صرعى الغزو الفكري الصليبي للأمة بعد فشل الغزو

(١) انظر منهاج الاسلام في الحكم ص ٢٥ لمحمد أسد .

العسكري المسلح ، الذي أفرخ مفهوماتهم التي تكونت لديهم فنهضوا محاولين تطبيق هذه المفاهيم على الفكرة الإسلامية ...[٢] .

وباعتقادنا ان الكاتب المذكور في مقاله الذي عنونه بـ « **مكان الإرادة الإنسانية في فكر الإسلام السياسي** » والذي بدأه باتهام مبطن ، أراد أن يخرجه إخراجاً محبباً لنفوس قراء المجلة ، لمخالفيه فيما يعتقد من آراء بقوله : « فسنحسن الظن بمرامي هذا النفر من المشتغلين بالدراسات الإسلامية ، وسنقول : إن الذي أوقعهم في هذا التشخيص لفكر الإسلام السياسي هو الخلط ، وليس الجهل أو تعمد التضليل ... »[٣] .

كان الأليق به والأجدر أن لا يستخدم في كتابته هذا الأسلوب التقريري خاصة وأنه لم يبدأ بعد ببيان آراء هؤلاء ، ولم يقم بتفنيدها ، بل كان يجب عليه أن ينتظر تقرير هذه النتيجة إلى ما بعد انتهائه من مناقشة آرائهم ، أو أن يترك

---

(٢) كتب الأستاذ خالد محمد خالد ، صاحب كتاب « من هنا نبدأ » ومن أوائل المنادين بفصل الدين عن الدولة ، في جريدة الأخبار القاهرية بتاريخ ١٩٧٧/٨/٢٣م العدد (٧٨٥٨) معتذراً عن ذلك بقوله : (وإني لأرجو أن يجيء كلامي هذا ، رغم اختصاره ، تصحيحاً لرأي أبديته من قبل في كتابي « من هنا نبدأ » إذ قلت يومها : إن الدين لا يعنيه أن يكون دولة ، ولا يعنيه أن يتدخل في بناء الدولة ... ويبدو أنني يومها كنت متأثراً بتصور نصراني عن الحكومات الدينية ، لا سيما تلك التي قامت تحت ظل الكنيسة في أوروبا في عصور الظلام ، ناسياً أن الإسلام مختلف جداً ، وأن الدولة بشكلها ومضمونها كانت تعنيه إلى أبعد مدى ، وأنه خاطبها بمسؤوليتها كما خاطب الفرد والجماعة بمسؤولياتهما ، وفي الإسلام بالذات لا يمكن عزل الدين عن الدولة إلا إذا أمكن عزل الدين عن الدين ، فهو يدرك دور الدولة في الحفاظ على دين الله ، ويعلن أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ثم إنه وقد جاء يدعو الناس إلى الدخول في دين الله لا يمكن أن يترك الدولة تشكل عائقاً دون هذا الدخول ...) .

(٣) العربي العدد ٢٢٠ ص ٥٠٢ .

للقارىء نفسه الوصول إليها ، أم أنه يعتقد أن عقول القراء لا تزال بحاجة إلى وصاية ! وكذلك كان من واجبه ما دام يريد الكتابة عن مكان الإرادة الإنسانية في فكر الإسلام السياسي أن يعود إلى المفكرين الذين يمثلون هذا الفكر حقيقة ، ولكنه لم يفعل ، ولو استعرضنا قائمة مراجعه التي أوردها في هامش بحثه لوجدناها لا تتعدى مجموعة أبحاث لكتّاب محدثين لا تصلح أن تكون متكأً يعتمد عليه ليقرر ما قرره ، وحتى عندما نراه ينقل عن الإمام الغزالي رحمه الله يحاول أن يصرف ما نقل عن مدلوله الحقيقي الذي يخالف كل ما قرره المذكور ... وكذلك فعل عندما أتى على ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية والأساس الذي بنى عليه كتابه « السياسة الشرعية » ، ولو أنصف على الأقل لذكر أن عنوان كتاب ابن تيمية يحمل في طياته ما ينافي ما ذهب إليه الكاتب ، فهو « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » والذي لا تعود قيمته لاشتماله على أسس الحكم وقواعده النظرية في الإسلام فحسب وإنما في كونه مشروعاً إصلاحياً إسلامياً كان الباعث على تأليفه تقديم النصح لمن كان متولياً حكم البلاد في ذلك العصر ، وهو السلطان قلاوون ، والذي يذكر التاريخ أن إصلاحاته جاءت مطابقة ما أراده ابن تيمية رحمه الله في كتابه هذا[٤] . ولو أنه كلّف نفسه مؤنة الرجوع كما بيّنا آنفاً إلى المصادر الأصلية التي تمثل الفكر السياسي الإسلامي لكانت النتائج التي سيصل إليها مغايرة تماماً ـ كما سنرى من خلال النقول التي سنثبتها عنهم ـ لما انتهى إليه الكاتب في مقاله المذكور ، وما أظن إلّا أن محاولة تطبيق مصطلحات ... غريبة عن الإسلام وفكره هي التي أوقعته فيما انتهى إليه من خلط في مفهوم الديمقراطية والسلطات والشورى وغير ذلك ... مما يظهر لنا بوضوح في قوله : « وهم

---

(٤) انظر المقدمة التي كتبها الأستاذ المبارك للكتاب المذكور طبع دمشق عام ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .

بقولهم هذا ـ لا حاكم إلا الله ـ يجعلون صاحب السلطة في النظام الإسلامي وكيلاً عن الله ، سواء صرحوا بذلك أم لم يصرحوا ، لأن الحاكم في النهاية منفذ شريعة ومطبق قانون ، وهو في عمله هذا إنما ينوب عن صاحب السلطة الأصلي في المجتمع ، فإذا قلنا : إن السلطة لله كانت ديناً ووحياً ، ومن ثم كانت سلطة دينية وكان متوليها حاكماً بالحق الإلٰهي ونائباً عن الله ، وخليفة له وظلاً »[٥] هذا القول الذي صدر به مقاله دون أن يبين للقارىء بعد معنى الحاكمية في كتابات هؤلاء النفر ـ كما يسميهم ـ ولا معناها في زعمه هو ، وهو في ذلك كمن يضع نتائج ومسلّمات يؤمن بها ويعتقدها ويقررها ، ثم يبدأ التنقيب والتصيد لأية كلمة تؤيده في معتقده ، ولو كان آخرها ينقض أولها ، لذلك تراه يقتطع النصوص اقتطاعاً ، ويعتسف في تأويلها ليطوعها موافقته على معتقده .

فهو في كلامه هذا الذي نقلناه آنفاً لا يصدر عن مصطلحات إسلامية ولا عن الفكر السياسي الإسلامي ، وإنما يصدر عن الفكر السياسي الغربي بتصوراته وتطوراته ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه عودة متأنية فاحصة إلى كتب « الأحكام السلطانية » التي صدر مؤلفوها عن الفكرة الإسلامية عند وضعها ، وملؤوها بالشواهد والادلة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ...

فها هو **الماوردي** يقرر أن « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين والدنيا »[٦] .

وهذا **ابن خلدون** يعلن أن الخلافة « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ... فهي في الحقيقة

---

(٥) العربي ٢٢٠ ص ٥١ ـ ٥٢ .

(٦) الأحكام السلطانية ص ٥ .

خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا »[٧] ويحدد بشكل أوضح فيقول : « والخليفةُ يمثل النبي ﷺ ولا يتميز عن سائر المسلمين إلاّ من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين »[٨] .

أما **التفتازاني** فيما ينقل عنه الشيخ محمد رشيد رضا فيبين أنها « رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا خلافةً عن النبي ﷺ »[٩] .

ويحددها **عضد الدين الإيجي** بقوله : « هي خلافة عن الرسول ﷺ في إقامة الدين وحفظ حوزة الملة ... »[١٠] .

وهذا كله يذكرنا بكلمة **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه وهو أول خليفة في الإسلام « لست خليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله ﷺ » . تلك الكلمة التي تضع حداً بين الحقيقة والهوى ... هذا غيض من فيض من نصوص كثيرة تبين أن الخليفة في الإسلام خليفة عن رسول الله ﷺ في إقامة شرع الله وتنفيذ أحكامه .

أما بالنسبة لاختيار هذا الخليفة فإن الماوردي يقرر بصراحة أن الأمة ممثلةً بأهل العقد والحل هي صاحبة هذا الحق ، بل إنه ذهب بعيداً ليقرر أن لها الحق أيضاً في عزله إذا جار وانحرف ولم يقم بواجباته التي ألزمه الشارع القيام بها :

« فإذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها ، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً ، وأكملهم

---

(٧) المقدمة ص ٢٦ .

(٨) المقدمة ٢/٦٨٨ طبعة لجنة البيان العربي .

(٩) الخلافة ص ١٠ .

(١٠) المواقف ٨/٣٤٥ .

شروطاً ، ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته »[١١] .

و« إذا قام الإمام بما ذكرنا من حقوق الأمة ، فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وما عليهم ، ووجب له عليهم حقان : الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله ، والذي يتغير به حاله فيخرج به عن الإمامة شيئان : أحدهما : جَرْحٌ في عدالته ، والثاني : نقص في بدنه »[١٢] .

ويقول البغدادي : « قال الجمهور الاعظم من أصحابنا ـ أهل السنة ـ ومن المعتزلة والخوارج والنجدية : إن طريق ثبوتها ـ الإمامة ـ الاختيار من الأمة »[١٣] .

وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية يقول عن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « إنها ثبتت بالاختيار من أهل الحل والعقد »[١٤] .

أما بالنسبة لطاعة الخليفة وحدودها ، وهل هي عمياء أم مبصرة .

يقول النبي ﷺ : « لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف » ويقول أيضاً : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلاّ أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة »[١٥] .

وها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في أول خطبة يلقيها بعد أن اختاره المسلمون خليفة لرسول الله ﷺ :

« أنما أنا متّبع ولست بمبتدع : فان أحسنت فأعينوني وإن أسأت

---

(١١) الأحكام السلطانية ص ٧ .

(١٢) المصدر السابق ص ١٧ .

(١٣) أصول الدين ٢٧٩ .

(١٤) منهاج السنة ١/١٣٦ .

(١٥) صحيح مسلم ٣/١٤٦٨ فما بعد .

فقوموني . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

أما **الإمام ابن حزم الأندلسي** فقد بين هذا الأمر بياناً بما لا يدع ريبة لمستريب ، فها هو يقول : « فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فإن زاغ عن شيء منهما ، منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق ، فإن لم يؤمن أذاه إلاّ بخلعه ، خلع وولي غيره » ويقول : « والواجب إن وقع منه شيء من الجور ـ وإن قل ـ أن يكلم في ذلك ويمنع منه ، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن فلا سبيل إلى خلعه ... فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجِع وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق »[١٦] .

فالخليفة إذن في الإسلام « يمثل النبي ﷺ ولا يتميز عن سائر المسلمين إلاّ من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين »[١٧] وليس نائباً عن الله أو وكيلاً له أو ظله في الأرض كما زعم الكاتب .

والخلافة في نظر الفكر الإسلامي مسؤولية وأمانة ، وعلى من يتحمل هذه المسؤولية والأمانة أن يقوم بالواجبات الملقاة على عاتقه ، لذلك نرى الفقهاء المسلمين حرصاً منهم على التزام دلالات النصوص في هذا الموضوع وتعميق هذه الفكرة لا يعمدون إلى بيان « سلطات الخليفة » صنيعَ فقهاء القانون الدستوري في النظم الوضعية اليوم في بيانهم « سلطات رئيس الدولة » ؛ إنما نجدهم يقصرون الكلام على « واجبات الخليفة » . وفي صنيع هؤلاء الفقهاء تأصيل لذاتية الإسلام في نظام الحكم ، وبيان أن السلطة تكليف لا تشريف ، وردّ مسكِتٌ على كل من ينظر إلى الإسلام بعين الآخرين ويريد أن يحكم في

---

(١٦) الفِصَل في الملل والأهواء والنحل ٤/١٠٧ فما بعد .

(١٧) المقدمة ٢/٦٨٨ .

نظمه مصطلحاتهم ومقاييسهم فيصف السلطة الحاكمة فيه بأنها سلطة كهنوتية تتصرف في الرعية حسب هواها ...

وفي ضوء ما ذكرناه تكون مسؤولية الإمام أو الخليفة في الإسلام مزدوجة ، فهو مسؤول أمام الله عز وجل ، ومسؤول أمام الأمة التي اختارته[١٨] .

ومن هنا قال الدكتور السنهوري عند بحثه طبيعة عقد الإمامة كما عرضه علماء الشريعة الإسلامية : أنه عقد حقيقي .

أي : إنه عقد مستوفٍ للشرائط من وجهة النظر القانونية ... ووصفه بأنه مبني على الرضى[١٩] .

فأين إذن دعوى الحق الإلهي المقدس ؟ وأين هي النيابة عن الله عز وجل ؟ بل أين هو الخليفة أو الحاكم ظل الله في الأرض ؟!. ولكنها محاولات تطبيق المصطلحات الغربية على الإسلام وفكره ونظمه .

تقســـيم النظم السياسيـــة :

ولقد كان عجباً من العجب ما عمد إليه الكاتب من ذكر أقسام للنظم السياسية تنطوي تحت نظم حتمية ، وأخرى إرادية ، وخلص من ذلك إلى اتهام الباحثين القائلين بأن الحاكمية لله بأنهم يدخلون نظام الحكم في الإسلام تحت النظم الحتمية التي تلغي إرادة الإنسان !! دون إشارة إلى المصدر الذي أخذ عنه هذا التقسيم ـ الذي إن صح فهو لغير المسلمين في الماضي ، ولا علاقة للفكر السياسي الإسلامي به ـ وأكثر من هذا حين أراد بيان التقسيم الحقيقي للنظم السياسية الذي يراه هو ، حصر ذلك بقسمين : « نظمٌ تحكم أو

---

(١٨) النظريات السياسية للدكتور الريس ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

(١٩) المصدر السابق ١٦٧ ـ ١٦٨ .

تتحكم تحت ستار الحق الألهي .. ونظم تفصح عن أن الحاكم بشر ينوب عن البشر »[٢٠] وجعل القول بأن الحاكمية لله ـ كما أراد أن يفهمها ـ ادخال لنظام الحكم في الإسلام ضمن النظم التي تحكم أو تتحكم تحت ستار الحق الإلهي « ... على حين أن السلطة التي يزعم أربابها أن الحاكم في السياسة والاقتصاد هو الله سبحانه وتعالى تحدد أنها تحكم باسم الله ونيابة عنه لا عن الناس ... »[٢١] مرة أخرى إنه الخلط أو التضليل المؤذي ، وإلّا فمن الذي زعم أن جميع الأنظمة التي عرفتها وتعرفها البشرية تنقسم فقط إلى هذين القسمين ، **فها هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون يوضح في مقدمته** أن النظم السياسية ثلاثة أنواع هي :

١ ـ الملك الطبيعي ، ويعرفه بقوله : « حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة » وهذا النوع أقرب ما نسميه اليوم الحكم الفردي أو الأوتوقراطي أو غير الدستوري .

٢ ـ الملك السياسي ، ويعرفه بأنه : « حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار » وهذا النوع يقابل ما نسميه اليوم بالنظم الدستورية ... وهو نظام مادي يقصر نظره على الشؤون الدنيوية فقط ويغفل الناحية الروحية في الإنسان ، لذا لا بد من نظام ثالث يراعي الآخرة ولا يهمل الدنيا وهذا النوع هو :

٣ ـ الخلافة ، ويعرفه بقوله : « هو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ... » وهذا هو نظام الحكم الإسلامي الذي يغاير النظامين السابقين في كل شيء »[٢٢] .

---

(٢٠) و(٢١) العدد المذكور ص ٥٢ .

(٢٢) النظريات السياسية ص ١٢٠ ـ ١٢٢ بتصرف .

فلم إذن هذه الجبرية وهذا التجني ... لقد كان الغربيون منسجمين مع أنفسهم تماماً عندما عادوا إلى أصولهم الرومانية واليونـانية القـديمة فاستلهموها ووضعوا أسس الديمقراطية بأنواعها المختلفة والتي اكتوى الناس بنارها بعد أن جروا كثيراً وراء سرابها الخادع ، وما محاولات التعديل الكثيرة التي أدخلت على أساس الفكرة الديمقراطية في الغرب إلاَّ دليل على ما نقول ... أما نحن فيجب إن أردنا الإصلاح الحقيقي للأمة أن نكون أيضاً منسجمين مع أنفسنا بعودة صادقة إلى أصولنا لنستلهمها ؛ لا أن نحاكي غيرنا دون تمييز لأن في ذلك التبعية والذل والذوبان في فكر الآخرين ...

الاجتهـــاد : ونقرأ للكاتب أثناء محاولته تهيئة أذهان القراء ليتقبلوا بعد ذلك منه حشر الإسلام تحت النظم التي تحكم أو تتحكم تحت ستار الحق الإلٰهي قوله : « ... فإننا سنجد أنفسنا ـ أي في المجتمع الإسلامي ـ أمام بشر يمارسون سن القوانين بالاجتهاد والحكم بموجبها ، والقيام على تنفيذها ... ومع ادعائهم أنهم وكلاء عن الله ... فهم بشر يحكمون رغم القول بأن الله هو الحاكم ... »[٢٣] .

ولو أن الكاتب المذكور كلَّف نفسه مؤنة الرجوع إلى أي مصنف من المصنفات التي تركها علماء الأصول من المسلمين قديماً ، وإن لم يكن بمقدوره ذلك لسبب أو لآخر ، فقد كان بإمكانه الرجوع إلى ما كتبه الباحثون من علماء المسلمين حديثاً في الأصول ، لوجد أثناء مراجعته لما كتبه هؤلاء أو أولئك حول الاجتهاد ما يغاير الفكرة التي يحملها هو تماماً ، وأنه لا يكون اجتهاد إلا حيث لا يوجد نص شرعي من قرآن أو سنة أو إجماع ، ويبنى تأسيساً على النصوص الشرعية لا على الهوى . ويعرف الأصوليون الاجتهاد بقولهم : بذل الفقيه جهده للوصول إلى حكم شرعي من دليل تفصيلي من

(٢٣) العدد المذكور ص ٥٢ .

الأدلة التي يضعها الشارع للدلالة على الأحكام[٢٤] . فالتزام النصوص الشرعية والخضوع لأحكامها هو الأصل الذي تبنى عليه السلطة في الإسلام .

معنى الحاكميـــة لله : ويأخذنا الكاتب إلى إيضاح ما فهمه من معنى الحاكمية لله فيقول :

« فهم قد اشتقوا حاكمية الله سبحانه من مصطلح الحكم ظانين أن القرآن يستخدم مصطلح الحكم للدلالة على النظام السياسي ، على حين أن أغلب الاستخدامات القرآنية لهذا المصطلح واردة بمعنى القضاء والفصل في المنازعات وبمعنى الحكمة ... »[٢٥] وقبل أن نرد على كلامه هذا لا بد أولاً من بيان تناقضه مع نفسه ، إنه قبل قليل يذكر أن نظام الحكم هو التشريع والقضاء والتنفيذ « إنما هي في النهاية ـ السلطة ، أي نظام الحكم ـ في يد بشر يمارسون التشريع والقضاء والتنفيذ ... » فما دام القضاء جزءا من نظام الحكم ، وما دام القرآن الكريم قد استخدم مصطلح « الحكم » للدلالة على القضاء ، فكيف إذن يبيح لنفسه أن يقول بأن هذا المصطلح لا يدل على النظام السياسي ؟ وكيف يخطىء هؤلاء النفر لأنهم ذهبوا إلى أن من معاني مصطلح « الحكم » في القرآن الكريم أن تكون الحاكمية لله تعالى ؟.. وهل الرسول ﷺ الذي بين للناس ما نزل إليهم كان قاضياً مسلماً إلى جانب رئيس دولة ديمقراطية تحكم الأمة بنظام آخر غير النظام الإسلامي ويسلم له هذا الحاكم بأن يكون من وراء القضاء تشريع آخر غير تشريعه ؟!

أما الآن فلنعد إلى القرآن الكريم لنرى هل كان الكاتب صادقاً في زعمه أم

---

(٢٤) انظر المستصفى للغزالي ٢/ ٣٥٠ ، الإحكام للآمدي ٤/ ٢١٨ ، إرشاد الفحول للشوكاني ٢٥٠ ، مصادر التشريع الإسلامي لأستاذنا الدكتور محمد أديب صالح ١٦٢ فما بعد . وحديث معاذ بن جبل حين أرسله الرسول ﷺ قاضياً إلى اليمن .

(٢٥) العدد المذكور ص ٥٢ .

متجنياً على الله ورسوله وعلى هؤلاء النفر ...

يقول الله تعالى : ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهم ثم لا يجدوا في أنفُسهم حَرَجاً ممَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْلِيماً** ﴾ (النساء : ٦٥) .

﴿ **ومن لم يَحْكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الكافرونَ** ﴾ (المائدة : ٤٤) و﴿ **الظالمون** ﴾ (المائدة : ٤٥) و﴿ **الفاسقون** ﴾ (المائدة : ٤٧) .

﴿ **وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ (المائدة : ٤٩) .

ولقد ذكر الإمام القرطبي عند تفسيره قوله تعالى ﴿ **فأولئك هم الكافرون** ﴾ : (ويروى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات أهي في بني اسرائيل ؟ قال : نعم هي فيهم ، ولتسلكنّ سبيلَهم حذوَ النعلِ بالنعل ... إلى أن يقول : إن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر)[٢٦] فأين الحق الإلهي المقدس ؟

وفي تفسيره الآية التالية يقول : « أي وأنزلنا إليك أن أحكم بينهم بما أنزل الله ، أي : بحكم الله الذي أنزله إليك في كتابه »[٢٧] أي أن الحاكم وهو الرسول ﷺ منفذ لشرع الله تعالى .

وفي قوله تعالى في سورة التوبة ٣١ : ﴿ **اتَّخَذوا أحبارَهُمْ ورهبانَهُمْ أرباباً مِنْ دونِ اللهِ ...** ﴾ الذي بينه رسول الله ﷺ وشرحه عندما قال له عدي ابن حاتم وكان نصرانياً قبل أن يشرح الله صدره للإسلام : إنهم لم يعبدوهم . فقال عليه الصلاة والسلام : « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم

(٢٦) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٩٠ فما بعد .

(٢٧) الجامع لأحكام القرآن ٦/٢١٢ فما بعد .

الحرام ، فاتبعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم » وشرح القرطبي له بقوله : أي : جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء . وقال : سئل حذيفة رضي الله عنه : هل عبدوهم ؟ فأجاب : لا ، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه[٢٨] .

وقوله تعالى في سورة يوسف الآية ٤١ : ﴿ **إنِ الحكمُ إلّا للهِ أَمَرَ ألّا تعبدوا إلّا إيّاهُ ذلك الدينُ القيّمُ** ﴾ دليل قاطع على وجوب أن تكون شريعة الله هي المحكمة والنافذة ، وأن من أخص خصائص الحاكم في الإسلام تنفيذ شرع الله ، وهذا هو معنى الحاكمية لله تعالى الذي قصده هؤلاء النفر كما يسميهم الكاتب لا كما ذهب إليه هو في تحميل كلامهم ما لا يحتمل ، وفي التجني عليهم باستنتاجات ذكرها هو بناء على نصوصهم على حد زعمه ... فهو ينقل نصاً عن السيد أبي الأعلى المودودي في كتابه « المصطلحات الأربعة في القرآن » وكم كنت أتمنى لو أنه عاد إلى الكتاب المذكور حقيقة وإلى الصفحة التي ذكرها هو في مقاله وهي (١٢٥) ليجد أن النص الذي نقله محرف كما سأثبته فيما بعد ، ولو أنه اطلع على جميع ما كتبه السيد المودودي حول هذا الموضوع ، أو ما كتبه غيره من هؤلاء النفر من المشتغلين بالعمل والدراسات في الحقل الإسلامي ، قبل أن يصدر أحكامه الجائرة التي تجافي البحث العلمي النزيه ...

فالمودودي وفي النص نفسه الذي نقله الكاتب يقول : « فإن كانت السلطة التي يستند إليها المرء لاتباعه قانوناً من القوانين أو نظاماً من النظم سلطة الله تعالى ، فالمرء ـ لا شك ـ في دين الله عز وجل ، وإن كانت تلك السلطة سلطة ملك من الملوك ، فالمرء في دين الملك ، **وإن كانت سلطة المشايخ**

---

(٢٨) المصدر السابق ٨/ ١٢٠ .

والقسوس فهو في دينهم »[29] وهذه العبارة الأخيرة لم ترد في مقالة الكاتب ولا ندري هل أسقطها هو عامداً أم أنْ المجلة التي نقل النص عنها هي التي أسقطتها[30] . فالمودودي إذن لا ينادي بحق إلٰهي مقدس للحاكم بل كل الذي يقرره أن تكون شريعة الله هي المحكمة ، وأن الحاكم في ممارسته مهمته يجب عليه أن ينفذ شرع الله تعالى ، وهذا هو معنى الحاكمية عنده ، وتجده يقول في الكتاب المذكور نفسه وفي الصفحة ١٢٢ : « والمراد بإخلاص الدين لله ألا يسلم المرء لأحد من دون الله بالحاكمية والحكم والأمر ، ويخلص إطاعته وعبوديته لله تعالى إخلاصاً لا يتعبد بعده لغير الله ولا يطيعه إطاعة مستقلة بذاتها » وفي هامش الصفحة نفسها يشرح قوله السابق فيقول : « معناه أن تكون إطاعة المرء لغير الله ـ أياً كان هو ـ تابعة لإطاعة الله تعالى ومتضمنة فيما قد رسم لها من الحدود .. إلى أن يقول ... وقل مثل ذلك في الحكومة ، فهي إن كانت مبنية **على القانون المنزل من عند الله تعالى قائمة بإنفاذ حكم الله في أرضه** فإن إطاعتها واجبة ... » وهذا المعنى مستمد من قول رسول الله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي رأسه كزبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » .

ويقول سيد قطب رحمه الله في هذا المجال بكل وضوح ما يعتبر مغايراً تماماً لكل استنتاجات الكاتب التي حملها لهؤلاء النفر : « ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الأمر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة كما كان الأمر فيما يعرف بـ « الثيوقراطية » أو الحكم الإلٰهي المقدس !! ولكنها

---

(٢٩) المصطلحات الأربعة ص ١٢٥ .

(٣٠) لدى الرجوع إلى المجلة التي نقل الكاتب عنها نص أبي الأعلى تبين أنها أوردت هذه العبارة ، فانظر أمانة البحث العلمي عند الكاتب !!

تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة ، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة » « وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله ﷺ ، وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله ... » « فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ... إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لمعرفة ما يريده الله ... »[31] فليس هنالك إذن من تلازم بين قولهم : الحاكمية لله تعالى ، وبين ما يدعيه الكاتب من أن معنى ذلك سلطة دينية وأن الحاكم ظل الله في الأرض ... والحكم في الفكر السياسي كان إسلامياً بمعنى أنه يرتبط بشريعة الله تعالى ... أما في المصطلحات الغربية فكان دينياً لأنه يرتبط بطبقة رجال الدين ... لذلك لم يكن في الفكر السياسي الإسلامي سلطة زمنية وأخرى دينية ، فالسلطة هي التي تبني المسجد وتنشىء المصنع وتشيد المدرسة وتعبّد الطريق وتجاهد لإعلاء كلمة الله في الأرض ... أما عندهم فكانت سلطة مختصة بالمغفرة ، والحرمان منها ، وأخرى لبناء المدرسة وتعبيد الطريق ...

إن من طبيعة الإسلام الذي هو منهج الله تعالى المتكامل للحياة في شتى جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ... إن من طبيعته أن يكون هنالك سلطة تنفذ وتطبق شريعة الله تبارك وتعالى ، فعندما نقول مثلاً : أمر الإسلام بالعدل وحرم الظلم . من الذي سينفذ العدل ويحارب الظلم ؟ هل هنالك مندوحة عن أن يكون هنالك قضاء وقضاة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وعن أن تكون هنالك سلطة تنفيذية تنفذ هذه الأحكام . وعندما نقول بالحدود والتعازير (نظام العقوبات الإسلامي) وغير ذلك كثير من التشريعات والأحكام ، فمن الذي سينفذ ذلك ويطبق ؟ لا بد أن تكون هنالك سلطة تنفيذية تطبق وتحتكم إلى شريعة الله تبارك وتعالى .

---

(٣١) المعالم ص ٦٠ ، ٩٢ ، ٩٣ .

إن الإسلام من حيث هو في نصوص القرآن الكريم والسنة والتطبيق العملي في عصر النبوة والراشدين يقتضي أنه لا يطبق إلا إذا كان هنالك نظام حكم يطبقه سواء على صعيد الفرد أو على صعيد الجماعة أو الدولة ، أو على صعيد الدولة المسلمة في علاقاتها بالدول الأخرى ...[٣٢] .

وأخيراً فإننا بعد أن انتهينا من مناقشة القضايا الأساسية التي أثارها الكاتب في مقاله والذي أعادنا إلى أوائل هذا القرن وبشكل خاص إلى الخمسينيات منه حيث كنا في موقف الدفاع أمام ما يتعرض له الإسلام من هجوم فكري مركز من المنصرين والمستشرقين وتلامذتهم من المستغربين والذي انتهى إلى غير رجعة ... لقد جاء بعد أن فلّت كل الأسلحة وأصبحت القضية تاريخية ، فماذا يعني هذا الطرح الجديد ؟ والذي يجعلنا نقول لصاحبه : ولكن جئت في الزمن الأخير ... لذلك نستطيع ان نحكم على كاتبه بالتجني على من اتهمهم وعسى أن لا يكون صاحب غرض وهوى .

وإن جميع الأفكار التي عرضها في مقاله وتبناها ليست مستوحاة من تراث الأئمة والمفكرين المسلمين في هذا المجال كما ادعى بدليل ما أوردناه من نقول اقتبسناها عن مؤلفاتهم .

وإنه في كل ما صدر لم يصدر إلا عن الاستسلام لأفكار ومصطلحات غريبة عن هذه الأمة وفكرها طالما سعى الساعون من أعدائنا إلى أن تكون هي المنطلق للحكم على الفكر الإسلامي ونظمه .

إن التطبيق الواقعي لشرعنا ومنهجنا الذي تعبدنا الله عز وجل بإقامته وتنفيذه يشهد بأنه هو الذي حقق فعلاً لا قولاً كغيره من المناهج الوضعية - وبخاصة الديمقراطية بأنواعها المتعددة والتي شدهت صاحبنا - ما تطمح البشرية في أن تصل إليه ..

---

(٣٢) عن محاضرة للأستاذ الدكتور محمد أديب صالح بتصرف .

فها هو محمد ﷺ رسول الله وأول حاكم للمسلمين يقرر مع القرآن الكريم أنه بشر كالبشر تماماً ، وأن الميزة التي تميزه فقط في كونه يتلقى الوحي من الله عز وجل ﴿ ... **إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ** ... ﴾[٣٣] ويقول مخاطباً أصحابه عندما أرادوه أن لا يقوم بأي عمل وهم يتعهدون بأن يكفوه ذلك : « إن الله يكره من عبده أن يتميز » ويقول : « إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد » « ويم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » وفي تطبيقه العملي لذلك حتى إنه كان يُقِيدُ من نفسه ...

وما بينه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول خليفة للمسلمين قائلاً : « وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ... »[٣٤] .

ولا تزال كلمة عمر رضي الله عنه الخليفة الثاني ترن في أذن الزمان صارخة تطلب من المؤمنين المخلصين السير على ذلك النهج الذي حقق إنسانية الإنسان ، وأرسى قواعد العدالة المطلقة يوم أن كان العالم آنذاك بشقيه الغربي (الرومان واليونان) والشرقي (فارس وتوابعها) يرسف في قيود الظلم ، ظلم الإنسان لأخيه الإنسان : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ... خذ الدرة واضرب بها ابن الأكرمين ، واعلُ بها هامة أبيه ـ والي مصر ـ » وهو عندما يبين للرعية حقها في تقويم اعوجاج الحاكم ونقده وبيان انحرافه « مارأيكم لو أني ملت برأسي إلى الدنيا هكذا ـ انحرفت عن إقامة الحق الذي هو شرع الله عز وجل ـ وجواب الأعرابي له : لقوَّمناه بسيوفنا . ورد عمر رضي الله عنه : الحمد لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ من

---

(٣٣) الكهف : ١١٠ .

(٣٤) البداية والنهاية لابن كثير ٥/٢٤٥ .

إذا اعوج عمر قوموه بسيوفهم » « اتق الله ياعمر .. لا خير فيهم إن لم يقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها » لم يكن يهدف من وراء ذلك امتصاص نقمة ، ولاصرف أنظار رعيته عن مظالم واقعة ، ولكنه كان ينطلق في ذلك مقتدياً برسول الله ﷺ الذي خط للحكام من بعده الطريقة المثلى في إدارة شؤون الحكم والسلطة ... ولو تصفحنا التاريخ لوجدناه مليئاً بما يكذب ما ذهب إليه الكاتب ، وأن نهضة الأمة لن تكون إلا بإحقاق الحق وإبطال الباطل ...

أما الآن فقد أصبح بامكاننا أن نخلص إلى النتائج التالية :

١ - التزام المسلمين بفكرة الخلافة من لدن صحابة رسول الله ﷺ وحتى سقوط الخلافة على يد الدونمة ، وأن الحاكمية لله عز وجل ، وتلقّي ذلك بالقبول والإجماع ، حتى جاء الدكتور عمارة يبين لنا أن ما كان عليه المسلمون من لدن رسول الله ﷺ وحتى الآن خطأ يجب تصحيحه ؛ والله عز وجل يقول في كتابه الكريم : ﴿ **ومن يُشاقق الرسولَ من بعدِ ما تبيَّنَ له الهدى ويتبعْ غيْرَ سبيلِ المؤمنينَ نُوَلِّهِ ما تولّى ونُصْلِهِ جهنَّمَ وساءت مصيراً** ﴾ .

٢ - ومع الأسف فإن بعض الكتاب المسلمين الذي سقطوا تحت وطأة ثقافة نصرانية عمت المنطقة بعد سقوط الخلافة في أوائل هذا القرن ، فجعلت الحكم الديني « الثيوقراطي » في أوربا نافذة أطلت منها على سائر أنظمة الحكم ذات الارتباط بالدين - ومنها النظام الإسلامي - دون نظر إلى أشكال التناقض والخلاف الكثيرة والعميقة بين الحكم الثيوقراطي والحكم الإسلامي .

٣ - الخطأ المنهجي الذي وقع فيه الكاتب والذي يتلخص بحمل معطيات حضارة على أصول حضارة أخرى غريبة عنها كل الغرابة .

٤ ـ الخلط في المصطلحات ، واعتبار أن مصطلح الديمقراطية مسلّمة ومقياس ينظر من خلاله إلى سائر أنظمة الحكم وكأنها القاعدة العالمية التي لا قاعدة سواها ، وأن من البدهيات العلمية : أن الشورى شيء والديمقراطية شيء آخر ؛ وليطمئن : إن نظام الإسلام شوري وليس ديمقراطياً .

٥ ـ لا بد عند البحث من اختصاص يؤهل صاحبه للنظر ، وذلك للوصول إلى الحقيقة ، خاصة وأن اللقب العلمي شيء والعلم شيء آخر ، والكاتب يعرف أكثر من غيره ما عاناه بلده بالذات خلال الممارسات التي وصفت بالديمقراطية وحلّت فيها إرادة الإنسان مكان إرادة الله عز وجل ـ على حد زعمه ـ طيلة العشرين سنة الماضية ...

وبعد فأبسط قواعد المنطق تقضي بأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، وأنه لابد للعلم من أن يمتلك الإنسان المتعلم أداته أولاً ، ولا بد من استعمال هذه الأداة لتحصيل العلم وإدراكه ثانياً ، وبعد هذا وذاك لا بد أيضاً بعد حصول المعرفة من خُلُق المعرفة الذي يحمل صاحبها على الالتزام بها ، وبالجملة لا بد من أدب العقل وأدب العلم والله تعالى يقول : ﴿ **ولا تَقْفُ ما ليس لك به علمُ إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ ويقول الصديق أبو بكر رضي الله عنه : « أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت بكتاب الله برأيي » فإذا كان هذا حال أبي بكر الذي صحب رسول الله وعاصر التنزيل فما بال هؤلاء يهرفون بما لا يعرفون ....

الفصل الثاني

مع خلف الله في مفاهيمه

وقع بين يدي كتاب « مفاهيم قرآنية » المنشور في سلسلة عالم المعرفة الكويتية في عددها التاسع والسبعين ، ذهب فيه واضعه الدكتور محمد أحمد خلف الله إلى أن الإسلام دين لا دولة ، وأن سلطة الرسول ﷺ سلطة نبوة ورسالة ليس غير ، وأن سلطته التي كان يدير بها شؤون المجتمع الإسلامي كانت مستمدة من الله تعالى ، وهي خاصة بمرحلة خاصة من مراحل حياة المجتمع الإسلامي ، وهي مرحلة إدارة محمد بن عبد الله ﷺ لهذا المجتمع ، ولم تتجاوزها إلى غيرها من المراحل ، وأن الله عز وجل لم يبعث محمدًا ﷺ حاكمًا أو رئيس دولة ، بدليل أن الله تعالى خاطبه بقوله : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ ولو كان رئيس دولة لوجب أن يقول له : (فاحكمهم بما أنزل الله) وأن على المسلمين تبعًا لذلك أن يفرقوا بين صيغة [محمد يحكم الناس] وصيغة [محمد يحكم بين الناس] ويستدل كذلك بقوله تعالى في (سورة الأنعام - الآية : ٥٠) : ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِ ي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إني مَلَكٌ ، إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَا يُوحىٰ إلَيَّ ﴾ قائلًا بعد ذلك : محمد عليه السلام رسول من الله وليس مَلِكًا من الملوك ، وإن الله عز وجل هو الذي أمر نبيه ﷺ أن يقول للناس بأنه ليس ملكًا عليهم ... ويدّعي

بعد ذلك أن الدين ليس من القوائم الأساسية التي يقوم عليها بناء القوم أو الأمة ؛ بحيث إنه إن لم يوجد الدين تبدد القوم وانفرط عقد الأمة ، وأن قوله تعالى ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ إنما هو خطاب موجه لجماعة بعينها هي جماعة الذين أسلموا واستقروا مع النبي ﷺ في مدينة يثرب ... وأن الذي انتهى إليه الطوفي بتفكيره البشري واستنباطه العقلي ـ تقديم المصلحة على النص ـ هو الذي جاء الزمن فجعله حقيقة واقعة ، وقيمة ثقافية لا تمارسَ الحياة اليوم إلا على أساس منها ...

وقبل أن نقوم ببيان وجه الحق فيما ذهب إليه ، وتدليسه عندما أراد إيهام القارىء بأن هذه المفاهيم مستمدة من القرآن الكريم ، فنسبها إليه ، وأنه فهم القرآن الكريم على الأساس الذي كانت تفهمه عليه العرب وقت نزوله ، من حيث فهم الألفاظ اللغوية والعبارات الأدبية [!!] لابد من تعريف القارىء ببدعة فصل الدين عن الدولة ، وبصاحب هذه المفاهيم ليكون على بينة من أمره ...

فصــل الدين عن الدولــة

نبتت هذه القضية في الغرب بفعل عوامل متعددة ، منها : فساد التصور الاعتقادي الذي تسرب إلى النصرانية بعد اعتناق « شاؤول الطرسوسي » ـ بولس ـ لها ، ودخوله فيها بعد أن تخلى عن يهوديته ، وقد اعتبره « هـ . ج . ويلز » المؤسس الحقيقي للنصرانية ، وكذلك بسبب اعتناق الإمبراطور الروماني « قسطنطين » لها ، حيث دخلتها الوثنية والشرك بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم باعتناق النصرانية ...

ولم يقف الأمر عند حد الفساد الاعتقادي ؛ بل إن الكنيسة عندما أرادت

الوقوف في وجه السعار الشهواني المسيطر على الدولة الرومية ابتدعت الرهبانية ، مما أدى بالتالي إلى انتشار الفسق والفجور والخلاعة حتى بين رجال الكهنوت أنفسهم ، وانغماسهم بالترف الذي يصفه الراهب « جيروم » بقوله : [إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء والمترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيما ...] إلى أن يقول [إن مجموع دخل مملكة فرنسة لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم] ويقول « درابر » في كتابه [الصراع بين الدين والعلم] : [وتسرب الضعف والانحراف بسبب الرهبانية والنظام الديني السلبي المصادم للفطرة إلى المراكز الدينية حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية ، وربما تسبقها ، في فساد الأخلاق والدعارة والفجور ...]

أضف إلى ذلك أن البابا كان يعتبر نفسه خليفة القديس « بطرس » ونائباً عن السيد المسيح عليه السلام ، وأنه يستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة ، الأمر الذي أدى إلى حدوث الصراع بين البابوات والأباطرة ، وانتهى بانتصار البابوات الذين اتخذوا من عقوبة الحرمان سلاحاً يشهرونه في وجه كل من لم يخضع لمشيئتهم ؛ واستغلت البابوية هذه السلطة لتفرض الإتاوات المالية الباهظة التي تجبى مباشرة إليها ؛ مما جعل الناس يئنون تحت هذا الإرهاق ، وقيام الحكام الساخطين باستغلال هذا الأمر لإثارة السخط العام ضد الكنيسة ، مستخدمين في هذا السبيل كل وسيلة من تعرية لرجال الكهنوت ، وبيان لخبايا حياتهم الشخصية ، إلى الكشف عن أقذارهم وأدناسهم التي يخفونها وراء وقار الزي الكهنوتي . والمراسم الكنسية ...

وبالمقابل فإن الكنيسة ـ من أجل أن تحتفظ بسيطرتها على

أتباعها - احتجزت لنفسها حق فهم وتفسير الكتاب المقدس ، وحظرت على أي عقل من خارج سلك الكهنوت أن يحاول فهمه وتفسيره ؛ ولم يقتصر هذا الأمر على أمور العبادات وما يتعلق بها من طقوس ، بل تعدى ذلك إلى جميع نواحي الحياة ، فادعت آراءً ونظريات جغرافية وتاريخية وفلكية وطبيعية مما كان سائداً ، وجعلتها مقدسة لا تجوز مناقشتها ولا تصحيحها ولا تجربتها ولا القول بفسادها ... الأمر الذي أدى إلى الصراع بين الدين والعلم ، وظهور فساد ما تبنته الكنيسة ؛ حيث تمكن العلماء من تزييفه ، وارتفعت أصواتهم بانتقاده ، فقامت حركة تنكيل بشع واضطهاد شديد لهؤلاء العلماء على يد محاكم التفتيش التي أنشأتها الكنيسة لمعاقبة الخارجين والمخالفين لما تقوله ...

هذه بعض الأمور التي أدت في النهاية إلى المناداة بفصل الدين عن الدولة ، وهي في الواقع : فصل بين الكنيسة وواقع الحياة ... فإذا كان للنصارى عذرهم ، وهم يعملون على ترسيخ هذا الفصل ، وحصر الدين داخل جدران المعبد [الكنيسة] فما لنا نحن المسلمين ولهذا كله ؟

إن ظروفنا التاريخية ، وطبيعة ديننا وتعاليمه ليست في شيء من هذا جميعه ، وباستطاعة أي منصف أن يدرك هذا الاختلاف بين الإسلام والنصرانية دون عناء من مقارنة بسيطة بينهما :

فالعقيدة الإسلامية ، والتصور الإسلامي للحياة والكون - فضلاً عن العبادات - لم تتغير ولم تتبدل ، هي كما كانت على عهد رسول الله ﷺ محفوظة بحفظ الله تعالى لها ﴿ إنّا نحن نَزَّلْنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ والإسلام هو الذي تولى إنشاء المجتمع الذي يريد ، ووضع له قوانينه ونظمه ، ولم يترك الأمر لا لفرد ولا لطبقة أو فئة ؛ ولم يحدث قط أن اضطهد الفكر أو منع العلماء من البحث والتجريب ، بل إن أزهى عصور

الحضارة الإسلامية تلك التي كانت تقوم فيه الدولة على مبادىء الإسلام ...

وعلى هذا كانت هذه القضية غريبة عن الحس الإسلامي والتصور الإسلامي ، وهي نبتة غريبة أوروبية لا أصل لها في واقع سلفنا الصالح ، وحضارتنا الزاهرة [انظر تفصيلاً أوفى في : كتاب « فصل الدين عن الدولة » من منشورات المكتب الإسلامي - بيروت] .

من هـــــو :؟

في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين الميلادي كان قد تقدم بأطروحة لنيل رسالة الدكتوراه من كلية الآداب بالقاهرة تحت عنوان « الفن القصصي في القرآن » رُفضت بإجماع أعضاء لجنة المناقشة ، ورُدَّت إلى صاحبها الذي تظلم إلى السلطة السياسية يومها ، فرفع شكوى إلى وزير المعارف الذي أحال الرسالة إلى الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله - عضو جماعة كبار العلماء في ذلك الوقت ، وشيخ الأزهر فيما بعد ، وبعد أن درس الشيخ رحمه الله الرسالة وضع تقريرًا حولها ، جاء فيه قوله :

يذكر المؤلف أن الذي دفعه إلى هذا البحث ما رآه من :

(١) أن المستشرقين يطعنون على القرآن فيما جاء به من قصص وأخبار يرون أنها لا تتفق والواقع التاريخي الذي يعلمون[1] ، وأنها تدل على جهل محمد [ﷺ] بالتاريخ .

---

(١) من المعروف تاريخيًا أن نشأة حركة الاستشراق في الغرب جاءت بعد فشل الحروب الصليبية ، ودخلها اليهود الذين التقت أحقادهم على الإسلام مع أحقاد هؤلاء النصارى الذين تجمعهم بهم الخلفية التوراتية في العهد القديم ، من هنا جاءت =

(٢) **وأن المسلمين منذ عهد النفر الأول الذين عاصروا النبي ﷺ قد استقبلوا كل ما ذكر في القرآن على أنه تعبيرات جادَّة ، يراد بها معانيها فيما جاءت به ، وتأثرت عقليتهم بما جاء من الآيات الدالة على أنه يقص أنباء الغيب التي لم يكونوا يعرفونها ، فقالوا بأن أخبار الأولين آية صدق النبي [ﷺ] ودليل إعجاز القرآن ...**

ثم يجمع بين هؤلاء المسلمين وأولئك المستشرقين في حكم واحد ، إذ يقول : [وليس من شك عندي في أن مصدر الخطأ فيما ذهب إليه من آمن بهذه الأشياء وصدّق كل ما فيها من تاريخ ، أو من أنكرها وادّعى أنها أخطاء تاريخية أو قصص ملفقة ، جهلُ أولئك وهؤلاء أو تجاهلهم لما بين الأدب والتاريخ من علاقات] .

هذا هو أهم ما دعاه إلى أن يسلك سبيلاً آخر في فهم القرآن الكريم ،

= محاولتهم في الطعن على كتاب الله تعالى والتشكيك بقصصه ، لأنه فصّل وأفاض في بيان أخلاق بني إسرائيل ، وغدرهم ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ووصف أحوالهم ومواقفهم في كثير من آياته ، كما أنه صحح كثيرًا من المعلومات الواردة في التوراة « العهد القديم » وهتك الستر عن أحبار يهود الذين كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ، يفترون على الله الكذب ، ليأكلوا به ثمنًا قليلاً ، ﴿ إِنَّ هذا القُرْآن يَقُصُّ على بَني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذي هُمْ فِيه يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦] فضلًا عن أنه انفرد دون الكتاب المقدس بعهديه : القديم والجديد ، بذكر أقوام بادت ، كعاد وثمود ، وذكر قصة أصحاب الكهف ، وسيل العرم ، وأصحاب الأخدود ، وهجرة إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام إلى الأرض المقدسة في الحجاز ، وقيامهما ببناء الكعبة ـ أول بيت أقيم لعبادته تعالى على الأرض ـ وإقامة إسماعيل عليه الصلاة والسلام هناك ... فإذا كان هذا عذرهم ، فما هو عذر المؤلف المذكور حيث ذهب إلى مدىً أبعد منهم في الطعن على كتاب الله تعالى بحجة أنه يريد الذبّ عنه ، وكف أذى المستشرقين !!

سماه « الفن القصصي » ورأيه في ذلك يتلخص في أن [القصص القرآني نمط من أنماط القصة الفنية التي لا يلتزم الفنان فيها الصدق وتحري الواقع ، وإنما يعطي نفسه من الحرية ما يغير به ويبدل ، ويزيد ويخترع] ولا يقف بهذا عند قصة أو قصص بعينها ، ولكنه يطرد هذا الشأن في كل ما قصَّه القرآن الكريم ؛ سواء في ذلك ما جاء عن الأنبياء والرسل والأمم ، وما جاء عن غيرهم ، فيذكر قصة آدم وإبليس ، وقصة الخليقة والملائكة ، وقصة كلام عيسى عليه السلام في المهد ، ونجاته من اليهود ، وأنهم لم يصلبوه ولم يقتلوه ، وقصة ناقة صالح ، إلى غير ذلك ... ثم لا يقف عند القصص القرآني ، بل يطرد هذا الحكم أيضًا على غيره مما جاء في الكتاب الكريم من أوصاف ونسب ـ ماضية كانت أو مستقبلة ـ فيذكر سؤال الله تعالى لعيسىٰ عليه السلام يوم القيامة ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (المائدة : ١١٦) ويذكر مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة : ٦) يذكر هذا وأمثاله في مجال ما يقرره من أن القرآن الكريم ليس فيه ما يدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلي أو لا تلتئم [!!] وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لا تصدق [!!] وإنما هو أسلوب قصد به غرس فكرة وراء ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة ، أو مشايعة الواقع النفسي الذي كان سائدًا عند المعاصرين ، استغلالًا لمعلوماتهم وإن لم تكن صحيحة في سبيل تأييد الدعوة التي جاء بها ؛ وقد زعم أن هذا تأويل للآيات ، وخاصة آيات القصص التي هي عنده من المتشابه ، يجري فيها مذهب السلف ومذهب الخلف من التسليم أو التأويل ...

ويستند إلى ما عرف عند العرب من التمثيل ، وما جاء في بعض

تمثيلات القرآن الكريم وتشبيهاته على هذا الأسلوب الذي لا ينظر إلى الواقع وإنما يجري فيه على ما ألفه العرب في هذا الباب ، كما زعم أن بعض المفسرين يقولون بمثل هذا إيحاءً أو تصريحًا ، وقد ذكر منهم : الإمام الرازي ، والإمام محمد عبده ...

ويقول بعد ذلك الشيخ شلتوت رحمه الله : هذه خلاصة فكرته وأهم عناصرها وعواملها ، ولا ريب أن هذه الأسس التي بنى عليها الكاتب بحثه أسس فاسدة ... ولننظر بعد هذا فيما يرمي به المسلمين منذ العهد الأول ، عهد المعاصرة للنبي ﷺ ، وعهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس وابن مسعود ، ومن إليهم من أصحاب النبي ﷺ رضوان الله عليهم ، وأهل اللسان العربي ، وقد سمعوا من رسول الله ﷺ ، وتلقوا منه هذا الكتاب الكريم ، وفهموا معانيه التي يدل عليها بمقتضى أساليب اللغة العربية ، وقد طُبعوا عليها ، ورضعوا لبانها ، واستمر هذا الشأن على جميع عصور المسلمين وعهودهم مدى أربعة عشر قرنًا .. ننظر فيما رمى هؤلاء جميعًا به من جهل أو تجاهل أو تأثر بما يخالف الواقع أوقعهم في فهم القرآن الكريم على غير وجهه الذي فطن إليه هو وأمثاله ممن يتناولون القرآن الكريم بمثل هذه الدراسات ... ثم ختم الشيخ شلتوت تقريره بقوله : وإن القرآن الكريم إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط فقد اقتحمت قدسيته ، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه ، وزلزلت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار وأحوال مستقبلة : كالبعث ، والحشر ، والحساب ، والجنة والنار ، ونحو ذلك ... وانفتح لكل إنسان أن يقول في كل هذا : ليس له مدلول ولا واقع يدل عليه ، ولكنه سيق لمجرد بعث الرغبة أو الرهبة أو العظة ، أو تقويم النفس وإصلاح المجتمعات ... سبحانك هذا بهتان عظيم ... إن

هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين .... (الهلال - فبراير ١٩٨٦م) .

رحم الله الشيخ شلتوت حيث لم يترك في تقريره الذي كتبه بعد قراءة « الفن القصصي » زيادة لمستزيد ، إلا أن أمرًا لا بّد من التنبيه إليه ، لأنه يتعلق بموضوعنا ، ألا وهو ادعاء صاحب « الفن القصصي » أنه أراد مما كتب الرد على المستشرقين الذين طعنوا على القرآن فيما جاء به من قصص وأخبار يرون أنها لا تتفق والواقع التاريخي ، فحقق لهم أكثر مما يريدون : حيث جهَّل المسلمين الأوائل جميعهم ، وشكك في كتاب الله تعالى كله ؛ وهؤلاء المستشرقون سواء أكانوا يهودًا أم نصارىٰ فإنهم ينطلقون في طعنهم على القرآن وعيبهم عليه من خلفية توراتية ، وحقد موروث على الإسلام والمسلمين ، فكتاب الله تعالى الذي يصفه الرسول ﷺ بأن فيه « نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ... وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ... من علم به سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ... » فضح تحريف الأحبار والرهبان للتوراة التي أُنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام من خلال ما قصه من أنباء السابقين ، فجاء طعن هؤلاء عليه ليصونوا هذه التوراة المحرفة ، والتي يشهد بأنها غير موثوقة السند المؤمنون بها أنفسهم ، ومن المعروف أن هناك نسختين للتوراة عند اليهود ؛ واحدة للعبرانيين ، وأخرى للسامريين ، وكل منهما تختلف عن الأخرى في عدد أسفارها ، وفي كثير من نصوصها ، ولم يكن الأمر عند النصارى - وهم من المؤمنين بها - بأفضل من اليهود ، فهناك طبعتان على الأقل للتوراة ، واحدة تستعملها الكنائس البروتستانية ،

والأخرى تستعملها الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية وتزيد عن الأولى بأسفار عدة اعتبرها البروتستانت زائفة ... وكان يكفي الاعتماد على ما كتبه هؤلاء للرد عليهم والطعن على كتابهم المقدس ، وما نظن أن صاحب « الفن القصصي » يجهل هذا ؛ بدليل أنه عندما استُكْتِب من قبل « لويس عوض » أيام كان المستشار الثقافي لمؤسسة الأهرام الصحفية في الستينيات من هذا القرن لباب « دائرة المعارف » في صحيفة الأهرام ليكتب مادة « يعقوب النبي » كان جميع ما كتبه حول هذه المادةِ مستقًى من التوراة ، رغم أنه يكتب للمسلمين ، ورغم أنه يدّعي في كتاباته أن اعتماده الأساسي على القرآن الكريم ... فقد كان مما كتبه في عدد الأهرام الصادر بتاريخ ٣٠ رمضان ١٣٨٤هـ ـ الموافق ١/ ٢/ ١٩٦٥م ، ما يلي :

[كان بين الأخوين التوأمين : العيص ـ عيسو ـ ويعقوب تنافس قوي حول من يكون كاهن الأسرة ، ومستودع أسرار السماء ... وأن العيص نزل من بطن أمه أولاً ، واعتُبر لذلك الابن الأكبر ، واستحق لذلك حقوق الابن الأكبر ، وكان من أهمها حسب التقاليد : أن يكون المسؤول الأول عن الأسرة بعد وفاة الوالد ، وأن يرث بركة السماء التي ورثها إسحق عن إبراهيم ، والتي تجعل منه كاهن الأسرة ، ومستودع أسرار السماء ، ومبلِّغ هذه الأسرار للبشرية ، ولكن يعقوب كان يطمح إلىٰ هذا المركز الديني ، واستطاع بذكائه العملي الخارق أن ينتصر على أخيه بحيلتين ، الأولى : حين اشترى منه حقوق البكورية ، وأفقده بذلك سنده الشرعي التقليدي ؛ والثانية : حين احتال على أبيه بتدبير من أمه ، وحصل على البركة التي كان من المفروض أن يتلقاها عيسو ـ العيص ـ] ثم يقول :

[وفي الطريق إلى الحدود السورية العراقية حيث كان يقيم خاله لابان ، رأى يعقوب رؤياه التي عدّها من وَحْيِ السماء ، والتي وُعد فيها يعقوب

بأن يكون ذلك المكان الذي رأى فيه تلك الرؤيا له ولأبنائه من بعده ... أقام يعقوب بعد العودة إلى أرض شكيم ـ نابلس ـ وعاوده الوحي في شكل الرؤى والأحلام ، وأخذ يدعو إلى نبذ الأوثان والأصنام وعبادة الواحد الديان ، فلم تستجب له القبائل الكنعانية ، وناصبته العداوة ، ورحل إلى الجنوب وأقام في منطقة بئر سبع ، وظلّ هناك إلى أن كانت رحلته إلى مصر مع أبنائه وأحفاده] ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر ـ حفظه الله ـ في كتابه [أباطيل وأسمار : ص ٢٧٧] معلقًا :

[وهذا الكلام على سقم عبارته ، وركاكة ألفاظه ، ومشابهته للغة منشورات المبشرين التي يدسونها في أيدي أطفال الأزقة والحارات خَلْسَة وخِيفَةً وتَرَقُّبًا ، يتبرأ بعضه من بعض ، ولست أدري كيف يطيق امرؤ مسلم قرأ القرآن العظيم ، أو سمع آيات الله تتلى عليه ، مما فيه ذكر أنبيائه ورسله ، أن يقرأ هذا الضرب الغثّ من الكلام عن نبي من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم ، فضلاً عن أن يخطّه بيمينه ويستودعه الورق ، بل أن يرضى نسبته إلى نفسه ، بل أن يذيعه على القراء الذين يعلم أنهم مثله مسلمون ؟ !] ويتابع الشيخ شاكر قائلًا : [وهذا الكاتب قد استخدم في معرض الحديث عن ثلاثة من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم : « كاهن الأسرة » و « مستودع أسرار السماء » و « مبلغ هذه الأسرار للبشرية » و « المركز الديني » و « الوحي » مفسّرًا بأنه الرؤى والأحلام !! وهؤلاء الأنبياء الثلاثة من رسل الله وأنبيائه الذين لا يتم لنا إيمان إلا بالإيمان بهم وتولّيهم ، والبراءة ممن يتبرأ منهم ، أو ممن ينسب إليهم من الأفعال والأعمال والصفات ما يخل بعصمة الأنبياء وحقوق النبوة ...] قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ من

رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة : ٢٨٥) إذن هو مطلع على التوراة ، يتبنى ما فيها ويذيعه على المسلمين ولو كان فيه الطعن على أنبياء الله تعالى ، وكأن هذا هو الذي جعله يذهب أبعد بكثير من أسلافه المستشرقين الذين ادّعى أنه يريد الردّ عليهم !! وهو بعد ذلك يقول عن نفسه في مفاهيمه [ص : ٧] : [كنت أول من اقتحم ميدان الدراسات القرآنية من بين طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب ... ثم تتابعت دراساتي القرآنية ... وكان الأساس في هذه الدراسات : دراسة المفاهيم ... أن يُفهم القرآن الكريم على الأساس الذي كانت تفهمه العرب وقت نزوله من حيث فهم الألفاظ اللغوية والعبارات الأدبية ...] أهذا هو الفهم القرآني الذي أملىٰ هذا الهراء بحق ثلاثة من أنبياء الله تعالى ؟ !

وبعد أن عرفنا الخلفية التي تحركه وتملي عليه ، نأتي على مفاهيمه والأدلة التي اعتسفها ليبرهن على صحة هذه المفاهيم !! إنه في معرض حديثه عن أن الإسلام دين لا دولة ، وأن محمدًا ﷺ لم يكن حاكمًا أو رئيس دولة يستدل بقول الله تعالى في سورة الأنعام [الآية : ٥٠] : ﴿ قل لَّا أقول لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَكٌ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ ويقول : محمد عليه السلام رسول من الله وليس مَلِكًا من الملوك ، والله عز وجل هو الذي أمر نبيه ﷺ أن يقول للناس بأنه ليس ملكًا عليهم] [ص : ١٧] .

وهنا نسأل : أهذا هو الأساس الذي يجب أن يفهم القرآن الكريم على ضوئه ؟ وهل هذا ما أراده الشيخ أمين الخولي عندما كان يقول ـ على ذمة الكاتب ـ : إن الأستاذ الإمام محمد عبده قد وضع حجر الأساس لهذه الدراسة ؛ عندما ذهب إلى أن القرآن الكريم يجب أن يُفهم على الأساس

الذي كانت تفهمه العرب وقت نزوله من حيث فهم الألفاظ اللغوية والعبارات الأدبية ؟ !

ومَنْ مِنَ العرب فهم كلمة « مَلَكٌ » مفرد « ملائكة » على أنها « مَلِكٌ » فالله عز وجل يقول لرسوله ﷺ : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائنُ الله ﴾ أي : لست أملكها ولا أتصرف فيها ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ أي : ولا أقول لكم : إني أعلم الغيب ، إنما ذلك من علم الله عز وجل ، ولا أطَّلع منه إلا على ما أطلعني عليه ﴿ ولا أقول لكم إني مَلَكٌ ﴾ أي : ولا أدّعي أني مَلَكٌ من الملائكة ، إنما أنا بشر من البشر يوحى إليّ من الله عز وجل ، شرفني بذلك ، وأنعم به عليّ ، ولست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى من ذلك ... [ابن كثير : ٢/ ١٣٦] فكيف فهم ـ وهو المتخصص بالدراسات القرآنية [!!] ـ أن النبي ﷺ لم يكن حاكمًا ولا رئيس دولة وهو يقول للمشركين من أهل مكة : ﴿ وَلَا أَقُولُ لكم إِنِّي مَلَكٌ ﴾ إلا لغاية في نفسه ؟ !

ويستدل بقصة سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال لربه عز وجل : [قال : رب اغفر لي وَهَبْ لي مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعدي] [ص : ٣٥] على أن كلمة [مُلْكًا] هنا بسطة الحكم والسلطان والقيادة ، وأن الله عز وجل استجاب له فأعطاه ما طلب فكان نبيًا مَلِكًا ، أو مَلِكًا نبيًا ، واجتمعت في شخصه السلطتان الزمنية والدينية ... ـ اليهودية دين ودولة ، والإسلام غير ذلك ، فهو دين فقط (!!) وبما أن محمدًا ﷺ تجرد عن هذه الصفة [مَلِك] فهو ليس سوى نبي رسول [ص : ١٥ ـ ١٦] ثم يذكر ما قاله القرآن الكريم على لسان بلقيس : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] ليبرهن على صحة تفسيره لكلمة [مُلْكًا] في قوله تعالى حكاية على لسان سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ رَبِّ اغفر لي وهَبْ لِي مُلْكًا ﴾ .

ولو أنصف نفسه ـ قبل قراء مفاهيمه ـ لأورد الآيات المتعلقة بسليمان عليه الصلاة والسلام في سورة [ص] كاملة ، حيث إن بعضها يفسر بعضًا ويوضح المراد من قوله تعالى ﴿ رب اغفر لي وهب لي مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ فقد جاء بعدها مباشرة : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٣٦ ـ ٣٩] فليس المقصود إذن مجرد السلطة والقيادة والسلطان ، وإنما : الممتلكات والقدرات التي تمتد إلى آفاق لا تصل إليها قدرات أحد من بعده ، كتسخير الرياح والجن ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : [قام رسول الله ﷺ يصلي ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثلاثًا ، ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » ثلاثًا ، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا ، فلما فرغ من الصلاة ، قلنا : يا رسول الله ، سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك . قال ﷺ : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ـ ثلاث مرات ـ ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ـ ثلاث مرات ـ فلم يتأخر ، ثم أردت أن آخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به صبيان أهل المدينة » .

أما ما أورده ليعضد المعنى الذي ذهب إليه بأن [مُلْكًا] تعني الحكم والسلطة ، من قول الله تعالى على لسان بلقيس ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ فقد خانه التوفيق أيضًا في هذا الاستدلال حيث إن بلقيس لما أحست من الملأ من قومها الميل إلى المحاربة ، مالت إلى المصالحة لمعرفتها بحقيقة القوة التي يمتلكها سليمان عليه الصلاة

والسلام ، وأنها ليست قوة بشرية ، ورتبت الجواب ، فزيفت أولاً ما ذكروه ، وأرتهم الخطأ فيه حيث قالت : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية ﴾ عنوة وقهرًا ﴿ أفسدوها ﴾ خربوها (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أذلّوا أعزتها ، وأهانوا أشرافها ، وقتلوا وأسروا ، فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب ، ثم قالت ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ أرادت : وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير ، لأنها كانت في بيت الملك القديم[٢] فسمعت نحو ذلك ورأت ... ﴿ وإني مُرْسِلَةٌ إليهم بهدية ﴾ وإني سأرسل إلى سليمان هدية أختبره بها ، فإن كان نبيًا لم يقبل الهدية ، أما إن كان مَلِكاً قبلها وانصرف ، وروي أنها قالت لقومها : إن كان ملكًا دنيويًّا أرضاه المال ، وعملنا معه بحسب ذلك ؛ وإن كان نبيًا لم يرضه المال ، وينبغي أن نتبعه على دينه [روح المعاني : ١٩/١٩٨] ﴿ فناظرةٌ بم يرجع

---

(٢) لقد فهم المسلمون الأوائل ، الذين عاصروا التنزيل ، أن الخلافة غير القوة الغاشمة التي تستعبد الناس وتستذلهم ، وهي التي عنتها ملكة سبأ بقولها : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ... ﴾ أخرج ابن سعد في طبقاته [٣/٢٢١] عن سفيان بن أبي العوجاء ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك ؟ فإن كنت ملكًا فهذا أمر عظيم ! قال قائل : يا أمير المؤمنين ، إن بينهما فرقًا ؛ قال : ما هو ؟ قال : إن الخليفة لا يأخذ إلا حقًّا ، ولا يضعه إلا في حق ، وأنت بحمد الله كذلك ؛ والملك يعسِف الناس ، فيأخذ من هذا ويُعطي هذا ... فسكت عمر رضي الله عنه .

وفيه أيضًا عن سلمان الفارسي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان رضي الله عنه : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهمًا أو أقل أو أكثر ووضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ؛ فاستعبر - بكى - عمر ...

وعند نعيم بن حماد في « الفتن » عن رجل من بني أسد شهد عمر بن الخطاب =

المرسلون ﴾ أبقبول أم برد ؟ وجاءها الرد من سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ أتمدونني بمال﴾ ؟ فما أعطاني الله من المال والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل ...

وهنا نسأل : إلى أي مدى وصلت سلطة سليمان عليه الصلاة والسلام المادية وحكمه المادي ؟ وكيف يمكن أن يكون المراد من دعائه : رب هب لي حكمًا وسلطة لا ينالهما أحد من بعدي ؟ وهل يمكن استجابة هذا الدعاء إلا بألّا يبقى حاكم من بعده على وجه الأرض ؟ وهل تحقق مضمون الدعاء بمفهومه على صعيد الواقع ، أم أن ما حفظه التاريخ - بل ما أوردته توراة اليهود في هذا السبيل - يناقض ما ذهب إليه الكاتب ؟ حيث يفهم منها أنه في فترة من فتراته كان تابعًا لفرعون مصر ، وأنه ترك دينه واتبع دين زوجته ابنة الفرعون [!!] ؟

وكأن الكاتب يريد أن يضرب بعض القرآن ببعض ليصل إلى غايته في فصل الدين عن الدولة ، ورسول الله ﷺ ، وقد سمع قومًا يتدارؤون في القرآن - يختصمون في فهمه - قال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه

= رضي الله عنه سأل أصحابه ، وفيهم : طلحة ، وسلمان ، والزبير ، وكعب رضي الله عنهم ، فقال : إني سائلكم عن شيء ، فإياكم أن تكذبوني وتهلكوا أنفسكم ، أنشدكم بالله ، أخليفة أنا أم ملك ؟ ... فقال سلمان : يشهد بلحمه ودمه أنك خليفة ولست بملك . فقال عمر : إن تقل فقد كنت تدخل فتجلس مع رسول الله ﷺ . ثم قال سلمان : وذلك أنك تعدل في الرعية ، وتقسم بينهم بالسويّة ، وتشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ، وتقضي بكتاب الله تعالى .. فقال كعب : ما كنت أحسب أن في المجلس أحدًا يعرف الملك من الخليفة غيري ، ولكن الله تعالى ملأ سلمان حكمًا وعلمًا ، ثم قال : أشهد أنك خليفة ولست بملك .. [انظر منتخب كنز العمال : ٤/ ٣٨٩] .

بعضًا ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم فردّوه إلى عالمه » [أحمد وابن ماجه] .

وهو في سبيل تأكيد ما ذهب إليه ، يحرف الكلم عن مواضعه ، فتراه يقرر أن كلمة « الحكم » في القرآن الكريم ليس لها المعنى السياسي الذي يعرفه الناس اليوم ، وإنما وردت فيه بمعنى القضاء والفصل في الخصومات والمنازعات ، ولذلك يقول : [يجب أن نفرق بين صيغة : محمد يحكم الناس ، وصيغة : محمد يحكم بين الناس ... فالأولى هي التي تصلح لرئيس الدولة ، أما الثانية فهي التي تصلح للقاضي ، وعبارات القرآن الكريم كلها وردت في الصيغة الثانية : الحكم بين الناس ولم تكن أبدًا حكم الناس] وقبل أن نبين زيف دعواه ، نسأل : هل كان الرسول ﷺ الذي بين للناس ما نزل إليهم قاضيًا مسلمًا إلى جانب رئيس دولة تحكم الأمة بنظام آخر غير النظام الإسلامي ، ويسلم له هذا الحاكم بأن يكون من وراء القضاء تشريع آخر غير تشريعه ؟ وهل يمكن أن يكون القاضي مسلمًا يحكم بين الناس بشرع الله تعالى إلى جانب حاكم يرفض هذا الشرع أصلاً ؟ وكيف يمكن للكاتب أن يوفق بين الأمرين إلا إذا أفصح عن غايته في قصر الإسلام على أن يصبح علاقة بين العبد وربه في مجال العقيدة والعبادة ، والتحاكم إلى البشر في الشؤون الأخرى ؟ ! وكيف يفسر لنا بعد ذلك قوله تعالى في [سورة النساء : ٦٥] : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ﴾ ؟ وقوله تعالى في [سورة المائدة : ٥٠] ﴿ أفحكمَ الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ﴾ ؟ وإذا كان الأمر كما ذهبتَ ، فكيف تُفسر وصف الله تعالى لذاته ﴿ فالله يحكم بينهم ﴾ ؟ وهل له عز وجل حق السلطة والحكم

والملك أم لا ؟ لأنه لم يقل : يحكمهم ، وإنما قال ﴿ يحكم بينهم ﴾ ؟ حيث من المعروف لغة : أن [حَكَمَ] تتعدىٰ باللام ، أو [على] أو [في] أو تُسَلّط على كلمة بين ، فيقال : حكم لهم ، أو عليهم ، أو فيهم ، أو بينهم ... وعلى هذا فإن آيات الحكم في القرآن الكريم تشمل القضاء كما تعني الحكم بالمعنى السياسي المعروف ... [الأمة : العدد الرابع والخمسون] .

ولو كان النبي ﷺ نبيًا رسولاً ولم يكن حاكمًا ، والإسلام دين وليس دولة ، فما معنى قول الله عز وجل : ﴿ يٰأَيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [النساء : ٥٩] .

موقفه من السـنة :

والملاحظ أن صاحب « المفاهيم » في كل ما قرر لم يرجع إلى سنة رسول الله ﷺ ، دون أن يبين سببًا لذلك ، إلا أننا نستطيع تبين السبب من خلال ما صرح به في ندوة مجلة « اللواء الإسلامي » القاهرية الذي نشرته ثم أكدته في عددها الصادر بتاريخ ٩/ ١٢/ ١٩٨٢م حيث قالت : [الدكتور خلف الله قال بصوته المسجل عندنا إذا أراد أن يسمعه : تفسير رسول الله للقرآن قول بشر] أي أن : السنة النبوية غير ملزمة ؛ بدليل قوله أيضًا [ما عدا القرآن فكر بشري نتعامل معه بعقولنا ...] [الوطن الكويتية بتاريخ ١٩/ ١١ و ١٧/ ١٢/ ١٩٨٢] وهو بهذا يناقض القرآن الكريم الذي حث على طاعة رسول الله ﷺ ، وأنها طاعة لِلّهِ تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠] ، وأمر المسلمين أن يأخذوا ما جاء به عليه الصلاة والسلام ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧] وقرر أنه لا ﴿ ينطق عن الهوى .

إن هو إلا وحي يوحىٰ ﴾ (النجم : ٣ ـ ٤) وأخبر أنه أوتي القرآن والحكمة ﴿ لقد مَنَّ اللَّهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [آل عمران : ١٦٤] قال الشافعي رحمه الله : فذكر الله تعالى الكتاب ، وهو القرآن ، وذكر الحكمة ، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ﷺ ، وهذا يشبه ما قال والله أعلم ، لأن القرآن ذُكِرَ وأُتْبِعَتْهُ الحكمةُ ، وذكر الله مَنَّهُ على خلْقه بتعليمهم الكتاب والحكمة ، فلم يجز ـ والله أعلم ـ أن يقال : الحكمة هنا إلا سنة رسول الله ﷺ ؛ وذلك أنها مقرونة مع الكتاب ، وأن الله افترض طاعة رسوله ﷺ ، وحتّم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لِقَوْلٍ فُرِض إلا لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لما وصفناه من أن الله جعل الإيمان برسوله ﷺ مقرونًا بالإيمان به ... [الرسالة : ٧٨] ويعلق شيخنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله على قول الشافعي رحمه الله فيقول : وواضح مما ذكره الشافعي هنا رحمه الله أنه يجزم بأن الحكمة هي السنة ، لأن الله تعالى عطفها على الكتاب ، وذلك يقتضي المغايرة ، ولا يصح أن تكون شيئًا غير السنة ، لأنها في معرض المِنَّة من الله سبحانه علينا بتعليمنا إياها ، ولا يمن إلا بما هو حق وصواب ، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالقرآن ، ولم يوجب علينا إلا اتباع القرآن الكريم والرسول ﷺ ، فتعين أن تكون الحكمة هي ما صدر عن الرسول ﷺ من أحكام وأقوال في معرض التشريع ... وإذا كان كذلك ، كان رسول الله ﷺ قد أوتي القرآن وشيئًا آخر معه يجب اتّباعه فيه ، وقد جاء ذلك مصرحًا في قوله تعالى في وصف الرسول ﷺ : ﴿ يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف : ١٥٦] وما دام اللفظ

عامًا فهو شامل لما يحله ويحرمه مما مصدره القرآن الكريم ، أو مصدره وحي يوحيه الله تعالى إليه ، وقد روى أبو داود عن المقدام بن معديكرب عن الرسول ﷺ : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » [السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : ٥٠ وما بعدها] وحول وجوب إقامة الدولة المسلمة ، روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « ... ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » وروى الشيخان في الحديث المتفق عليه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ : « ... تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » وأحاديث كثيرة ، مثل : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » و « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمَّروا عليهم » فإذا شرع هذا لثلاثة في فلاة أو مسافرين فشرعيته أولى لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار ، ويحتاجون لدفع التظالم والفصل في الخصومات ... [نيل الأوطار : ٨/ ٤٩٦] ولما سئل ﷺ : ما للخليفة من بعدك ؟ قال : « مِثْلُ الذي لي ... ما عدل في الحكم وأقسط في القَسْم ، ورحم ذا الرحم ، فمن فعل غير ذلك فليس مني ولست منه » وقوله عليه الصلاة والسلام أيضًا : « لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، فأولها نقضًا الحكم ، وآخرها الصلاة » .

وقد فهم أئمة المسلمين وعلماؤهم ـ ليس من الآيات والأحاديث فقط بل ومن السنة العملية للرسول ﷺ ـ أن الإسلام دين ودولة ، وأن للرسول ﷺ وظيفتين : التبليغ عن الله عز وجل ، وقد انتهت هذه الوظيفة بوفاته ﷺ ، والثانية : القيام على أمر الله ، وتنفيذ شرعه ، وتوجيه سياسة الدولة ، وهذه مهمة الخلفاء من بعده ، من هنا جاء قول عضد الدين الإيجي : [هي خلافة عن الرسول ﷺ في إقامة الدين وحفظ حوزة

الملة] [المواقف : ٦٠٣] وقول الماوردي : [الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا] [الأحكام السلطانية : ٥] وقول ابن خلدون : [فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا] [المقدمة : ١٨٠]

ولقد أجمع سلف هذه الأمة على أن نصب الإمام واجب شرعًا لا عقلًا - كما قال بعض المعتزلة(٣) - واستدلوا بأمور ، منها : إجماع الصحابة رضوان الله عليهم حيث قدموه على دفن النبي ﷺ [ما أن تحقق الصديق رضي الله عنه من وفاة الرسول ﷺ حتى خرج على الناس يقول لهم : ألا إن محمدًا قد مات ، ولا بد لهذا الدين من يقوم به ، ولم يُدفن عليه الصلاة والسلام حتى أقام المسلمون أبا بكر رضي الله عنه خليفة

---

(٣) المعتزلة : فرقة شذت عن أهل السنة والجماعة ، حكّموا أهواءهم في الدين ، وحسبوا أن ما يقولونه إنما هو حكم العقل ، لم يأخذوا الدين مأخذ المستهدي ، ولم يعترفوا بأنه نزل هاديًا للعقل ، إنما رأوا أن العقل هو المرتبة الأولى في معرفة الخير والشر ، ولو كان الأمر كذلك لما اختلفوا هم وتمزقوا شيعاً : تحمسوا تحمساً شديداً للجدل النظري ، واتسموا بفتور شديد للجانب العملي من الدين ، لذلك انصرف عنهم جمهور الأمة ، كانوا ما بين شاكٍّ بعدالة الصحابة رضوان الله عليهم منذ عهد الفتنة ، ومن هؤلاء : واصل بن عطاء : وما بين موقن بفسقهم ، ومن هؤلاء : عمرو بن عبيد : وما بين طاعن في أعلامهم متهم لهم بالكذب والجهل والنفاق ، ومن هؤلاء : النَّظَّام : وذلك أوجب ردّهم للأحاديث التي جاءت عن طريق هؤلاء الصحابة . والمعتزلة هم أول من استعدى السلطان على مخالفيهم في الرأي ، واعتمدوا القوة الغاشمة للسلطة السياسية لفرض هذه الآراء عليهم ، وقد اتصف رؤساء الاعتزال بقلة التدين ، وعدم الورع عن ارتكاب بعض المحرمات ، فقد روى الجاحظ - وهو من أئمتهم - في كتاب « المضاحك » أن المأمون العباسي - نصيرهم ومضطهد علماء أهل السنة والجماعة في فتنة القول بخلق القرآن - ركب يوماً فرأى ثمامة بن أشرس =

له] [شرح العقائد النسفية : ١٨١] .

ومنها : أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فسدّ الثغور وإقامة الحدود ونحو ذلك مما يتعلق به حفظ النظام واجب ، وهذا الواجب لا يتم إلا بإمام ...

ومنها : وجوب طاعته ، وهذا يقتضي وجوب حصوله ، وذلك بنصبه ، وأن ما أجمعوا عليه من وجوب طاعته بالمعروف شرعًا تقتضي أن نصبه واجب شرعًا ... وإذا كان الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلفوا فيما بعد على الخلافة ، فينبغي أن نعلم أن الخلاف كان على الشخص

= ـ من رؤوس المعتزلة ـ سكران قد وقع في الطين ، فقال له : ثمامة ؟ قال : إي والله ؛ قال : ألا تستحي ؟ قال : لا والله ؛ قال : عليك لعنة الله ؛ قال : تترىٰ ثم تترىٰ ... وروىٰ أيضاً أن غلام ثمامة قال له يوماً : قم صلِّ ؛ فتغافل ثمامة ، فقال له غلامه : قد ضاق الوقت ، فقم وصلّ واسترح ؛ فقال : أنا مستريح إن تركتني ... [الفرق بين الفرق : ١٠٤] ويذكر ابن قتيبة في [تأويل مختلف الحديث : ٢١] عن ثمامة بن أشرس الذي قاد حركة القول بخلق القرآن في عهد المأمون ، أنه رأى الناس يوم الجمعة يتعادون ـ يسرعون ـ إلى المسجد الجامع لخوفهم فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : انظر إلى هؤلاء الحمير والبقر ... ثم قال : ماذا صنع ذاك العربي بالناس ؟ ـ يعني رسول الله ﷺ ـ والمعتزلة هؤلاء هم الذين فتحوا ثغرات في مكانة الصحابة رضوان الله عليهم استطاع أن يلج منها المتعصبون من المستشرقين والمستغربين من أعداء هذا الدين حمى أولئك الميامين ، وأن يجرؤوا على رميهم بالكذب والتلاعب في دين الله تعالى ، مستندين إلى افتراءات النّظّام وأمثاله عليهم ... هؤلاء هم الذين عمل على إحياء فكرهم ولا يزال محمد عمارة وأمثاله ـ الذين لا يرون في تاريخ هذه الأمة إلا الثغرات والنقاط السود ـ لما في ذلك من توهين عرىٰ الإسلام ، والعيب على سلف هذه الأمة ، وتشويه صورة جيل القدوة في أذهان الناشئة مما يسهل على أعداء الإسلام من يهود وصليبيين وماركسيين مهمتهم في القضاء على دين الله ، واقتسام الأرض الإسلامية !! .

الذي يملأ الوظيفة ، لا على وجوب الخلافة وفرضية ذلك ووجوب إقامتها ... وفي ذلك يقول ابن حزم رحمه الله في [الفصل في الملل والأهواء والنحل : ٤/ ٧٨] : [اتفق جميع أهل السنة ، وجميع المرجئة ، وجميع الشيعة ، وجميع الخوارج على وجوب الإمام ، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله تعالى ، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ ، حاشا النَّجِدات من الخوارج فإنهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الإمامة ، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم ، وهذه الفرقة ما نرى بقي منهم أحد ، وهم المنسوبون إلى نجدة بن عمير الحنفي القائم باليمامة] وفي ردّه عليهم قال : [وقول هذه الفرقة ساقط ، يكفي في الرد عليه وإبطاله : إجماع كل من ذكرنا على بطلانه ، والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الإمام ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأئمة وإيجاب الإمامة - صحيح البخاري : كتاب الأحكام ؛ وصحيح مسلم : كتاب الإمارة ، ففيهما الكثير من هذه الأحاديث - وأيضًا فإن الله عز وجل يقول : ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴾ فوجب اليقين بأن الله تعالى لا يكلف الناس ما ليس في طاقتهم واحتمالهم ، وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته أن قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم في الأموال ، والجنايات والدماء والنكاح والطلاق ، وسائر الأحكام كلها ، ومنع الظالم وإنصاف المظلوم ، وأخذ القصاص - على تباعد أقطارهم وشواغلهم ، واختلاف آرائهم ، وامتناع من تحرى في كل ذلك - ممتنع غير ممكن ، إذ قد يريد واحد أو جماعة أن يحكم عليهم إنسان ، ويريد آخر أو جماعة أخرى ألّا يحكم عليهم ، إما لأنها ترى في اجتهادها خلاف ما رأى هؤلاء ، وإما خلافًا مجردًا عليهم ، وهذا الذي لا بد منه ضرورة ، وهذا مشاهد في البلاد التي

لا رئيس لها ، فإنه لا يقام هناك حق ولا حدّ ؛ حتى قد ذهب الدين في أكثرها ، فلا تصح إقامة الدين إلا بالإسناد إلى واحد أو إلى أكثر من واحد ، فإذن لابد من أحد ...] ولقد فصَّل ذلك علماء المسلمين الذين كتبوا في السياسة الشرعية والأحكام السلطانية ، مثل : الماوردي ، والفراء ، وابن خلدون ، والغزالي ، وابن تيمية ، وابن القيم وغيرهم ... وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول : [ويم الله لو أعلم أنه يسوغ لي فيما بيني وبين الله تعالى أن أخلّيكم وأمركم هذا ـ الخلافة ـ وألحق بأهلي لفعلت ، ولكني أخاف ألا يسوغ ذلك لي فيما بيني وبين الله تعالى ...]

من هنا نتبين خطأ ما ذهب إليه صاحب « المفاهيم » عندما قال : [إن عملية الاستخلاف لم تكن أبدًا عملية دينية ، وإنما كانت عملية مدنية ، وإن الأساس الشرعي لها لم يكن أبدًا النصوص القرآنية ، أو الأحاديث النبوية القطعية الدلالة والواردة في هذا الشأن ... وإنما كانت الاجتهادات العقلية التي بذلها الناس ...] وهو هنا يخلط بين أصل الخلافة ووجوب نصب الإمام ؛ الثابت بالنصوص القطعية من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، وقد ذكرنا بعضها آنفاً ، وبين طريقة اختيار الخليفة أو الإمام ... وهو في هذا كالنصارىٰ [يرى الإسلام دين عبادة ، ويريد أن يأخذ بالنظريات الغربية ، ويقيم عليها العروبة ، وهذا يقيم التضاد بين العروبة والإسلام] [ندوة القومية العربية والإسلام ص : ٦٧٣] ومما يؤكد أنه غربي المنهج والمنحى والمنزع ما كتبه بتكليف من جامعة « برنستون » الأمريكية حول « القيم الإسلامية والحياة الأدبية في مصر الحديثة » فقد جاء فيه قوله : [بدأ القرن التاسع عشر والثقافة مركزة في الأزهر في فروع الدراسة الإسلامية التي كانت تُدَرَّس على

مناهج القرون الوسطى ، والأدب مقصور على الآفاق الضيقة ... ثم اتجه النشاط حينًا في أواسط هذا القرن إلى حركة الطباعة ونشر الكتب المترجمة عن الغرب في مختلف العلوم ، وبدأت ثروة اللغة العربية تزداد بهذه التراجم ، وبدأت عقول المصريين تتنسم أرواحًا جديدة من أدب الغرب وثقافته ...]

الأمة والقومية والدين ...[٤]

يقول صاحب « المفاهيم » في الصفحة الحادية والتسعين : « والأمر الذي أريد أن ألفت إليه ذهن كل قارىء هو أن الخطاب في قوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ إنما كان موجهًا لجماعة بعينها هي جماعة الذين أسلموا واستقروا مع النبي ﷺ في مدينة يثرب » أي : الأنصار والمهاجرون فقط ؛ ولم يقل هذا إلا ليسوغ ما سوّده في الصفحة التي سبقت ، حيث قال : « إن الدين ليس من القوائم الأساسية التي يقوم عليها بناء القوم أو الأمة ؛ بحيث إنه إن لم يوجد الدين تبدد القوم وانفرط عقد الأمة » ويعقب على هذا كله بقوله في الصفحة الثالثة والتسعين : « وهذا الموقف هو موقف القرآن الكريم ، وهو الموقف الذي كان قبل أن يأخذ القوم ، وتأخذ الأمة المفاهيم السياسية الحديثة التي جاء بها الفكر السياسي في القرن التاسع عشر ـ يعني الفكر السياسي الأوروبي ـ عندما قرر مبدأ القوميات ، وأخذت الأمم تتعرف على ذواتها على أساس منه » .

---

(٤) انظر كتاب الأمة وعوامل تكوينها لأستاذنا محمد المبارك رحمه الله ، وما نشرته له مجلة الأمة حول ذلك في عددها الثالث عشر .

فهل إذا عدنا إلى القرآن الكريم نجد هذا الموقف هو موقفه ، أم أن الأمر نقيض ذلك ، وأن التجمع كان أصلاً على آصرة العقيدة والدين ؟ !

منذ البداية نقرر أن الأمة في المفهوم الإسلامي « مجتمع يشترك أفراده في العقيدة ومفاهيم الحياة ، وفي القيم الخُلقية والمثل الإنسانية ، وما يتبع ذلك أو ينبثق عنه من نظم وعادات ، أو شعائر وعبادات ، سواء أكانت هذه الأمة قبيلة ، حين كان التطور البشري يمر بمرحلة القبلية ، أم كانت الأمة قومًا حين كانت البشرية تمر بمرحلة تكوّن القوميات ، أم كانت مجموعة شعوب تجاوزت المرحلتين القبلية والقومية في اتجاه التجمع الإنساني ، وهي المرحلة الأحدث والأرقى والأعلىٰ » وقد وصف القرآن الكريم واقع البشرية في تطورها من القبيلة إلى الشعب ، أو القوم ، ثم التجمع على الصعيد الإنساني العام في قوله تعالى : ﴿ يٰأيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣] « لقد بدأت الآية بمخاطبة الناس جميعًا ، وانتهت إلى التعارف الإنساني ، ومرت فيما بينهما مرحلتا : القبائل والشعوب » وهذه المرحلة الأخيرة : مرحلة التجمع الإنساني المفتوح لجميع الشعوب والأقوام ، هي التي تقابل بعثة خاتم النبيين ﷺ الذي جُعلت رسالته للناس جميعًا : ﴿ يٰأيُّها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ [الأحزاب : ٤٥] ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ...

ولو عدنا إلى كتاب الله عز وجل نستعرض كلمة « أمة » لوجدنا أن هذه الكلمة وردت في آيات كثيرة تدل على الجماعة التي تشترك بوجه خاص في عقيدة ، أو قيم أخلاقية ، أو عمل مشترك ... ومن الأمثلة على ذلك :

- قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ [النحل : ١٢٠] ذلك أن إبراهيم يختلف عن قومه بعقيدته التي يتميز بها عنهم وينفرد بها ، فهم أمة ، وهو أمة ، هذا مع أنه منهم قوميًا ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ... ﴾ [الزخرف : ٢٦]
- وقوله تعالى : ﴿ كلُّ أمة تدعى إلى كتابها ﴾ [الجاثية : ٢٧] للأمة هنا كتاب مشترك يتضمن عقيدتها وشريعتها ودينها ...
- وقوله تعالى : ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ [الأنعام : ١٠٨] الآية تدل على اشتراك الأمة في القيم ، أي : مقاييس الخير والشر .
- وقوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكًا هم ناسكوه ﴾ [الحج : ٦٧] بينت الآية أن بين أفراد الأمة مناسك مشتركة في العبادات .
- وقوله تعالى : ﴿ ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك ﴾ [البقرة : ١٢٨] وصفت الأمة هنا بأنها مسلمة لله .

من الواضح في هذه الآيات كلها أن الأمة تشترك في عقيدة وقيم ، أي : أنها تشترك في دين واحد ؛ وليس الاشتراك في واحد منها النسب والأصل والجنس ... هذا إذا عرفنا أيضًا أن الأمة من الأَمِّ ، مصدر أمّ : أي قَصَد ؛ فوحدة القصد والاتجاه هي جوهر مفهوم الأمة ...

وقد تطلق كلمة « أمة » « في القرآن الكريم على طائفة من الناس ، وعلى فريق من قوم إذا كانت تجمع أفرادها صفة معنوية تمت إلى الدين بصلة ، كقوله تعالى : ﴿ أمة قائمة يتلون آيات الله ﴾ [آل عمران : ٦٦] وقوله تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : ١٥٩] وقوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وعلى هذا نقول : إن الأمة التي عناها القرآن الكريم هي تلك « الجماعة

الكبيرة التي تربط بينها العقيدة والدين ؛ ورابطة الدين ـ لدى التحليل العلمي لمضمونها ـ هي رابطة في المفاهيم الأساسية والحقائق الكبرى والقيم العليا ، وفي الكرامة الإنسانية ، وفي التشريع المبني على الحق ، وفي العقيدة المبنية على الحقيقة وعلى التصور الصحيح للوجود ؛ هذه الرابطة إذن تكتل حول الحق والحقيقة والخير والفضيلة ؛ وكل تكتل آخر هو تكتل مبني على العصبية ، أو على الظلم ، أو الشر ، أو الرذيلة ، أو المنفعة المحصورة بفئة خاصة ، أو على تصور ناقص للحقيقة والحق »

لذلك جعل القرآن الكريم الاختلاف في العقيدة بين نوح عليه الصلاة والسلام وابنه ، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام وأبيه ، ومحمد ﷺ وعمه عبد العزى ـ أبي لهب ـ سببًا للفصل بينهم في الارتباط الاجتماعي ؛ وهذا يجعل رابطة العقيدة والدين أعلا وأوثق ، وأولىٰ من رابطة النسب والقومية ... وجاء وصفه للمؤمنين بأنهم إخوة ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات : ١٠] وصفًا حصريًا ... وأوجب التناصر والموالاة بين المؤمنين بالإسلام دون أي اعتبار للاشتراك في القومية أو عدمه ، ومنع مناصرة الكافرين بالإسلام وموالاتهم من دون المؤمنين [الآيات الأخيرة من سورة الأنفال] وجعل الموالاة في الحق الذي أمر به الإسلام ، لذا جاء قول الرسول ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعىٰ بذمّتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم » ومنع التوارث بين المسلمين وبين غير المسلمين ولو كانوا من نسب واحد ، وشرع التوارث بين المسلمين ...

من هنا جاء إطلاق القرآن الكريم على المستجيبين لدعوته ﷺ والمؤمنين به وبرسالته ، مهما اختلفت نسبتهم القبلية والقومية « أمة »

وهي الأمة المسلمة التي حدَّد القرآن الكريم صفاتها بقوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ١١٠] وهذا الكلام ينطبق على المسلمين لا على غيرهم ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] والخطاب هنا للمؤمنين بمحمد ﷺ أي : للمسلمين ، بدليل أن الرسول ﷺ شهيد عليهم ، وهم شهداء على بقية الناس ...

أما « القوم » فهم الجماعة التي يجمع بينها أصل مشترك ونسب مشترك ، وقد يشتركون في دين واحد وعقيدة واحدة فهم حينئذ « أمة » و « قوم » ؛ وقد يختلفون في ذلك ... وقد نسب القرآن الكريم الأنبياء إلى أقوامهم ، وأقوامهم إليهم : ﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه ﴾ [هود : ٢٥] ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ [المؤمنون : ٢٤] ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ [البقرة : ٦٧] وأمثال هذه الآيات في القرآن الكريم كثيرة ، وهؤلاء الأقوام منهم كافرون بما جاء به أنبياؤهم ، ومع ذلك ينسبون إليه ، فيقال : إن بني إسرائيل هم قوم موسى ، ومثلهم قوم نوح ، وإبراهيم ، وصالح ، وهود ، وشعيب ...وقد ورد أكثر من مرة ذكر قوم محمد ﷺ ، وهم العرب ، كقوله تعالى : ﴿ وكذَّب به قومُك وهو الحق ﴾ [الأنعام : ٦٦] ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ [هود : ٤٩] ﴿ وإنه لذِكْرٌ لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

والانتماء إلى قبيلة ، أو شعب ، أو قوم ، أمر قسري ، لا يد للإنسان فيه ولا خيار ، وهذا الانتماء إلى قومية معينة لا فضل للإنسان فيه ، ولا يكسبه مزية « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » ولا يصلح بالتالي لكي يكون مذهبًا عقيديًا ، والدعوة إلى القومية في عصرنا أكبر

شاهد على ما نقول ، فقد انتهى دعاتها ما بين متبنٍّ صراحة للفكر الماركسي ، أو الاشتراكي ، أو ضمنًا ، وإن لم يصرِّح ، وبين متبنٍّ للفكر الرأسمالي « الليبرالي » ...

وصاحب المفاهيم هنا يخطىء باستخدام كلمة « الدين » وكان الأولى أن يضع مكانها كلمة « الإسلام » ما دام قد اختار لكتابه عنوانًا ألصقه بالقرآن الكريم ، والقرآن الكريم هو الكتاب الذي أوحىٰ الله تعالى به لرسوله محمد ﷺ وحوىٰ أصول الإسلام ... الأمر الذي استتبع لديه قياس « الإسلام » على « اليهودية » و « النصرانية » عند إصداره الحكم الجائر بأن « الدين » ليس من القوائم الأساسية التي يقوم عليها بناء الأمة [!!] وبالتالي الاعتساف في التفسير ، عندما قصر معنى قوله تعالى ﴿ هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ على المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة فقط ... في حين لو عدنا إلى الصحيفة التي وضعها الرسول ﷺ لتنظم العلاقة في الدولة التي أقامها والمجتمع الذي بناه ، وكانت نواته في المدينة المنورة ، لوجدناها تنص على أن المسلمين « أمة واحدة من دون الناس » وتجعل « العقيدة » هي الرابطة الأولى ...

والآية القرآنية ﴿ هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ التي قصرها على مسلمي يثرب ، جاءت في سورة الأنبياء الآية [٩٢] في نهاية استعراض شمل نماذج من الرسل الكرام صلوات الله تعالى عليهم ، ومعاناتهم مع أقوامهم في سبيل العقيدة التي آمنوا بها ، ودعوا أقوامهم إلى الإيمان بها ، وصبرهم على الابتلاء ، ورحمة الله تعالى بهم ، لتبين أن الأنبياء أمة واحدة ، تدين بعقيدة واحدة ، وتنهج نهجًا واحدًا ...

وجاءت كذلك في سورة « المؤمنون » الآية [٥٢] تعقيبًا كذلك على نماذج من الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ... وفي الآيتين كان

التأكيد على أن الأنبياء أمة واحدة رغم اختلاف أقوامهم وقبائلهم ، ولم يكونوا كذلك إلا بالعقيدة الجامعة والعمل الصالح المنبثق عن هذه العقيدة ...

النص والمصلحة[٥] :

ويصل في « مفاهيمه » في نهاية المطاف إلى القول بتقديم المصلحة على النص مشيدًا بالطوفي ؛ حيث يقول في الصفحة [١١٤] : [هذا الذي انتهى إليه الطوفي بتفكيره البشري واستنباطه العقلي ، هو الذي جاء الزمن فجعله حقيقة واقعة ، وقيمة ثقافية لا تمارس الحياة اليوم إلّا على أساس منها ...] وقال بأن هناك نصوصًا من القرآن الكريم وردت في بعضها أحكام أصبحت معطلة وينبغي أن تبقى كذلك تحقيقًا للعدل والعدالة ، ويضرب لذلك مثلاً بآيات القتال والغنيمة ... ويقول : إن النص القرآني إن لم يكن قادراً على تحقيق المصلحة في شأنها ـ شأن المعاملات ـ تركناه ولجأنا إلى الفكر البشري (!!؟) ... وينتهي إلى القول بأن مدار النصوص على المصالح ، فهي أصل والنصوص فرع (!!) وحينما يقع التعارض بين الأصل والفرع يشطب على الفرع ـ النص ـ ويستغنى عنه بالأصل ـ المصلحة ـ ولقد كان « محمد عمارة » الذي أحيا فكر المعتزلة أصرح منه عندما قال : (إن المصلحة هي المعيار ، وإنها مقدمة على النص ، ولو كان قرآناً قطعيَّ الثبوت قطعيَّ الدلالة) (القومية العربية والإسلام : ٥٥٤) .

---

(٥) انظر في ذلك ما كتبه أستاذنا الدكتور البوطي في مجلة الأمة في عددها الخامس والخمسين : (ص ١٧) حول ذلك : وأطروحته للدكتوراه : ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية .

والطوفي هذا المشاد به بأن الحياة اليوم لا تمارس إلّا على أساس ما وصل إليه بتفكيره البشري واستنباطه العقلي في القرن السابع الهجري ، هو سليمان بن عبد القوي الطوفي المولود في إحدى قرى بغداد عام (٦٥٦هـ) وهو في أصل مذهبه حنبلي ، معدود من أهل السنة والجماعة ، غير أنه تشيع بعد ذلك ، ثم غالىٰ في تشيعه حتى انحرف إلى الرفض كما نص على ذلك ابن رجب الحنبلي في (ذيل طبقات الحنابلة : ٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧) بل لقد اشتهر عنه الوقوع في أبي بكر الصديق وابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما ، وفي غيرهما من جلّة أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم أجمعين ... رفع أمره إلى القاضي سعد الدين الحارثي ، وقامت عليه البينة ، فعاقبه بالسجن مدة من الزمن ، ولما أطلق سراحه توجه إلى « قوص » وأقام هناك نزيلًا عند بعض النصارىٰ ، كما ذكر ذلك ابن العماد في (شذرات الذهب : ٦/ ٢٣٩) وقد اشمأز من غلوّه وتبرأ من فحش كلامه في حق الصحابة الشيعةُ أنفسهم ، فقد ترجم له عبد الحسين شرف الدين العاملي في كتابه (أعيان الشيعة) مستنكراً تطرفه وغلوّه ، وكان مما قاله عنه : (... وسليمان الطوفي من الغلاة الذين لا تزال خصومنا تحمّلنا أوزارهم) .

ويقول عنه أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : (على أن الرجل باتفاق من عرفوه ، أو ترجموا له ، كان مضطرب الفكر والسلوك ، فلم يستقر على اعتقاد ، ولا على منهج ، بل كان يتطوح في كثير من المعتقدات والمذاهب والمسائل بين وسائس وأوهام مختلفة تأخذه وترده ، وحسبك مصداقاً لذلك قوله عن نفسه :

أشعري حنبلي ظاهري

رافضيٌّ ، هذه إحدى العبر ...

ألف كتاباً في شرح الأربعين حديثاً ، وأفاض في الكلام عند شرحه لحديث : « لا ضرر ولا ضرار » حتى قال : « إن رعاية المصلحة أقوى من الإجماع ، ويلزم من ذلك أنها أقوى من أدلة الشرع ، لأن الأقوى من الأقوىٰ أقوى ... » إلى أن يصل به الأمر إلى القول بأن « النصوص مختلفة متعارضة : فهي سبب الخلاف في الأحكام المذموم شرعاً ، ورعاية المصالح أمر حقيقي في نفسه ، ولا يختلف فيه ، فهو سبب الاتفاق المطلوب شرعاً ، فكان اتباعه أولى ... » .

فكيف ينعت نصوص القرآن بالتناقض من يكون موقناً بأنه وحي من عند الله عز وجل ؟ ولو صحّ أن في نصوص القرآن الكريم تعارضاً وتخالفاً لكان ذلك أكبر دليل على أنها ليست من عند الله تعالى ، ولذا نبه الله تعالى عباده إلى أن تناسق القرآن ؛ وتوافق نصوصه في الدلالة والأحكام من أكبر الأدلة على أنه من عنده سبحانه ، فقال لهم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (النساء : ٨٢) وهل من عاقل لا يعلم أن اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم والأئمة في الاجتهاد لا يعني اختلاف النصوص في مدلولاتها ، ولكنه يعني أن واحداً غير معين قد وافق الحقيقة وأخطأها الآخرون ، وقد رفعت الشريعة عنهم تبعة هذا الخطأ على لسان النبي ﷺ عندما قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد » [متفق عليه] فالصحابة رضوان الله عليهم لم ينبع خلافهم من قوله ﷺ : « ألا لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة » ولكنه نبع من اختلاف فهم بعض الصحابة له ، ولذلك أخرها بعضهم تنفيذاً لحرفية الأمر ، ولم يبال في سبيل ذلك بخروجها من الوقت ، وصلّاها بعضهم في الطريق تفادياً للوقوع في خطيئتي تأخير الصلاة عن وقتها والتأخر عن الوصول إلى

بني قريظة في الوقت المحدد ، ولم ينتقد الرسول ﷺ أيًّا من الطرفين ...

وصاحب « المفاهيم » عندما يقول : (إن النص القرآني إن لم يكن قادراً على تحقيق المصلحة تركناه ، ولجأنا إلى الفكر البشري) فحجته في ذلك قول الفقهاء بأن المصلحة تتغير بتغير الأزمان ، وهنا لا بد من التنبه أولاً إلى أن الأحكام التي قصدها الفقهاء ، وأنها تتغير بتغير الزمن ليست الأحكام الواردة بصريح القرآن الكريم ، ولا تلك التي بينها رسول الله ﷺ ولا التي أنشأها إنشاءً عليه الصلاة والسلام ، وإنما هي الأحكام التي لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة ، وهي التي قال بها الأئمة بالقياس أو الاستحسان أو الإجماع ، ونحو ذلك ، أي : الأحكام التي وصل إليها هؤلاء رحمهم الله بتفكيرهم واجتهادهم ...

وصاحب « المفاهيم » في قوله السالف بدل أن يتهم فهمه للنصوص بالقصور ، نراه يتهم النص نفسه بعدم تحقيق المصلحة ، لذا يجب أن تُقدم المصلحة عليه وأن يلغى العمل بالنص ... هكذا ، وهنا يبرز تساؤل : أية مصلحة هذه التي تقدم على النص ؟ وما المعيار في تحديد كونها مصلحة ؟

والأحكام التي قال عنها صاحب « المفاهيم » إنها معطلة ، وتمنى أن تبقى معطلة بحجة المصلحة ، وضرب لها مثلاً : الأحكام المتعلقة بالقتال والغنيمة والسبي ... هذه الأحكام داخلة أصلاً فيما يسمى بأحكام الإمامة أو السياسة الشرعية ، وهذا يعني أن الخطوط العريضة لهذه المسائل كما يقول الدكتور البوطي : (إنما ثبتت بأحكام تبليغية لا تقبل التبديل والتغيير ، أما الوجوه المتعددة المختلفة للتنفيذ ، والمحصورة ضمن هذه الخطوط العريضة فأمرها عائد إلى إمام المسلمين ، يختار منها ما يرى أنه الأسَدُّ لمصلحتهم ... فمشروعية الأسر أثناء الحرب حكم

تبليغي ثابت ، والوجوه التنفيذية التي تندرج في داخله هي : القتل ، والمنّ ، والفداء بالمال ، والاسترقاق ... والمصير إلى أحد هذه الوجوه منوط بما يراه إمام المسلمين تبعاً لما تقتضيه مصلحتهم والظرف الذي يمرون به ... وإذا كان الاسترقاق واحداً من هذه الوجوه ، فإن ذلك لا يعني أنه حكم دوري تنفيذي مستمر على اختلاف الأوضاع والظروف ـ كما قد يتصور بعض الجهال ـ وإنما هو صلاحية احتياطية يعطيها الشارع سبحانه وتعالى لإمام المسلمين ، يجدها أمامه عند اللزوم ، ومهما كان احتمال الحاجة إلى استعمال هذه الصلاحية ضئيلاً ، فإن مقتضى صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان ، وإمكان استجابتها لكل الظروف الطارئة أن يكون فيها حكم احتياطي يعطي صلاحية التحرك المناسب لإمام المسلمين إذا ما فوجيء الناس بمثل تلك الظروف لسبب من الأسباب ... وكذلك توزيع الغنائم والأسلاب) وتطبيق ما تدعو إليه المصلحة من هذه الوجوه في نطاق أحكام السياسة الشرعية إنما هو سير وراء دلالة النص ، والتزام أمين ودقيق لتعاليم النبي ﷺ وهديه ... فاعجب لهذا الذي ينسج من عدم معرفته بالفقه وأصوله أوهاماً ، ثم يجعلها حيثيات يسوغ لنفسه بها الحكم على النصوص الشرعية بالطيّ والبعد بها عن الاعتبار ، ثم يدعو إلى اتخاذ المصلحة التي يراها الناس بأفكارهم ورعوناتهم وأهوائهم وريثاً لها وبديلاً عنها ... فإذا كان خالق الخلق سبحانه وتعالى من خلال نصوصه التي أوحى بها إلى نبيه ﷺ لا يحقق مصلحة البشرية ـ بزعمهم ـ فكيف يهتدون بفكرهم البشري الشائه إلى التعرف على هذه المصلحة ؟ وهل هم في منزلة تجعلهم أكثر إحاطة بمصلحة البشرية من خالقها ؟ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً ، إن هم إلا يخرصون .

هذه نماذج لمفاهيم شائهة ، ما كان لنا أن نتعرض لها لولا أن نسبها صاحبها ، ليروج لها بين المسلمين ، إلى قرآننا العظيم الذي لا يأتيه الباطل ، فكان لا بد من البيان خروجاً من العهدة وأداءً للأمانة ، والله الموفق للصواب .



الفصل الثالث

هل الأغلبية مبدأ إسلامي أصيل ؟

كان هذا عنوان المقال الذي كتبه في العدد الثالث من مجلة « الأمة » الدكتور عبد الحميد إسماعيل الأنصاري ، وذهب فيه إلى أن مبدأ الأغلبية الذي تقوم عليه الديمقراطية المعاصرة أفضل صيغة نظامية توصلت إليها البشرية عبر تجاربها الطويلة في أنماط الحكم .. (ص ٦٣) . وانتهى إلى تقرير أن مبدأ الأغلبية هذا أصل من أصول النظام السياسي الإسلامي ، وأن الإسلام سبق الديمقراطية المعاصرة إلى حكم الأغلبية ، وأنّ رسول الله ﷺ نزل على حكم الأغلبية ، وأنه حض في أحاديث كثيرة يقوي بعضها بعضاً على اتباع السواد الأعظم ، وكذلك كان الأمر في عصر الراشدين رضي الله عنهم .. (ص ٦٣ - ٦٤) .

وفسر تبعاً للدكتور الريّس رحمه الله وصية رسول الله ﷺ للمسلمين بلزوم الجماعة عند الفتنة ، بالأغلبية وقال : لذا اختار علماء السنة أن يسموا أنفسهم « أهل السنة والجماعة » أي : الكثرة ، تأييداً لمذهبهم .. (ص ٦٤) .

ومن أجل هذا ذهب إلى أن الآيات التي ورد فيها ذم الأكثرية لا علاقة

لها بمسألة الانتخابات أو شؤون السياسة والحكم ، فبعضها نزل في شأن الكفار ، وبعضها في شؤون العقيدة والآخرة ، ولا علاقة لها بمصالح الناس الدنيوية .. (ص ٦٤) .

نشأة الديمقراطيـــــــــة :

وقبل أن نتعرض لمناقشة ما قرره بشأن النظام السياسي الإسلامي ، لابد من تعريف موجز بالديمقراطية والشورى الإسلامية .

أول ما استعملت الديمقراطية كمصطلح سياسي أيـام الإغريق (اليونانيين القدامى) وتعني : حكم الشعب ، وتتميز في أنها تعتبر الشعب هو صاحب السيادة والتشريع والسلطان ..

والشعب الذي كان يشارك في الحكم آنذاك هو الشعب اليوناني الأصيل ، وهو لا يشكل في كل مدينة يونانية إلا عدداً قليلاً جداً من سكانها ، أما سائرهم فلم يكن يسمح لهم بممارسة أي أمر من أمور السلطة ، لأنهم يعتبرون أرقاء ، أو مواطنين من الدرجة الثانية .. فالديمقراطية اليونانية لم تكن تعني أن يمارس الشعب كله السيادة والسلطة ، وإنما نفر قليل منه ..

فالديمقراطية إذن مصطلح يوناني ، والحضارة الغربية بشقيها وريثة للفكر اليوناني هذا : وعنه نقلت الفكرة بعد تطويرها بما يتناسب مع العصر الحديث وحاجاته .

الديمقراطيـة المعاصـــرة :

بدأ مصطلح الديمقراطية بالظهور في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلاديين ، وظهر جلياً في الإعلان الفرنسي للحقوق

الصادر سنة ١٧٨٩م . خاصة في مادته الثالثة حيث نص على أن « الأمة مصدر السيادة ومستودعها ، وكل هيئة وكل شخص يتولى الحكم إنما يستمد سلطته منها » .. والديمقراطية اصطلاح يستعمل في الغرب في أغلب الأحوال بالمعنى الذي أعطته إياه الثورة الفرنسية ، ويشمل المضمون الواسع لهذا المصطلح : حق الشعب المطلق في أن يشرع لجميع الأمور العامة بأغلبية أصوات نوابه ، وعلى هذا فإن إرادة الشعب التي انبثقت عن النظام الديمقراطي تعني ـ نظرياً على الأقل ـ أن هذه الإرادة ذات حرة لا تتقيد مطلقاً بقيود خارجية ، فهي سيدة نفسها ، ولا تسأل أمام سلطة غير سلطتها ... (منهاج الإسلام في الحكم : ٤٧ وما بعدها) .

أما الديمقراطية المعاصرة فلم تكن من الناحية العملية إلا وليدة النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأنها نشأت على أثر ما بذلته الأمم الأوروبية من الجهد لمعالجة مشاكل النظام الصناعي الجديد ، وكان لابد أن يستعين أصحاب العقول الراجحة في ذلك الوقت بما كان سائداً من الآراء والعادات كما يقول « بيرنز » في كتابه (الديمقراطية) أي : أن الديمقراطية المعاصرة كانت محاولة جاهدة لمعالجة مشاكل الثورة الصناعية التي سادت أوروبا آنذاك ، كما يذكر المستشار علي علي منصور .

والديمقراطية المعاصرة هذه لم تسلم من النقد ، بل على العكس تماماً ، فقد تعرضت لموجات عنيفة من الانتقادات ، على أيدي أبنائها ، جعلت رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا مثلاً يقول في كتابه الذي عنونه بـ (مشكلة الديمقراطية) : « إن الأقلية هي التي تحكم في الواقع في ظل أي نظام » .

ومن الانتقادات التي وجهت إليها ما ذكره « بيرنز » في كتابه (الديمقراطية) قائلاً : « والحق أننا يجب أن لا نغترّ بالظواهر ، إذ أن الشخص رجلاً كان أو امرأة ، الذي يكدح طول يومه ليحصل على الكفاف لا يجد الوقت للتفكير ، وهو مهدد دائماً إن أبدى رأيه بحريةٍ أن يفقد عمله ، وهو مورد رزقه الوحيد ، وهذا الشخص ليس بالمواطن الحر المساوي لغيره الذي تحدثت عنه كتب الديمقراطية ، حتى ولو خلا الانتخاب من وسائل الإرهاب المباشر » ..

عدا عن أن الأحزاب وتعددها السائد في الديمقراطية المعاصرة يجعل أقلية ثابتة تحتكر السيادة السياسية ، وما الأغلبية إلا صورة مقنعة لتحكم هذه الأقلية أو تلك ..

وما ذكره « بارتلمي » من أن النظام الديمقراطي (ينزع بأصحابه إلى اعتبار إرادة الأمة إرادة مشروعة بذاتها ، أي : إلىٰ اعتبار أنها تمثل دائماً الحق والعدل ... إن هذا المبدأ ينطوي على الادعاء بأن السلطة تكون مشروعة نظراً لمصدرها ، وبناء على ذلك فكل عمل صادر عن إرادة الأمة يعد عملاً مطابقاً لقواعد الحق والعدل ، فوق متناول الشك والمناقشة من هذه الناحية ، لا لسبب إلا لأنه صادر عن إرادة الأمة ، فهذا المبدأ ـ سيادة الأمة ـ ينسب إلى الشعب صفة العصمة من الخطأ ، ولذلك فهو يؤدي بالشعب ، أو بممثليه إلى الاستئثار بالسلطة المطلقة ، أي : إلى الاستبداد ، إذ أنه طالما كانت إرادة الشعب تعد إرادة مشروعة ، لا لشيء إلا لكونها صادرة من الشعب ، فإن الشعب يستطيع إذن من الناحية القانونية أن يفعل كل شيء ، وهو إذاً يغدو في غير حاجة إلى أن يأتي بمبررات لما يعمل ويريد) أما « بنيامين كونستان » فيقول :

(إن ذلك المبدأ يقذف بنا للسير في الطريق المخيف لـلاستبداد البرلماني) (مبادىء نظام الحكم في الإسلام : ٥٧٤ وما بعدها) بل (إن الشيوعيين يصرون على أن الفقه الديمقراطي القائم على حرية الفنون والعلوم والسلوك الشخصي إنما هو مذهب خبيث وفاسد ، وإنهم يحتجون بأن الديمقراطية الرأسمالية تسمح بإفساد الشعب وخاصة شبابها عن طريق الأفلام والمسرحيات وبث التفاهة والفحشاء) (نظم الحكم الحديثة : ٣٥٩) .

رأي المـودودي في الديمقراطيـة المعاصـرة :

وما أدق ما ذهب إليه العلامة المودودي رحمه الله فيها عندما قال :

هذه الديمقراطية الغربية المموهة التي يتشدقون بها ، وبأن الحاكمية والسيادة فيها للشعب .. إذا سبرت غورها ، وأنعمت النظر في دخائلها ، علمت أن الـذين تتكون منهم مجـالسهـا لا يسن كلهم القـوانين ، ولا ينفذونها جميعاً ، بل يضطرون إلى تفويض سلطاتهم إلى رجال يختارونهم من بينهم ليشرّعوا قوانين ينفذونها ، ولأجل هذا الغرض يضعون نظاماً للانتخاب خاصاً ، ولا ينجح فيها إلا من يغري الناس ، ويستولي على عقولهم وألبابهم بماله وعلمه ودهائه ودعايته الكاذبة ..

(إبان المعركة الانتخابية نجد نشرات تبكي لها المروءة ، ويندى لها الجبين ، وترى الكثير من الحفلات تعقد لمدح النفس والطعن فيمن سواها ، وتستخدم لذلك الصحف والمجلات ووسائل الإعلام والدعاية المختلفة ، عدا عن شراء الذمم والأصوات بالأموال الكثيرة التي تدفع .. ويكاد في النهاية لا ينجح إلا من كان أكثر المرشحين كذباً ومَيْناً ، وأدهاهم تلفيقاً وتزويراً ، ومن كان أشدهم إسرافاً في المال) ..

ثم يصبح هؤلاء الناجحون بأصوات العامة « آلهة » لهم ، يشرعون ما يشاؤون من القوانين ؛ لا لصالح الجمهور ، بل لمنافعهم الشخصية ومصالح أحزابهم التي ينتمون إليها » ..

هذا هو الداء العضال الذي أصيبت به الولايات المتحدة وانكلترا وغيرهما من الدول التي تدور في فلك الديمقراطية الغربية ، والتي تدعي بأنها جنة الديمقراطية ..

ناهيك عما جرى من مظالم وطغيان وقضاء على مصالح الفرد والجماعة في الدول التي ابتليت بالأنظمة الفاشية والنازية ..

والتي كانت تعتبر نفسها جنة الديمقراطية كذلك ..

وما يجري اليوم من طغيان واستبداد وتحكم للفرد والمجموع في الدول التي تبنت النظام الشيوعي ، والتي تدعي كذلك أنها جنة الديمقراطية أيضاً ، وأنها الوحيدة التي تعمل لتحقيق مصالح الجمهور ...

يضاف إلى هذا تعدد مفاهيم الديمقراطية وتعدد تعريفاتها وميوعة ذلك ، ففي أوروبا الغربية مفاهيم للديمقراطية ، وليس مفهوماً واحداً ، فهي في فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، غيرها في الولايات المتحدة ، وغيرها في انكلترا ...

وفي أوربا الشرقية مفاهيم خاصة ومتعددة أيضاً ، فهي في رومانيا غيرها في يوغوسلافيا ، وفي بولونيا غيرها في ألمانيا الشرقية وهكذا ...

ولا ندري بعد ذلك أي صيغة من صيغ الديمقراطيات هذه يمكننا اعتبارها أفضل صيغة نظامية توصلت إليها البشرية عبر تجاربها

الطويلة في أنماط الحكم ؟ .. ولا ندري كذلك أي شكل من أشكالها ، أهي الديمقراطية المباشرة ، أم غير المباشرة ، أم الديمقراطية النيابية ؟ ! .

الشـــورى الإسلامية ومجالها :

الشورى : كلمة مشتقة من شُرْت العسل ، أشوره ، أي : أخذته من موضعه واستخرجته .. وهي مصطلح إسلامي يعني اجتهاد الجماعة الذين هم أهل لذلك ، وهم الذين يعرفون باسم « أهل الحل والعقد » وقد عرفها ابن العربي رحمه الله في (أحكام القرآن : ١ / ٢٩٨) بأنها : [الاجتماع على الأمر ، ليستشير كل واحد صاحبه ، ويستخرج ما عنده ...] .

ومجالها : فيما لا نص فيه ، عن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ورد عليه حكم ، نظر في كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضي به ، قضى به ، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله ﷺ فإن وجد ما يقضي به ، قضى به ، فان أعياه ذلك ، سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء ؟ فربما قام إليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سنة سنّها رسول الله ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به .. ثم قال : وكان عمر يفعل ذلك ، فإذا أعياه أن يجد في الكتاب والسنة .. جمع علماء الناس واستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به .. (أعلام الموقعين : ١ / ٢٠ ـ ٢١) .

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « كان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ، كهولاً كانوا أو شباباً » .

وهكذا فالشورى التي أوجبها الإسلام : اجتهاد ، وهي هنا اجتهاد الجماعة ، ولابد لها من الاعتماد على سند شرعي ،، وهي ليست لمجموع أفراد الأمة ، أو الأكثرية المطلقة فيها ، لعدم تحقق أهلية الاجتهاد لديهم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإذا جَاءَهَم أَمْرٌ منَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إلىٰ الرَّسُولِ وَإلىٰ أُولِي ٱلأَمْـرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّـذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء : ٨٣) ، فالذين يعلمون الأمور هم أهل المشاورة وأحق بها من الذين لا يعلمون ..

ولا تكون الشورى إلا فيما لم يرد فيه نص (حيث اتفق علماء المسلمين سلفاً وخلفاً أن كل ما نزل فيه وحي من الله تعالى لم يجز لرسول الله ﷺ ولا لغيره من المسلمين أن يشاور فيه الأمة) ولا تكون كذلك إلا في الأمور المباحة ، ولا يمكن أن تكون في فرض ، ولا مندوب ، ولا مكروه ، ولا حرام ، لأن الحكم قد عُيِّنَ في كل منها ، فالشرع يُلزم الأمة بأخذه كما عين ، فلا تدخلها الشورىٰ مطلقاً للاتفاق على ذلك ، وقد كان النبي ﷺ يشاورهم في أمر الحرب مما ليس فيه حكم ، لأن معرفة الحكم إنما تُلتمس منه ... ومن زعم أنه كان يشاورهم في الأحكام فقد غفل غفلة عظيمة ... (فتح الباري : ١٧ / ١٠٢ وما بعدها) وفي هذه الحالة وجب على ولي الأمر المسلم أن يجمع مجلس شوراه (أهل الحل والعقد) ليتعاونوا جميعاً في السعي لمعرفة الحكم ، بالسبل الاجتهادية ذات الضوابط والقيود المعروفة في مظانّها من كتب الشريعة .

ولا يصح كذلك أن تنتهي الشورى إلى ما يخالف نصاً ، أو يخرج على روح الشريعة .. ومن هنا كانت الشورى الإسلامية بمفهومها ومجالها ومستندها تختلف اختلافاً بيناً عن الديمقراطية القديمة والمعاصرة ،

ويكفي أن نذكر أن الأمة أو الشعب في ظل نظم الديمقراطية هو الذي يشرع لنفسه ما يشاء من مذاهب الحكم ، إما مباشرة أو عن طريق المجالس النيابية ، والحاكم في هذه الحالة ملزم بالرجوع إلى ما تقضي به هذه المجالس والتقيد بما تريده ..

أما في الإسلام فمصدر الحكم والتشريع والسيادة إنما هو الله عز وجل ، والناس جميعاً ، حكاماً ومحكومين ، يستوون في الخضوع لسلطانه وتنفيذ أوامره ..

فالتصور الديمقراطي إذن ناشيء وصادر عن الفكر البشري ، بينما التصور الإسلامي على العكس من ذلك تماماً فهو صادر عن الله عز وجل وليس من صنع الإنسان ..

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ ، وَلكنْ جَعَلناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نشاءُ مِنْ عِبادِنا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلىٰ صِراطٍ مُستَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، أَلَا إِلى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (الشورى : ٥٢ ـ ٥٣) .

مفهـــوم الجماعـــــــــة :

يقول الدكتور متابعاً الريس رحمه الله : (وأوصى رسول الله ﷺ المسلمين أن يلزموا عند الفتنة الجماعة ، أي : الأغلبية ، لذا اختار علماء السنة أن يسموا أنفسهم « أهل السنة والجماعة » أي الكثرة ، تأييداً لمذهبهم » ولم يذكر دليلاً يعضد ما ذهب إليه .

وقبل تقرير مفهوم الجماعة نقول :

سأل ابن الكواء علياً رضي الله عنه عن السنة والبدعة والجماعة

والفرقة ، فقال له علي :

يا ابن الكواء حفظت المسألة فافهم الجواب :

السنة ، والله ، سنة محمد ﷺ ، والبدعة ما فارقها .

والجماعة ، والله ، مجامعة أهل الحق وإن قلوا ، والفرقة : مجامعة أهل الباطل ولو كثروا ..

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه فيما يرويه عنه عمرو بن ميمون :

يا عمرو بن ميمون أتدري ما الجماعة ؟ قلت : لا .

قال : الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ..

وفي رواية : فضرب على فخذي وقال : ويحك ، إن جمهور الناس فارقوا الجماعة ، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل .

وقد أورد صاحب فتح الباري قوله :

وقد شذ الناس في زمان الإمام أحمد بن حنبل إلا نفراً يسيراً ، فكان ذلك النفر هم الجماعة .

وكان القضاة والمفتون والخليفة وأتباعهم هم الشاذين ، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة .

وفي رواية عن رسول الله ﷺ قوله :

« افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة هي الجماعة » ..

وفي رواية أخرى : « إلا واحدة ، الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي » . ولذلك يقرر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه « إغاثة اللهفان » مفهوم « الجماعة » بقوله :

(وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة كان المراد به : لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك به قليلاً ، والمخالف له كثيراً .. لأن الحق هو الذي

كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه ، ولا نظر إلى كثرة أهل البدع) ..

ومن أحق من صحابة رسول الله ﷺ والجيل الأول بتحديد مفهوم هذه المدلولات التي نشأت في إطارهم والتزموا مقاييسها ؟ ...

فالجماعة التي أمرنا رسول الله ﷺ بلزومها عند الفتن ليست إذن الكثرة أو الأغلبية كما ذهب إليه الدكتور ، وإنما هي التزام الحق الذي قامت عليه السموات والأرض ، والتزمه الرسول ﷺ وأصحابه ..

الأغلبية في النظام السياسي الإسلامي

قرر الدكتور عبد الحميد في مقاله أن مبدأ حكم الأغلبية أصل من أصول النظام السياسي الإسلامي خاصة في عصري الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم .. (حسب رأيه) .

ونحن لا نستطيع قبول هذا التقرير أو التسرع بنفيه إلا بعد العودة إلى أصول النظام السياسي الإسلامي أو بعضها ، ثم النظر في التطبيق العملي الواقعي لها من خلال سيرة الرسول ﷺ والراشدين رضي الله عنهم .. وعندها فقط نستطيع القبول أو النفي ..

القـــــــرآن الكـــــــريم :

وأول ما يجب أن نتعرف عليه في هذا المجال ، أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ باستشارة المسلمين من حوله ﴿ وشاوِرْهُمْ في الأمرِ فإذا عَزَمْتَ فتوكَّلْ على الله ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ، وكيف جعل التشاور من صفات المسلمين التي يستحقون من أجلها المدح والثناء ﴿ ... وَأَمْرُهُمْ شورىٰ بينهم ﴾ (الشورى : ٣٨) ، ولا نريد هنا أن ندخل في الخلاف

الذي حدث بين العلماء حول قوله تعالى : ﴿ وشاورهم ﴾ هل الأمر للوجوب أو الندب ، وفي ذلك يقول ابن كثير : (وقد اختلف الفقهاء هل كان واجباً عليه ، أو من باب الندب تطييباً لقلوبهم ؟ على قولين) ولكننا نقول : إن مشروعية الشورىٰ ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، روى الترمذي في « جامعه » عن أبي هريره رضي الله عنه قال : « ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من النبيﷺ .. » وقال البخاري رحمه الله : (كانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضع الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ) (فتح الباري : ١٧/ ١٠٥) وعن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال : ما أمر الله عز وجل نبيهﷺ بالمشورة إلا لما علم فيها من الفضل ... وقال ابن عطية : والشورىٰ من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ... (الطبري : ٤/ ١٥٢ ، والقرطبي : ٤/ ٢٤٩) والذي يهمنا هل كان الرسول ﷺ ينزل على حكم الأغلبية كما ذهب إليه الدكتور أم لا ؟ وهل هناك دليل شرعي على ذلك ، أم الدليل الشرعي ينقض ما ذهب إليه ؟ .

إننا لوعدنا إلى الآية الأولى لوجدنا أنها بدأت بقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ . فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ أي : بدأت بالعفو عنهم والاستغفار لهم ، فكيف يُلْزم الرسولﷺ بآراء من يفتقرون إلى عفوه واستغفاره ، وينزل على حكمهم ؟ فهو في المحل الأعلى وهم في المحل الأدنى ، ولذلك أصاب علماء التفسير حينما قالوا : « كانت مشاورته لهم تطييباً لقلوبهم وتشريعاً للأمة من بعده صلوات الله وسلامه عليه » .

وإضافة إلى ذلك فإن نهاية الآية تشير إلى استقلاله ﷺ في اتخاذ الرأي الذي يراه حتى بعد مشاورته لهم ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أي : إذا اتجهت عزيمتك بعد ترَوٍ وتمحيص واجتهاد إلى أمر ، فما عليك إلا أن تنفذه متوكلاً على الله عز وجل . دون أن تقيده الآية الكريمة برأي من استشارهم واستعرض آراءهم . وفي ذلك يقول القرطبي رحمه الله صاحب « الجامع لأحكام القرآن » : (الشورى مبنية على اختلاف الآراء ، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ، وينظر أقربها قولاً إلى الكتاب والسنة إن أمكنه ، فإذا أرشده الله تعالى ما شاء منه ، عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله ، إذ هذه غاية الاجتهاد والمطلوب ، وبهذا أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية) (٤/ ٢٥٢) .

ويقول الطبري رحمه الله عند تفسيره لها : (فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك ، وتسديدنا لك في ما نابك وحَزَبَك من أمر دينك ودنياك ، فامضِ لما أمرناك به على ما أمرناك به ؛ وافَقَ ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها) ..

وقال ابن الجوزي رحمه الله في « زاد المسير » : « ليستنَّ به من بعده ، ولتطيب به قلوبهم ، وللإعلام ببركة المشاورة ، ... فإذا عزمت على فعل شيء فتوكل على الله لا على المشاورة » (١/ ٤٨٦) .

وإلى هذا ذهب الطبري في (مجمع البيان : ٣/ ٢٤٥) والفخر الرازي في (مفاتيح الغيب : ٣/ ٨١) حيث أجمعوا على أن المشاورة مفيدة لمعرفة الآراء المختلفة ، وللتنبه إلى الأصوب من الآراء ، ولتطييب قلوب الناس الذين يكونون حول الحاكم ، فإنَّ ذلك يبعث في نفوسهم ثقة بأنفسهم ...

وما أجمل ما ذهب إليه الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله تعليقاً على هاتين الآيتين : « وهذه الآية ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ والآية الأخرى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ اتخذهما اللاعبون بالدين في هذا العصر من العلماء وغيرهم عدتهم في التضليل بالتأويل ليواطئوا صنع الإفرنج في النظام الدستوري الذي يزعمونه ، والذي يخدعون الناس بتسميته (النظام الديمقراطي) ..

ثم يقول : ومعنى الآية واضح لا يحتاج إلى تفسير ، ولا يحتمل التأويل ، فهو أمر للرسول ﷺ ، ثم لمن يكون ولي الأمر من بعده أن يستعرض آراء أصحابه الذين يراهم موضع الرأي ، الذين هم أولو الأحلام والنهى في المسائل التي تكون موضع تبادل الآراء : ثم يختار من بينها ما يراه حقاً أو صواباً أو مصلحة ، فيعزم على إنفاذه غير متقيد برأي فريق معين ولا برأي عدد محدود ، لا برأي أكثرية ولا برأي أقلية ، فإذا عزم توكل على الله وأنفذ على ما ارتآه » .. (حاشية زاد المسير : ١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧) .

أما الآية الثانية ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ فلا تتعدى مدح المؤمنين لتشاورهم وتحري الحق ، وأن هذا من صفاتهم ..

هذا بالنسبة لآيات كتاب الله ، وقد رأينا أنها لا تقدم الدليل لمن ذهب إلى أن مبدأ حكم الأغلبية مبدأ إسلامي أصيل ، وأن رسول الله ﷺ كان ينزل على رأي الأكثرية ، ولكنها عكس ذلك تماماً ..

ماذا بشأن السنة النبـــــــــوية ؟

١ ــ في غزوة بدر الكبرى : عن أبي أيوب رضي الله عنه قال : قال لنا

رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : « إني أخبرت عن عير أبي سفيان ، فهل لكم أن تخرجوا إليها لعل الله يغنمناها ويسلّمنا ؟ » قلنا : نعم . فخرجنا ، فلما سرنا يوماً أو يومين ، قال :

« فاستعدوا للقتال » فقلنا : والله لا طاقة لنا بقتال القوم . فأعاد ، فقال المقداد : لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلَا إنّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ » ولكن نقول : إنا معكما مقاتلون .

قال أبو أيوب : فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد ، فأنزل الله عزل وجل ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ .. ثم قال عليه الصلاة والسلام ثالث مرة : « أشيروا علي أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، يخشى أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه .. فلما قال ذلك عليه الصلاة والسلام ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال : « أجل » قال سعد : .. فامض يا رسول الله لما أردت ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ... (شرح المواهب : ١/٤١٣ ـ ٤١٤) .

وفيها أيضاً : فخرج رسول الله ﷺ حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به ، فقال الحباب بن المنذر رضي الله عنه : يا رسول الله هذا منزل أنزلَكَهُ الله لا نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) قال : فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى أدنى

ماء من القوم فننزل ، ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، فنشرب ولا يشربون .. فقال ﷺ : (أشرت بالرأي) .. فنهض ومن معه من الناس فنزل حتى أدنى ماء من القوم . (١/ ٥١٦) .

هاتان الحادثتان اللتان تذكرهما كتب السيرة في غزوة بدر الكبرى ، فأين نزول رسول الله ﷺ على حكم الأكثرية ؟! ولكننا نكاد نقول :إن رسول الله ﷺ أخذ هنا برأي واحد من المسلمين لوجاهته نتيجة اختصاص صاحبه رضي الله عنه .

٢ ــ في غزوة أُحد : قال عليه الصلاة والسلام (فامكثوا : فإن دخل القوم المدينة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت) فقال أولئك القوم الذين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر ، ولما سمعوه من إخباره ﷺ بفضل من شهدها ، وغالبُهُم أحداث ، وأحبوا لقاء العدو وطلبوا الشهادة ، فأكرمهم الله بها يومئذ ، قد قالوا :
يا رسول الله إنما كنا نتمنى هذا اليوم ، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبُنّا عنهم ، وقال حمزة وسعد بن عبادة والنعمان ابن مالك وطائفة من الأنصار رضي الله عنهم جميعاً : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم ، فيكون هذا جراءة منهم علينا ، وزاد حمزة رضي الله عنه : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة .. وقال النعمان : لا تحرمنا الجنة يا رسول الله .. فقرر عليه الصلاة والسلام الخروج لملاقاة العدو ..

وهنا يحسن بنا أن نذكر ما علق به شارح المواهب اللدنية على

هذا حيث قال : (فإن قيل : لم عدل ﷺ عن رأيه الذي لا أسدَّ منه ، وقد وافقه عليه أكابر المهاجرين والأنصار ، وابن أُبَيٍّ وإن كان منافقاً لكنه من الكبار المجربين للأمور ، ولذا أحضره عليه الصلاة والسلام واستشاره ، إلى رأي هؤلاء الأحداث ؟ قلت : لأنه ﷺ مأمور بالجهاد خصوصاً وقد فجأهم العدو ، فلما رأى تصميم أولئك على الخروج لا سيما وقد وافقهم بعض الأكابر من المهاجرين كحمزة ، والأنصار كابن عبادة ، ترجّح عنده موافقة رأيهم وإن كرهه ابتداء ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) .

هذه الحادثة الأولى التي يستشهد بها من يذهب إلى نزول الرسول ﷺ على حكم الأكثرية .

ولا نريد أن نقول : ليست هنالك أكثرية ، ولكن لنتابع فنذكر الحادثة الثانية التي يغفلونها .

بعد أن دخل رسول الله ﷺ بيته ، لبس درعه وتقلد سيفه ، وخرج على أصحابه ، وكان الطالبون للخروج قد ندموا جميعاً على ما صنعوا ، فقالوا : ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت . فقال عليه الصلاة والسلام : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَتَهُ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » ولو كان الأمر أمر أكثرية وأقلية كما يتوهمون ، لوجب أن يرجع عليه الصلاة والسلام عن الخروج إلى أحد ، ولكنه لم يفعل .

فأين الدليل من غزوة أحد أن رسول الله ﷺ كان ينزل على حكم الأغلبية .. ولو تصفحنا روايات كتب السيرة النبوية[1] حول الغزوة

---

(١) جاء في سيرة ابن هشام (٣ / ١٦) وتهذيب ابن هشام لعبد السلام هارون (١٥٨) حول ادعاء بعضهم أن رسول الله ﷺ كان ينزل على حكم الأغلبية ، أو رأي =

ما وجدنا نصاً صريحاً في ذلك ، بل نكاد نجزم بأن قضية أغلبية وأقلية لم تكن تخطر ببال أولئك الأبرار ، ولا ببال الذين أرَّخُوا الأحداث ؛ لأن هذه القضية وليدة نظام وضعي من صنع البشر ... خلب بريقه لب بعضنا

= الأغلبية ، ويستدلون على ذلك بما حدث قبيل غزوة أحد ، عندما شاور ﷺ أصحابه : هل يبقون في المدينة أم يخرجون خارجها لملاقاة المشركين ؟ .

يقول ابن هشام : [فقال رجل من المسلمين ، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحد وغيره ، ممن كان فاته بدر : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنّا جَبُنّا عنهم وضعُفنا ... فلم يزل الناس الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم برسول الله ﷺ حتى دخل بيته فلبس لأمته ـ الدرع أو السلاح ـ وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك ... فلما خرج عليهم ، قالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ، ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعدصلى الله عليك ... فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل »] .

أما ابن كثير رحمه الله فيروي في سيرته (٣ / ٢٤) ما جرىٰ بقوله : [وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ورأيه ... وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدراً ، قد علموا الذي سبق لأصحاب بدر من الفضيلة ... فلما صلّى ﷺ الجمعة ، وعظ الناس وذكرهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، ثم انصرف من خطبته وصلاته ، فدعا بلأمته فلبسها ، ثم أذَّن في الناس بالخروج . فلما رأى ذلك رجال من ذوي الرأي ، قالوا : أمرنا رسول الله ﷺ أن نمكث بالمدينة ، وهو أعلم بالله وما يريد ... فقالوا : يا رسول الله ، امكث كما أمرتنا . فقال ﷺ « ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب ، وأذَّن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل ، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا »] .

أما المقريزي صاحب « إمتاع الأسماع » فيقول في الجزء الأول بتحقيق محمود شاكر (١١٦ وما بعدها) ما يلي :

[... فقال فتيان أحداث ، لم يشهدوا بدراً ، وطلبوا الشهادة ، وأحبوا لقاء العدو : اخرج بنا إلى عدونا . وقال حمزة وسعد بن عبادة والنعمان بن ثعلبة في طائفة من الأنصار : إنَّا نخشى يا رسول الله أن يظنَّ عدونا أنّا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن =

نتيجة الغزو الفكري والاستعمار العسكري ، ولأن الضعيف مولع دائماً بتقليد القوي ، فبدأ يحاول تمويهه بقشرة خارجية تستر عواره بإدخاله تحت راية الإسلام ، والادعاء بأن الإسلام ديمقراطي ، والديمقراطية من الإسلام !! .

= لقائهم ، فيكون هذا جراة منهم علينا . وقد كنت في بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فساقه إلينا في ساحتنا ، ورسول الله ﷺ كاره ... فلما أبوا إلا ذلك ، صلّى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس ، وقد وعظهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ... ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم ، **وكره المخرج كثير** ، ثم صلى العصر بالناس ... ودخل ﷺ بيته ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فعمماه والبساه ، وقد صف الناس له ما بين حجرته إلى منبره ؛ فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، فقالا للناس : قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم واستكرهتموه على الخروج ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم له هوى أو رأي فأطيعوه . فبيناهم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته ... فقال الذين يلحون : يا رسول الله ، **ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك** ، فقال ﷺ : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمركم به فاتبعوه ، وامضوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صبرتم »] .

أما ابن قيم الجوزية رحمه الله فيقول في (زاد المعاد : ٣ / ١٩٣) : [فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر والحوا عليه في ذلك ... فنهض ، ودخل بيته ، ولبس لأمته ، وخرج عليهم ، وقد انثنى عزم أولئك ، وقالوا : أكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج ؛ فقالوا : يا رسول الله ، إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل » .

إن الناظر في هذه الروايات وسواها لا يجد أي ذكر لأغلبية أو أقلية ، لأن هذه القضية لم يكن لها وجود بينهم ، فقد طرأت على العالم الإسلامي بعد أن ابتلي بالاستعمار العسكري والغزو الفكري ... انظر مناقشة واسعة لهذه القضية في كتاب « الشورى لا الديمقراطية » للأخ المهندس الدكتور عدنان علي رضا النحوي ، وكتابه الآخر « ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية » .

في عصـــر الراشـــدين :

■■ حــروب الـــــردة :

بعد وفاة رسول الله ﷺ أعلن بعض الناس ردتهم ، في حين امتنع بعضهم عن دفع الزكاة ، وقرر الخليفة الصديق رضي الله عنه قتالهم ، وجاءه عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يطلبون منه أن يصبر على من منع الزكاة ، وأن يتألفهم بشيء من السياسة ليستعين بهم في قتال الأعداء من مدعي النبوة ، ومن الروم والفرس ... فيقول رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة .. فيقولون له : ومع من تقاتلهم ؟ قال رضي الله عنه : وحدي حتى تنفرد سالفتي ... وفي رواية أخرىٰ : والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه . (فتح الباري : ٣/ ٢٦٢) .

■■ إنفاذ بعث أسامة : أمر أبو بكر أسامة بن زيد رضي الله عنهم أن يتوجه لأمر رسول الله ﷺ . فجاءه الصحابة ، وقال له عمر رضي الله عنه : كيف ترسله والعرب من حولك قد اضطربت عليك ؟ فقال : والله لو لعبت الكلاب بخلاخيل نساء المدينة ، ـ وفي رواية : أمهات المؤمنين ، ـ ما رددت جيشاً أنفذه رسول الله ﷺ (البداية والنهاية : ٦/ ٣٠٤) ، وفي (تاريخ خليفة بن خياط : ١٠٠) فقال له الناس : إنَّ العرب قد انتقضت عليك ، وإنك لا تصنع بتفريق الناس عنك شيئاً ؛ فقـال : والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع أكلتني بهذه القرية لأنفذت هذا البعث .

ويعلق الدكتور عمر فروخ على ذلك قائلاً : (إنَّ أبا بكر رضي الله عنه كان في منصب يوجب عليه تبعة ، والتبعة توجب العمل ، وللعمل نتائج

قريبة وبعيدة ، يسيرة أو على خطر ، فلا يجوز أن يكون رأي المشيرين بالرأي كلاماً كرأي الذي عليه أن يتحمل تبعة العمل ؛ ومضى أبو بكر رضي الله عنه في رأيه ، وكان رأيه صواباً ... وقد كان من مخالفيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه - ولا أزيدك معرفة بعمر - لقد كان في ذلك درس مفيد له رضي الله عنه) (تجديد التاريخ : ٩٥) .

أما عمـــر رضـــي الله عنه :

فانظر ما يذكره صاحب كتاب « الخراج » ، قال أبو يوسف رحمه الله : (وافتتح عمر السواد والأهواز ، فأشار عليه المسلمون أن يقسم السواد وأهل الأهواز وما افتتح من المدن .

فقال لهم عمر رضي الله عنه : فما يكون لمن جاء من المسلمين ؟ فترك الأرض وأهلها ، وضرب عليهم الجزية وأخذ الخراج من الأرض ..) (ص : ٢٨) .

ويقول أيضاً : (فلما افتتح السواد ، شاور عمر رضي الله عنه الناس فيه ، فرأى عامتهم أن يقسمه ، وكان بلال بن رباح رضي الله عنه أشدهم في ذلك ... وكان رأي عمر رضي الله عنه أن يتركه ولا يقسمه ، حتى قال عند إلحاحهم عليه في قسمته : اللهم اكفني بلالاً وأصحابه ..) (ص : ٣٥) .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بـ « سرغ » لقيه أهل الأجناد : أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ؛ قال ابن عباس : فقال

عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ؛ فدعوتهم ، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجت لأمر لانرى أن ترجع عنه .

وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ لا نرى أن تقدمهم هذا الوباء . فقال : ارتفعوا . قال : ادع لي الأنصار . فدعوتهم ، فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ؛ فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم ، فلم يختلف عليه رجلان ، فقالوا : نرىٰ أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء . فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرار من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم ، نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان : إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟

قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، وكان متغيباً في بعض حاجته ، فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم به ـ الطاعون ـ بأرض ، فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه » .

أين الأغلبية التي نزل على رأيها عمر رضي الله عنه هنا ، وهل احتج بذلك على أبي عبيدة ـ أمين الأمة ـ رضي الله عنه ؟ أم أنه بذل ما في وسعه ، واستفرغ جهده في مشاورة الجميع من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش ... للوصول إلى الحق في هذه المسألة ، وهل هو في الإقدام أم في الإحجام ؟ وكيف أنه أخيراً حسم الأمر عندما ترجح لديه أن

الخير في الإحجام والعودة بالجند ، فاتخذ قرار الرجوع ، ولما ناقشه في ذلك أبو عبيدة رضي الله عنه ـ والمعروف عن عمر أنه كان يكره خلاف أبي عبيدة ـ رد عليه رداً حاسماً دعمه بالحجة والبرهان ... ثم جاء بعد ذلك الأثر عن عبد الرحمن رضي الله عنه مطابقاً لما ذهب إليه الخليفة الذي كانت تقع على عاتقه مسؤولية اتخاذ القرار بعد الاستشارة .

ولا نريد أن نطيل بإيراد الكثير من الأمثلة عن عصر الراشدين والتي تثبت أنه يجب على الإمام أو الخليفة أو الأمير مشاورة الناس ، ولكن يبقى له الحق كاملاً أن يوافق أغلبيتهم فيما يرونه ، وكذلك له أن يخالف الجميع ويقضي برأيه .. ولكن الواجب على جمهور المسلمين أن يراقبوا سيرته في رعيته مراقبة شديدة ، وهل يسير فيهم بتقوى الله أم بالهوى ؟ فإن اتبع الهوى عزلوه .

حقـــائق لابد من ذكرهـــــــــا :

■■ إن الإسلام لا يجعل كثرة العدد ميزاناً للحق والباطل ، ونحن لسنا مع الدكتور عبد الحميد في توجيهه للآيات التي ورد فيها ذم الأكثرية ، بأن لا علاقة لها بشؤون السياسة والحكم ؛ وإنما وردت في شأن الكفار وشؤون العقيدة والآخرة ولا علاقة لها بمرافق الناس ومصالحهم الدنيوية . ونقول له : لِمَ هذا التمييز بين شؤون السياسة والحكم ، والمصالح الدنيوية ومرافق الناس ، وبين شؤون العقيدة والآخرة ؟ وما نزل الإسلام إلا لينظم شؤون الحياة كلها وكذلك شؤون الآخرة ؛ ولو كانت الأكثرية هي التي تمثل الحق لأمر الله عز وجل عند التنازع والاختلاف بالرد إليها ، ولكنه جل وعلا رد إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ:

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُم في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللَّهِ والرَّسُولِ إن كُنْتُمْ تُؤْمِنونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر ﴾ (النساء : ٥٩) .

ويمكننا أن نذكر هنا بقول الله عز وجل :

﴿ وَإِنْ تُطِـعْ أَكْثَـرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّـوكَ عَنْ سَبِيـلِ اللَّــهِ ﴾ (الأنعام : ١١٦) . وقوله :

﴿ قُل لا يَسْتَوي الْخَبِيثُ والطَّيِّبُ وَلَـوْ أَعْجَبَكَ كَثْـرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ (المائدة : ١٠٠) .

﴿ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (سبأ : ١٣) .

روى البخاري عن سهل رضي الله عنه ، قال : (مر رجل على النبي ﷺ ، فقال : ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حَرِيٌّ به إن خطب أن يُنكح ، وإن شفع أن يُشفَّع ، وإن قال أن يُستمع ... ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حَرِيٌّ به إن خطب ألّا يُنكح ، وإن شفع ألّا يُشفّع ، وإن قال ألّا يُستمع ... فقال رسول الله ﷺ : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) .

ونحب أن نذكر الدكتور أيضاً بأنه لا يوجد في كتاب الله آية « أكثر الناس لا يفقهون » ولكن فيه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

■■ إن رجوع الخليفة عن رأيه إلى رأي الجماعة أو الأكثرية لا ينهض دليلاً على وجوب النزول على حكمها دائماً . ولكن عليه أن يتبع الحق حيثما ظهر ، وهذا من فوائد الشورى ، فقد يرجع عن رأيه إلى رأيهم ، وقد يرجعون عن رأيهم إلى رأيه ، وإلا فلا فائدة للشورى ويكون تشريعها عبثاً ، وديننا منزه عن العبث .

■■ إن الأمة كما هي معرضة للوقوع في مغبة الخطأ الاجتهادي لإمام المسلمين ، معرضة في الوقت ذاته وبالدرجة ذاتها من الاحتمال للوقوع في مغبة الخطأ أو الانحراف الذي قد تنزلق إليه الأكثرية ..

فما أيسر أن تبذل المساعي الخفية لتجنيد الأغلبية من أجل تحويل الحق إلى باطل ، والباطل إلى حق ، وإن فيما يراه العالم اليوم من المناورات العابثة تحت أقنعة النظم الديمقراطية أبين شاهد على هذه الحقيقة (نذكر هذا ما دام الدكتور قد بدأ حديثه باعتبار أن مبدأ حكم الأغلبية الذي تقوم عليه الديمقراطية المعاصرة أفضل صيغة نظامية عرفتها البشرية) ..

■■ وفي تاريخ الفقه الإسلامي ، نجد قول الجمهور ، ولو اعتبرنا الأكثرية ، أو مبدأ الأغلبية في أحسن الأحوال يشبه إلى حد ما قول الجمهور ، فهل هناك من قائل في السلف والخلف بإلزامية قول الجمهور ؟ .

■■ فإذا كان قول الجمهور (في الفقه) بقوته الاجتهادية المثالية غير ملزم ، فكيف يقول الدكتور : إن الأغلبية ملزمة ؟ ولو أخذنا بهذا القول لسفَّهنا قول كل إمام خالف الجمهور ، ولو كان أبا بكر وعمر ، وأبا حنيفة والشافعي .. لأن الأغلبية معصومة لا تخطىء والأقلية مهدورة لا تصيب !! .

■■ الحكم الفردي والجماعي كلاهما في الشر سواء عندما تكون الهيمنة للنظم والأفكار الوضعية ... وكلاهما في العدل سواء عندما تكون السيادة الحقيقية لحكم الله عز وجل ، والخضوع لكتابه وسنة نبيه ﷺ .

■■ رجوع الإمام يجب أن يكون دائماً لأقرب الآراء إلى الكتاب والسنة

ولو صدر عن القلة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه « السياسة الشرعية » :

(.. وإذا استشارهم ، فإن بين له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله أو سنة رسوله ، أو إجماع المسلمين ، فعليه اتباع ذلك ، وإن كان أمر قد تنازع فيه المسلمون فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ، ووجه رأيه ، فأي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به) (وانظر أيضاً الفتاوىٰ له : ٢٨/ ٣٨٧) .

وفي ذلك يقول المودودي رحمه الله : (فالأمير له الحق أن يوافق الأقلية أو الأغلبية في رأيها) (نحو دستور إسلامي : ٦٧) ويقول البنا رحمه الله (.. إذا جاءهم أمر جمعوا له أهل الرأي من المسلمين ؛ واستشاروهم ونزلوا عند الصواب من آرائهم ..) (مجموعة الرسائل : ٣٦١) .

فالحاكم يجب عليه أن يستشير ، ثم يختار الرأي الصالح ، وينزل عليه ، لا على رأي أكثرية ولا أقلية .. وقراره هو الذي يحسم الأمر .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (فتح الباري : ١٣/ ٣٤٢) : وأخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران ، قال : كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - إذا ورد عليه أمر ، نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضي به قضىٰ بينهم ؛ وإن علمه من سنّة رسول الله ﷺ ، قضىٰ به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنَّة ، فإن أعياه ذلك ، دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم ، واستشارهم ؛ وإنَّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يفعل ذلك .

وبعـــــــــــــــد :

فإن مصطلح « الشورى » مصطلح إسلامي له احترامه في نفوسنا ، وله رصيده في مشاعرنا ، وله مدلوله في قيمنا ، وله تطبيقاته في تاريخنا ..

أما مصطلح « الديمقراطية » فهو مصطلح يوناني ، كما قدمنا ، والحضارة الغربية بشقّيها ، وريثة الحضارة اليونانية والرومانية ، والديمقراطية من أصولها ، لذا يمكن أن تحمل على أصولها هذه ، وتقاس عليها .

أما الحضارة الإسلامية التي قامت على مصطلحات وأصول خاصّة بها ، بعيدة كل البعد عن المصطلحات الغربية ، فمن خطأ المنهج ، وخطل الرأي أن تقاس على أصول غريبة عنها ، لم تقم عليها ، أو أن تُحمل على غير أصولها ..

والنظرة الصائبة أن تحاكم الحضارة الإسلامية إلى أصولها لا إلى أصول غريبة عنها ..

من هنا كانت الحضارة الغربية منطقية مع نفسها ، ودعاتها أكثر منطقية من غيرهم ، لأنهم يحاكمونها من خلال أصولها ..

أما أولئك الذين يريدون أن يحاكموا الحضارة الإسلامية إلى غير أصولها ، فهم غير منطقيين ولا منهجيين .. ومن هنا تأتي ضرورة التمسك بالمصطلحات حتى لا تنزلق القدم ، وحتى نتابع رحلتنا الحضارية في ضوء أصولنا وهديها إن شاء الله ..

الباب الرابع

البدعة وكراهة الجديد
موقف إسلامي أم جاهلي؟

الباب الرابع

البدعة وكراهة الجديد موقف إسلامي أم جاهلي؟

في أوائل الأربعينيات (١٣٦٠هـ) ثار نقاش في الأزهر حول الإمام « الزهـري » رحمه الله والذي أشعل فتيل النقاش هو الدكتور علي حسن عبد القادر ، الذي كان قد أنهى دراسته في ألمانيا بعد أن مكث فيها أربع سنوات حتى حصل على شهادة الدكتوراه في قسم الفلسفة ، وعاد إلى القاهرة ليدرس في الأزهر « تاريخ التشريع الإسلامي » .. (على طريقة علمية .. لا عهد للأزهر بها) كما صرَّح لطلابه آنذاك قائلاً : « وإني أعترف لكم بأنني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام ، ولكني فهمت الإسلام حين دراستي بألمانيا » .. وكان هذا أوّل درس تلقاه طلابه عنه ، وأمامه كتاب « جولد تسيهر » « في العقيدة والشريعة » يترجم عنه ويملي عليهم ترجمة حرفية . وفي الكتاب ما فيه من بلايا ..

لم يكن يعـــرف « الزهـــري » :

وفي دار جمعية الهداية الإسلامية في القاهرة ، ألقى واحد من طلبة

الدراسات العليا في الأزهر ـ شيخنا وأستاذنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ـ محاضرة حول الإمام الزهري ، وكان قد رجا الأستاذ الدكتور علي حسن عبد القادر أن يحضرها ، وحضرها فعلاً .. وفي نهاية المحاضرة قال الدكتور علي ، وبحضور شيخ الأزهر يومها محمد الخضر حسين رحمه الله : **« أعترف بأني لم أكن أعرف من هو الزهري حتى عرفته الآن ، وليس لي اعتراض على كل ما ذكرته » ، ـ مخاطباً السباعي رحمه الله ـ .**

إبان هذا النقاش ، وهذه الضجة قال الأستاذ أحمد أمين للدكتور علي حسن عبد القادر : (إنَّ الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة .. فخير طريقة لبث ما تراه مناسباً من أقوال المستشرقين ألَّا تنسبها إليهم بصراحة ، ولكن ادفعها على أنها بحث منك ، وأَلْبِسْها ثوباً رقيقاً لا يزعجهم مسها ، كما فعلت أنا في « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » . وقد روى هذا الدكتور علي حسن نفسه ، وسجله الأستاذ السباعي رحمه الله في أطروحته للدكتوراه التي دافع فيها عن سنة رسول الله ﷺ ، **وردَّ فيها على مطاعن المستشرقين وتلامذتهم « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » ونشر بعض أبحاثه في حياة الأستاذ أحمد أمين الذي اطلع عليها واعترف ـ أحمد أمين ـ بأنها أول نقد علمي لكتابه « فجر الإسلام » وكان ذلك أمام الدكتور علي عبد الواحد وافي .**

كيف نشيع آراء المستشرقـــين ؟ :

هذه الطريقة في نشر آراء المستشرقين بين أبناء المسلمين لجأ إليها كثيرون ، كان من أوائلهم طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) « انظر مقدمة كتاب المتنبي للمحقق الشيخ محمود محمد شاكر » ولن يكون آخرهم حسين أحمد أمين الذي أعادنا إلى الأربعينيات لنتذكر ما قاله والده يوماً ،

ونحن نقرأ له ما سوَّد من صفحات في مجلة « الدوحة » القطرية ، لم يخرج فيها قيد أنملة عن الآراء التي نشرها « جولد تسيهر » في كتابه « العقيدة والشريعة » و « شاخت اليهودي » في كتابه (العقيدة المحمدية) وما ردّده والده في « فجر الإسلام » والتي بان عوارها وزيفها .

وسنقدم للقارىء على سبيل الأنموذج المقال الذي نشره في العدد السابع والثمانين تحت عنوان « البدعة وكراهة الجديد موقف إسلامي أم جاهلي ؟ » .

الإســـــلام .. بدعـــة !؟

* اعتبر الكاتب كل جديد بدعـــة ، ورتب على ذلك أن الإسلام نفسه كان بدعة لكونه جديداً عندما دعا إليه الرسول ﷺ « لم يكن سوى بدعة ، غير مألوف ولا مقبول لدى أهل مكة الذين لم تكن معارضتهم القوية ناشئة له عن امتعاضهم من تسفيهه لعبادة الأوثان ، فتعلقهم بأصنامهم كان سطحياً ، وفي طريقه إلى الزوال .. بل لأنه لم يكن بوسعهم قبول فكر جديد أو قيم مستحدثة ليس لها أساس مما تتناقله الأجيال وتحفظه التقاليد ... » كما خلط أيضاً بين البدعة والاجتهاد ولم يميز بينهما .

رفــض الســـــنَّة :

* وعندما وجد أن ما ذهب إليه يتعارض مع أحاديث صحيحة رويت عن الرسول ﷺ ، أعلن رفضَهُ لها . وتكذيبَهُ بها ، وحجته أن رسول الله ﷺ أمرنا (أن نعرض ما ينسب إليه من أحاديث على القرآن ، فما اتفق منها معه قبلناه ، وما خالفه منها أبينا الأخذ به ، فهل يعقل بعد ما أوردنا من آيات تدعو إلى تحكيم المنطق والفكر أن يسلم أحد بصحة أحاديث نسبت للنبي - ﷺ -

مثل : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع .. أو ألا وإيَّاكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .. » لقد أوردت كتب الصحاح والسنن والمسانيد والسير والمغازي والطبقات من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول - ﷺ - ما يذم البدع ويدعو إلى رفض كل جديد محدث ما لا يمكن أن يتفق مع ما علمنا أن رسول الله - ﷺ - كان أعظم رافض لاتباع سنة من كان قبله) .

حديث حوَّاء وحديث التمر :

* ولم يجد بعد ذلك إلَّا أن يشكك بما يرويه الإمامان الجليلان « **البخاري ومسلم** » في صحيحيهما ليصل إلى غايته في التشكيك بالسنة النبوية كلها ، بقوله : (فإن احتج بعضهم بأن هذه الأحاديث رواها البخاري ومسلم وغيرهما من الثقات ، قلنا : إنه قد ورد في صحيح مسلم : « لولا حوّاء لم تخن أنثى زوجها الدهر ... » وإنه قد ورد أيضاً في البخاري : « من تصبَّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر » .. وفي غيرهما : « الباذنجان شفاء من كل داء ») .

النسبة الفاجرة للأقوال :

*** ويفسر ما رآه عند القسطلاني - هذا إن رأى - والذي لم يذكر نصه ، وإنما بمعناه ، تفسيراً لا صلة له بما أراد أن يقرره القسطلاني رحمه الله ، ولا بالإسلام ، فيقول : (وها هو القسطلاني يرى بدعة مرفوضة كل ما يتبع دون مثل من العصر القديم ، وكل ما لم يكن معروفاً في زمان النبي - ﷺ - ، وعلى هذا تصبح القهوة والطباعة والإذاعة والجرايد والمصباح الكهربائي واستخراج النفط واستخدام الشوكة**

والسكين في الأكل بدعاً بغيضة ، وهو من شأنه أن يجعل الحياة في ظل ظروف مخالفة للظروف السائدة زمن النبي - ﷺ - والصحابة والتابعين أمراً محالاً ..) .

* وبسبب خلطه بين مصطلح البدعة والاجتهاد ، وعدم تمييزه بينهما ، كان لا بد من أن يصل رذاذ هجومه إلى مجتهدي هذه الأمة ، ولم يجد إلَّا أن يتهمهم بالكذب على رسول الله ﷺ ، فيقول عنهم : (غير أنهم سلكوا مسلكاً خاطئاً ؛ إذ صاغوا آراءهم المبتدعة - اجتهاداتهم - في قالب أحاديث نسبوها إلى النبي ﷺ ، واختلقوا الأسانيد لها حتى تلقى آراؤهم قبولاً من الأمة ، أو على حد تعبير بعضهم واعترافه : كنَّا إذا رأينا رأياً صيَّرناه حديثاً ..) .

وغير ذلك من البلايا والرزايا التي افتراها ، ونكتفي بما سبق كأنموذج لهذه المفتريات ...

البدعـــة والاجتهـــاد :

تعريف البدعة لغةً : الاختراع على غير مثال سابق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأرْض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُل مَا كُنتُ بدعاً مِنَ الرُّسُل ﴾ .

أمَّا شرعاً : فهي التي أحدثت بعد الرسول ﷺ في الدين ، وليست من الدين ، ولم يكن قد فعلها الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا أمر بها ، ولا أقرّها . أو هي الإحداث في الدين بعد الإكمال ، وما استحدث بعد الرسول ﷺ من الأهواء والأعمال ، والجمع : بِدَع ، كعنب ، كذا في القاموس . وقيل : هي ما أحدث على خلاف الحق المتلقّى عن رسول الله ﷺ

« السنن والمبتدعات : للشقيري » .

وتنقسم البدعة إلى قسمين : دينية ، ودنيوية ، وكل بدعة في الدين ضلالة ، وهي التي نص عليها الرسول ﷺ وأصحابه ، وهي التي جاء ذكرها في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن السيدة عائشة رضي الله عنها : « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدّ** » و « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ** » أي : مردود عليه . كالطواف حول قبور الصالحين واستلامها .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَّعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ **دليل على أنَّ استحسان البدعة ، وحث الناس على التعبد بها ، ما هو إلَّا مشاقة ومصادمة لهذه الآية الكريمة ، ولذلك أقسم الرسول ﷺ بقوله** : « **والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به** » .

أصـــدق الحديـــث :

وكان رسول الله ﷺ يخطب الناس على المنبر ، ويقول : « **أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة** » ، وزاد النســائي : « ... **وكل ضلالة في النار** » .

ونستطيع تبين أن البدعة المقصودة بالذم والوعيد لا تكون إلَّا في الدين بما رواه البخاري في صحيحه : (**جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أُخْبِروا بها كأنهم تَقالّوها ، فقالوا** : **وأين نحن من النبي ﷺ ، قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر** .

قال أحدهم : أمَّا أنا فإني أصلي الليل أبداً ، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنّي لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني ») وفي سنن أبي داود : « فإيَّاكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة » .

ليس كل جديـــد بدعـــة :

فالبدعة في الدين ، وهي المذمومة ، وليس كما افترى الكاتب بأن كل جديد بدعة ، بدليل أن رسول الله ﷺ أمر بحفر خندق حول المدينة المنورة عندما هاجمها الأحزاب ، واشترك بنفسه ﷺ في الحفر ، وهذا مما لم تكن تعرف العرب ، ونُقِل عن الفرس ، فقد أشار بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه مبيناً أنهم كانوا يفعلون هذا إذا دوهموا .. كما أنه عليه الصلاة والسلام بعث اثنين من المسلمين إلى جرش في الشام (الأردن حالياً) فتعلّما صنعة المنجنيق والعرادات والدبابات (أسلحة الحصار ودكّ الحصون والأسوار) ثم استخدمها عليه الصلاة والسلام في حصار الطائف وخيبر .. وبذلك يكون الكاتب مفترياً عندما علَّق على ما ذكره بالمعنى عن القسطلّاني رحمه الله بقوله : (وعلى هذا تصبح القهوة والطباعة والإذاعة والجرايد والمصباح الكهربائي واستخراج النفط واستخدام الشوكة والسكين في الأكل بدعاً بغيضة ..) .

ويمكننا أن نقول : إن البدعة في الأمور الدنيوية لا حجر فيها ، ولا مانع منها ما دامت لا تهدم أصلاً من الأصول التي وضعها الدين ، فالله عزَّ وجل أباح للمسلمين أن يخترعوا في الدنيا ما شاؤوا من وسائل تقوّيهم وتضعف

أعداءهم : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (**الأنفال** : ٦٠) ومع هذا أوجب عليهم المحافظة على قاعدة العدل ، ودرء المفاسد وجلب المصالح .

الاجتهـــــاد الحـق :

أمَّا الاجتهاد فهو : لغة : مأخوذ من الجهد ، وهو المشقة والطاقة ، وفي « إرشاد الفحول عن صاحب المحصول » أن الاجتهاد في اللغة عبارة عن استفراغ الوسع في أي فعل ، فإنه يقال : استفرغ وسعه في حمل الثقيل ، ولا يقال : استفرغ وسعه في حمل النواة .

وشرعاً : **بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بالنظر المؤدي إليها ، ومن علمائنا من عرّفه بقوله : هو طلب الصواب بالأمارات الدالّة عليه .. وهو الطريق الموصل إلى استنباط الأحكام** .

والاجتهاد يقع على معانٍ ثلاثة كما نقل الشوكاني :

الأول : القياس الشرعي ، لأنَّ العلّة لما لم تكن موجبة للحكم لجواز وجودها خالية عنه لم يوجب ذلك العلم بالمطلوب ، فذلك كان طريقه الاجتهاد .

الثاني : ما يغلب في الظن من غير علّة ، كالاجتهاد في الوقت والقبلة .

الثالث : الاستدلال بالأصول ، وهذا هو الاجتهاد بالمفهوم العام .

ويمكننا أن نقدم مثالاً على ذلك : ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم في أعقاب الهزيمة التي حاقت بالأحزاب عندما قال لهم الرسول ﷺ : « **لا يصلينّ أحدكم العصر إلاَّ في بني قريظة** » فقد فهم بعضهم النهي على حقيقته ، فأخَّر العصر إلى ما بعد المغرب ، وفهم بعضهم الآخر أن المقصود

الحثّ على الإسراع في التوجه لحصار بني قريظة ، فصلّاها في وقتها .. وأقرَّ الرسول ﷺ ذلك كلّه ، ولم ينكر على أيٍّ منهما ...

ويدخل في هذا ما فعله أبو بكر الصديق والصحابة رضوان الله عليهم من جمع القرآن الكريم (الجمع الأول) حيث إنَّ الرسول ﷺ كان قد أمر بكتابته ، واتَّخذ كتبة للوحي يدونون الآيات التي تتنزل عليه ﷺ ، وتوفي عليه الصلاة والسلام دون أن يجمع القرآن في كتاب واحد ، ودون أن يأمر بجمعه ... ورضي عن فعل أبي بكر الصحابة رضوان الله عليهم .

القـــول بالهـــوىٰ :

وعلى هذا ، فالقول في دين الله عزَّ وجل ، وفي شرائع الأحكام بمجرد استحسان العقل ، وما يقدره من المصلحة من غير استناد إلى دليل لا يكون اجتهاداً فقهياً ، وما هو إلَّا قول بالهوىٰ والتشهي .. وفي ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (الكهف : ٢٨) فكلّ من لم يتبع الذكر ويَسْتَهْدِ بالنصوص فسيتبع الهوىٰ . وقد جاء الأمر بالابتعاد عن الهوىٰ وضرورة الاستهداء بالنصوص صريحاً في قوله تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص : ٢٦) .

وما كان اجتهاد السلف الصالح إلَّا فيما بين أيديهم من نصوص القرآن والسنة ، وإذا قرّر أحدهم حكماً فإنما يقرر ما هداه إليه فهمه ، وما رأىٰ أنه حكم الله ، ولا يكون اجتهادهم هذا تشريعاً أبداً ، ولكن المجتهد بما أُوتي من دراية وخبرة بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ **يعمل على إظهار الحكم وتطبيقه باستقراء ظواهر النصوص فيما له نص ، وباستكناه الدلالات ورد الأحكام**

إلى عللها المصرَّح بها أو المستنبطة ، فإن لم يكن هناك نص من كتاب أو سنة حاول أن ينزل الوقائع على القواعد العامة المأخوذة من المصدرين ، وهو بعد هذا كله أمين بين الناس يقول عن الله ما يحسبه حقاً وعدلاً .

الافتــــراء على المجتهـــدين :

* أمَّا ما افتراه الكاتب على مجتهدي هذه الأمة ، ونسب إليهم أنهم (صاغوا آراءهم المبتدعة في قالب أحاديث نسبوها إلى النبي ﷺ ، مستدلاً بقول بعضهم على حدّ زعمه أيضاً : كنَّا إذا رأينا رأياً صيَّرناه حديثاً) فظاهر الزيف لكل من له أدنى معرفة بأحوالهم .

ومع ذلك نقول : إنَّ هذا القول الذي نسبه إلى بعضهم ، واعتبره اعترافاً منهم بوضع الأحاديث ، والكذب على رسول الله ﷺ لترويج ما يرونه ، لم يكن قول أي مجتهد من مجتهدي هذه الأمة ، ولكنه كان قول وضَّاع ، كان يضع الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ ، ثم تاب ورجع (حدث ابن لهيعة قال : سمعت شيخاً من الخوارج تاب ورجع ، وهو يقول : إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم ، فإنَّا كنَّا إذا هوينا أمراً صيَّرناه حديثاً) (الكفاية : ١٩٨ ، والموضوعات ١/٣٩ ، لسان الميزان : ١/١٠ ، فتح المغيث : ١/٢٣٩ ، قواعد التحديث : ١٣٧) .

وقال حماد بن سلمة : (حدثني شيخ لهم ـ الرافضة ـ قال : كنَّا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئاً جعلناه حديثاً) (الموضوعات : ١/٣٩ ، الباعث الحثيث : ٨٤) .

وقال عبد الله بن يزيد المقري : (إنَّ رجلاً من أهل البدع رجع عن بدعته ، فجعل يقول : انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه ، فإنَّا كنَّا إذا رأينا رأياً جعلناه حديثاً) (الباعث الحثيث : ٨٤) .

ولقد تصدىٰ أئمة الحديث لفضح هذه الموضوعات المفتراة على رسول الله ﷺ ؛ وقد قيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله : هذه الأحاديث الموضوعة ؟ فقال : تعيش لها الجهابذة : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (**الحجر** : ٩) .

هذا ما ذكره علماؤنا حول هذا القول الذي نسبه افتراءً إلى مجتهدي هذه الأمة ، وهكذا تكون الأمانة العلمية عند هؤلاء (!!) .

من الغريب أننا نرىٰ أمم العلم والحضارة تُعنىٰ بحفظ ما ينقل من علمائها وأدبائها ، في التشريع والحقوق ، والحكم والآداب ، ويفاخر بعضهم بعضًا بهم وبآثارهم ، ونرىٰ هؤلاء المخدوعين من مبتدعة المسلمين لا يكتفون بهضم حقوق علماء ملتهم ، ومؤسسي حضارتهم ومجدها بالعلم والعمل ، والسياسة والآداب ، بل ينبذون سنَّة الرسول ﷺ الذي يدَّعون اتباع ملته ، وما روىٰ سلفهم عنه من التشريع والحكم والآداب ، ويدَّعون أنهم يتَّبعون نصوص القرآن ، كأنَّ فهمهم وبيانهم له ، وحرصهم على العمل به فوق فَهمِ من أُوحِيَ إليه ، وكلَّفه الله تعالى بيانه بالقول والعمل ، وعصمه من الخطأ في كل ما يبلغه عنه من نصوصه ومن المراد منها ...

والذي نعلمه بالاختبار أنَّ بعض هؤلاء المدَّعين جاهل غبي قد فتن بحب الظهور ، وبعضهم ملحد يدعو المسلمين إلى الإلحاد لهوىً في نفسه ، أو خدمة لبعض الدول الطامعة في أرض الإسلام واستعباد المسلمين ...

هل الإسلام بدعة ؟ :

ذهب الكاتب إلى ذلك باعتبار أن الإسلام لم يكن مألوفاً ، ولا مقبولاً لدى أهل مكة ، في حين كان الإسلام وحي الله عزَّ وجل الذي نزل به الروح

الأمين على قلب رسول الله ﷺ ليكون من المنذرين :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾ (النجم : ٣ - ٤) .

ولم يكن الرسول ﷺ بدعاً من الرسل :

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الأحقاف : ٩) .

بل دعا إليها من قبل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦١)

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٣) .

وهكذا نستطيع القول : إن ما جاء به رسول الله ﷺ لم يكن بدعة ، بل إن ما كان عليه مشركو مكة هو البدعة ، حيث إن الحنيفية السمحة (الإسلام) كانت الديانة التي تسود قبل أن يُدْخل عمرو بن لحي الخزاعي عبادة الأوثان إلى مكة المكرمة ، ومع مرور الزمن وتقادم العهد أصبحت هذه البدعة هي الأصل ، وغابت الحنيفية عن سماء مكة ولم تبق إلَّا في قلوب قليلة جداً عند مجيء رسول الله ﷺ . . ولا وجه للمقارنة أصلاً بين ما كان عليه عرب الجاهلية وبين ما جاء به الإسلام وحي الله عزَّ وجل الذي لا يأتيه الباطل ..

أمَّا ادعاء الكاتب أن عبادة الأوثان كانت سطحية في مكة وأنها في طريقها إلى الزوال ، فإنه يهدف إلى تقرير أن الإسلام جاء تطوراً طبيعياً ، كان أهل مكة سينتهون إليه حتى ولو لم يأت بذلك رسول الله ﷺ . . وهنا لا بد من بيان أن الإسلام لم يأت استطراداً طبيعياً للنمط الفكري والسلوك الحياتي الذي كانت عليه الجاهلية الوثنية ، بل إنه على

النقيض من ذلك تماماً ، جاء مصادرة كاملة أو شبه كاملة لنوعية التعامل الفكري والحياتي في المجتمع العربي ، باستثناء بعض الملامح الصميمية التي تمليها فطرة الخلق التي فطر الله عز وجل الناس عليها ، أما ما عدا ذلك فقد جاء الإسلام بنقيضه تماماً ليؤسس عالماً مغايراً للجاهلية كمّاً وكيفاً .

وهذا الادعاء بسطحية عبادة الأوثان لدى أهل مكة ، يكذبه واقع الدعوة الإسلامية ، والعنت الذي لاقاه الرسول ﷺ خلال الفترة المكيّة حيث بقي القرآن الكريم طيلة ثلاثة عشر عاماً وهو يعمل على إرساء قواعد التوحيد ، وتأكيد وحدانية الله عزَّ وجل ، ومحاربة الشرك والوثنية وعبادة الأصنام . ويكفي لبيان كذب دعواه أن نورد ما استشهد به هو نفسه في مقاله المذكور حيث قال : (فقوم النبي ﷺ ما يعبدون إلَّا كما يعبد آباؤهم من قبل .. وقد شن القرآن الكريم هجوماً عنيفاً في آيات كثيرة على تعلّق الناس بالقيم والآراء والعقائد الموروثة عن الآباء رغم مخالفتها للعقل ومناقضتها لكل منطق ...) فما هي هذه العقائد الموروثة التي تعلق الناس بها باعترافه ؟ أليست هي التعلق بالأوثان والأصنام ؟ ألا قاتل الله الهوىٰ ...

تهجم وافتراء :

عندما وجد الكاتب أن ما ذهب إليه من اعتبار كل جديد بدعة ، وأن البدعة ليست مذمومة بل محمودة ، عندما وجد أن هذا يتعارض مع عدد من الأحاديث النبوية الصحيحة التي رواها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما ، أملىٰ عليه هواه ، أو من ينقل آراءهم ويدَّعيها لنفسه ـ بعد أن يلبسها ثوباً رقيقاً حتى لا يزعج المسلمين مسُّها تنفيذاً لتوصية والده ـ أن ينكر هذه الأحاديث ، وأن يتهم المحدِّثين بالكذب والافتراء والدسّ على رسول الله ﷺ . . مدّعياً أن

الرسول ﷺ (أمرنا أن نعرض ما ينسب إليه من أحاديث على القرآن ، فما اتفق منها معه قبلناه ، وما خالفه منها أبينا الأخذ به) .

لقد تعرَّض أئمة الحديث وصيارفته لهذا الحديث الموضوع وبيّنوا أنه مختلق على النبي ﷺ وهو من صنع الزنادقة ، وضعوه كي يصلوا إلى غرضهم الدنيء ، وهو إهمال الأحاديث النبوية وتشكيك المسلمين بأصول دينهم ، وقد ذكر ابن عبد البر في (جامع بيان العلم : ٢/١٩١) أن ألفاظ هذا الحديث لا تصح عند أهل العقل والنقل ، والحديث موضوع ، قال عبد الرحمن بن مهدي : « الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث » يعني : ما روي عنه ﷺ أنه قال « **ما آتاكم عنِّي فاعرضوه على كتاب الله** ... » وهذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه ؛ وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم ، وقالوا : نحن نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ، ونعتمد على ذلك ... قالوا :

* فلمّا عرضنا هذا الحديث الموضوع على كتاب الله ، فوجدناه مخالفاً لأنَّا وجدنا في كتاب الله :

﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ (الحشر : ٧) ، ووجدنا فيه :

﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّه** ﴾ (آل عمران : ٣١) ، ووجدنا فيـــه :

﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه** ﴾ (النساء : ٨٠) .

وهكذا نرىٰ أن القرآن الكريم يكذب هذا الحديث الموضوع بروايته ويردّه (إرشاد الفحول : ٢٩) .

وقال الحافظ السيوطي في (مفتاح الجنَّة : ١٠ و ٢١) : **الحديث الذي روي في عرض الحديث على القرآن باطل لا يصح** ، وهو ينعكس على نفسه

بالبطلان ، فليس في القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن .

وقال الفيروزآبادي في (سفر السعادة : ٢٥٩) : **وما نقل من مثل حديث** : **إذا سمعتم عنِّي حديثًا فاعرضوه على كتاب الله ... لم يثبت فيه شيء** ، **وهذا الحديث من أوضع الموضوعات** ، **بل صح خلافه وهو حديث** : « **ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه** » .

وفي (قواعد التحديث : ١٤٩ وما بعدها) جاء قول المصنف : (السنَّة مع القرآن على ثلاثة أوجه : أحدها : أن توافقه على كل وجه ، فيكون من توارد الأدلة . ثانيها : أن تكون بياناً لما أُريد بالقرآن ، ثالثها : أن تكون دالَّة على حكم سكت عنه القرآن .. وهذا الثالث يكون حكماً مبتدءًا من النبي ﷺ فتجب طاعته فيه ، ولو كان النبي ﷺ لا يطاع إلَّا فيما وافق القرآن لم يكن له طاعة خاصة وقد قال تعالى : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ (النساء : ٨٠) . وكان الأوزاعي رحمه الله ، يقول : « **الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب** » أي : لتبيين المراد منه .

وأخرج البيهقي ، عن أيوب السختياني ، قال : إذا حدَّثت الرجل بسنَّة ، فقال : دعنا من هذا وأنبئنا عن القرآن ، فاعلم أنه ضالّ ، قال الأوزاعي : وذلك أنَّ السنَّة جاءت قاضية على الكتاب ـ أي : مفسِّرة ـ ولم يجيء الكتاب قاضياً على السنَّة . كما أخرج عن أيوب السختياني أيضاً ، قال : قال رجل عند مطَّرف بن عبد الله : لا تحدِّثونا إلَّا بما في القرآن . فقال مطّرف : **إنَّا والله ما نريد بالقرآن بدلاً** ، **ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منَّا** ... أي : رسول الله ﷺ .

وقال الصحابي عمران بن حصين رضي الله عنه للرجل الذي أتاه ، فسأله عن شيء ، فحدَّثه ، فقال الرجل : حدِّثوا عن كتاب الله ولا تحدِّثوا عن غيره : **إنَّك امرؤ أحمق** ، **أتجد في كتاب الله تعالى صلاة الظهر أربعاً لا يجهر**

فيها ؟ ثم عدَّد عليه الصلاة ، والزكاة ونحو ذلك ، ثم قال : أتجد هذا في كتاب الله مفسّراً ؟ إنَّ كتاب الله قد أبهم هذا ، وإنَّ السنَّة تفسر ذلك ... (جامع بيان العلم : ٣/١٩١) .

وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه (الفقيه والمتفقه : ٣/١٤٩) عن نعيم بن حمّاد ، قال : (من ترك حديثاً معروفاً فلم يعمل به ، ورأى أن عليه أن يطرحه فهو مبتدع) **وعلى هذا يكون الكاتب صاحب بدعة في دين الله عز وجل** .

وحتّى يسوغ تكذيبه لأحاديث رسول الله ﷺ يشكك في كتب السنة النبوية كلها بقوله : (لقد أوردت كتب الصحاح والسنن والمسانيد والمغازي والطبقات من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ ما يذم البدع ويدعو إلى رفض كل جديد محدث .. لعلمنا أن الرسول ﷺ كان أعظم رافض لاتباع سنَّة من كان قبله) هكذا . ثم قال : (فإن احتج بعضهم بأنَّ هذه الأحاديث رواها البخاري ومسلم وغيرهما من الثقات ، قلنا : إنه ورد في البخاري أيضاً « من تَصبَّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر » وأنه قد ورد في صحيح مسلم « **لولا حوّاء لم تخن أنثى زوجَها الدهرَ** » وفي غير البخاري ومسلم « الباذنجان شفاء من كل داء ») .

* أئمـــة الحديث الذين صدقوا في الإخلاص لله ، ونصبوا أنفسهم للدفاع عن دينهم ، وتفرغوا للذبِّ عن سنة رسول الله ﷺ ، وأفنوا أعمارهم في التمييز بين الصحيح وبين المكذوب ، ورسموا قواعد للنقد ، ووضعوا علم الجرح والتعديل ، فكان من عملهم « علم مصطلح الحديث » وهو أدق الطرق التي ظهرت في العالم للتحقيق التاريخي ومعرفة النقل الصحيح من الباطل ، حتى باعتراف غير المسلمين . وإليك ما كتبه الدكتور أسد رستم في مقدمة كتابه « مصطلح التاريخ » :

(إنَّ ما جاء فيها ـ رسالة في مصطلح الحديث للقاضي عياض ـ من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج تحت عنوان « تحري الرواية والمجيء باللفظ » يضاهي ما ورد في الموضوع نفسه في كتب الفرنجة في أوروبا وأمريكا .. وبعض القواعد التي وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة في الحديث تتفق في جوهرها وبعض الأنظمة التي أقرها علماء أوروبا فيما بعد في بناء علم المنهجية « المثودلوجية » ، ولو أن مؤرخي أوروبا في العصور الحديثة اطّلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا في تأسيس علم » المثودولوجية » حتى أواخر القرن الماضي .. فنؤكد لهم بأنَّ ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا ، ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل بأسسه وقواعده ..) .

* علماء الحديث رحمهم الله الذين خدموا السنَّة خدمة جليلة يتبينها كل من له أدنى اطلاع على الكتب التي صنّفت في الأحاديث الموضوعة ، كشفوا تزييف الزائف ، وأعادوا الحق إلى نصابه ، وحفظوا أحاديث رسول الله ﷺ بعد أن قتلوا المرويات بحثاً ، وأفنوا أعمارهم فيها .. هؤلاء هم الذين يفتري عليهم الكاتب ويشكك بصدق روايتهم ، بل يتهمهم بالكذب على رسول الله ﷺ (!!) وأكبر الظن أنه لا يعرف شيئاً عن جهودهم وأمانتهم ..

والآن نأتي لبيان وجه الحق في الأحاديث الثلاثة التي ذكرها كأمثلة ليشكك بسلف هذه الأمة :

الحـــديث الأول [حديث التمرات] :

الذي رواه البخاري رحمه الله : « من تصبَّح بسبع تمرات ـ وفي لفظ : من تمر العالية ـ لم يضره ذلك اليومَ سمٌّ ولا سحر » أورده والده في كتابه « فجر الإسلام » وكذَّبه ، هكذا كما يفعل الولد ، ورد عليه شيخنا السباعي رحمه الله في أطروحته للدكتوراه « السنَّة ومكانتها في التشريع

الإسلامي » بقوله : (إنَّك لا تشك معي في أن إقدام مؤلف « فجر الإسلام » على القطع بتكذيب هذا الحديث جرأة بالغة منه لا يمكن أن تقبل في المحيط العلمي بأي حال ؛ ما دام سنده صحيحاً بلا نزاع ، وما دام متنه صحيحاً على وجه الإجمال .. ولا يضره بعد ذلك أن الطب لم يكتشف حتى الآن بقية ما دلّ عليه من خواص العجوة .. والذي أراه أن المبادرة إلى تكذيب حديث ورفضه لا يصح إلَّا إذا وهن طريقه ، أو حكم العقل والطب حكماً قاطعاً بتكذيبه وبطلانه ، وهذا الحديث قد صح سنده من غير طريقٍ عن أئمة الحديث ، ورواه عدول لا مجال لتكذيبهم ، ومتنه صحيح على وجه الإجمال ، وقد جرّبه كثير من الناس ، ومن المقرر حتى في الطب الحديث أن العجوة مغذية ، ملينة للمعدة ، منشطة للجسم ، مبيدة للديدان المنتشرة فيه ، ولا شك أن الأمراض الداخلية من تعفن الأمعاء وانتشار الديدان سموم تودي بحياة الإنسان إذا استفحل أمرها ، وإذنْ فالحديث من حيث معالجة العجوة للسموم بالجملة صادق لا غبار عليه . أما السحر ، فإذا ذهبنا إلى أنه مرض نفسي وأنه يحتاج إلى علاج نفسي ، وأن الإيحاء النفسي له أثر كبير في شفاء المرضى بمثل تلك الأمراض .. فلا أشك في أن ذلك الحديث يحدث أثراً طيباً في نفس المسحور . وقد أثبت الطب أثر الإيحاء في كثير من الأمراض شفاءً أو إصابة) (ص : ٢٨٤ ـ ٢٨٥) .

ولابن القيم في كتابه « زاد المعاد » كلام جيد حول الحديث نذكر منه قوله : (والتمر غذاء فاضل حافظ للصحة ، ولا سيّما لمن اعتاد الغذاء به ، كأهل المدينة وغيرهم ، وهو من أفضل الأغذية في البلاد الباردة والحارة التي حرارتها في الدرجة الثانية ..) .

وعن الأثر العلمي لتمر المدينة المنورة يقول شيخنا السباعي رحمه

الله : (وقد جربت ذلك بنفسي حين ذهبت إلى الحج عام ١٣٨٤هـ . فاستمررت على التصبّح بسبع تمرات من تمر المدينة مدة خمسة أشهر كاملة ، وأنا مصاب بمرض السكري ، ثم حلّلت الدم والبول ، فلم يظهر أي أثر للسكر في البول ، ولم يزد السكر في الدَّم عمَّا كان عليه قبل سفري إلى الحج) (مجلة حضارة الإسلام الدمشقية : العدد الثالث ، السنة الخامسة) .

وقد نشرت جريدة الأهرام القاهرية في عددها رقم (٢٧٩٠٥) الصادر بتاريخ ١٢ / ١٢ / ١٣٨٢هـ . ٢٦ / ٥ / ١٩٦٣م تقول : (أثبتت الأبحاث العلمية التي أجريت أخيراً بالمركز القومي للبحوث أن البلح غذاء كامل ، يفيد في وقاية الجسم وعلاجه من أمراض العيون وضعف البصر ، وعلاج الأمراض الجلدية كالبلّاجرة ، وأمراض الأنيميا وحالات النزف ، ولين العظام والبواسير ، ويساعد المرأة الحامل بسهولة على الولادة .. صرّح بذلك الدكتور عزيز شرف المشرف على وحدة بحوث الأدوية بالمركز القومي للبحوث ، وأضاف قائلاً : إنَّ الأبحاث أثبتت كذلك أن البلح يعادل اللحم في قيمته الغذائية ، ويتفوق عليه بما يعطيه من سعرات حرارية ومواد معدنية وسكرية ، وذلك بالإضافة إلى أنه غني بالكالسيوم والفسفور والحديد ، ويحتوي على غالبية الفيتامينات المعروفة ...) .

ولا ندري ما الذي أخذه على هذا الحديث حتى شكّك بالبخاري وصحيحه بسببه ؟

حديـــث الأثنى [الحديث الثـاني] :

« لولا حوَّاء لم تخن أنثى زوجَهَا الدهرَ » رواه الإمام مسلم في صحيحه

(٤ / ١٧٩) ، والحديث بتمامه على النحو التالي : « عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لولا بنو إسرائيل لم يَخبث الطعام ـ يفسد ـ ولم يَخنز اللحم ـ ينتن ـ ، ولولا حوّاء لم تخن أنثىٰ زوجَها الدهر » .

قال العلماء : معناه أن بني إسرائيل لمّا أنزل الله عليهم المنَّ والسلوى نُهوا عن ادخارهما ، فادّخروا ، ففسد وأنتن واستمر من ذلك الوقت .. ولولا أن حواء خانت آدم في إغرائه وتحريضه على مخالفة الأمر بتناول الشجرة ، وسنت هذه السنة ، لما سلكتها أنثى مع زوجها ، وذلك منها خيانة له ، فنزع العرق في بناتها ، وليس المراد بالخيانة هنا : الزنىٰ . (مختصر صحيح مسلم بتحقيق الألباني : ١ / ٢١٩) .

ولا نعرف لم أسقط الكاتب الجزء من الحديث المتعلق ببني إسرائيل (!!) . أهي الرغبة في التطبيع ؛ أم أن « شاخت » اليهودي الذي ينقل عنه ويدعي ما نقل لنفسه هو الذي أسقط ما أسقط ؟ كما أننا لا نعرف مأخذه على هذا الحديث الذي دفعه ليشكك بالإمام مسلم ويفتري عليه بسببه !!

[الحديــث الثالــث] :

« الباذنجان شفاء من كل داء » هذا ليس من الحديث ، فلا أساس له . هو من الموضوعات ، وقد نص على بطلانه غير واحد من الحفَّاظ ، نذكر منهم على سبيل المثال : ابن القيم في « المنار المنيف » ـ الملاّ علي القاري في « المصنوع » ـ السيوطي في « الآلىء المصنوعة » ، وقال ابن قيم الجوزية في كتابه (الطب النبوي : ٢٩١) (وهذا الكلام ـ أي الباذنجان ـ مما يستقبح نسبته إلى آحاد العقلاء فضلاً عن الأنبياء) ويقول السيوطي في

(تدريب الراوي : ١/ ٢٩٠) (من الموضوع أيضاً : حديث الأرز والعدس والباذنجان والهريسة ...) **هذه هي أمانة العلم لدى الكاتب وأمثاله ومن نقل عنهم ..**

وهنا لابد من التذكير بأنَّ الإمام مسلماً رحمه الله روى في صحيحه عن سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما ، قالا : قال رسول الله ﷺ : « من حدَّث عني بحديث يرىٰ أنه كذب ، فهو أحد الكذَّابين » ومما تواتر عنه ﷺ **قوله** : « **من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار** » .

وجزم الشيخ محمد والد إمام الحرمين الجويني بتكفير من وضع حديثاً على رسول الله ﷺ قاصداً إلى ذلك عالماً بافترائه ، وهو الحق .. (الباعث الحثيث : ٨٤) .

وبعـــــــــد ..

* فإننا نكتفي بهذه النماذج لبيان وجه الحق ، وهتك الأستار عن هؤلاء الذين يحاولون هدم تاريخ هذه الأمة ؛ بهدم فقهائها ومجتهديها ومحدِّثيها وسلفها الصالح الذين تلقينا عنهم العلم ، وأدّوا إلينا الأمانة ، لأن هدمهم ، والافتراء عليهم ، والتشكيك بهم تشكيك وهدم للقرآن نفسه وللسنة النبوية وأصول الشريعة ، وهو ما يعمل له أعداء هذه الأمة من مجوس ويهود وملحدين وصليبيين منذ أربعة عشر قرناً ، ولا يزالون يعملون ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارىٰ حتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم** ﴾ ، ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ .

ونقول : إنَّ الرغبة في الشهرة ، والتظاهر بالتحرر الفكري من ربقة

التقليد ـ كما يدّعون ـ مع الجهل بحقائق الإسلام وتراثه وتاريخه وتاريخ رجالاته ، وعدم الاطّلاع عليه من مصادره الأصلية وينابيعه الصافية ؛ إضافة إلى الأهواء والانحرافات الفكرية .. هي التي توقع أصحابها في الفخّ الذي نصبه أعداء الإسلام لهذه الأمة وتوقعهم في حبالها .

لذا كان البحث في السنة النبوية ومحاربة البدعة في دين الله عزَّ وجل أمراً على غاية الأهمية ، خاصة إذا تنبهنا إلى الأحابيل والمكايد التي تنصب في هذه الأيام لقطع ما يصل الأجيال المسلمة بنبيها ﷺ . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الْبَابُ الْخَامِسُ

الدَّعْوَةُ إِلَى الْعَامِيَّةِ

الباب الخامس

الدعوة إلى العامية

تاريخها وأثرها على وحدة الأمـة

دعاني إلى كتابة هذه الكلمة تلك المعركة المفتعلة التي تثار بين الحين والآخر في لبنان خاصة ، وغيرها من بلاد العرب عامة ، على صفحات الجرائد والمجلات بشأن العامية والفصحى ؛ داعيةً إلى الكتابة بالحرف اللاتيني ، حتى إن أحدهم عزا سبب نكبة حزيران ١٩٦٧م التي لحقت بأمتنا ، وأدت إلى ضياع بيت المقدس وبقية فلسطين ، وسيناء والجولان ، إلى تمسكها باللغة الفصحى ، كما عزا لها أيضاً أسباب تأخرنا الحضاري (!!) .

واللغة عندنا هي من أهم العناصر التي تمد الأمة بقوة الحياة وبالقدرة على البقاء والاستمرار لأنها لغة القرآن الكريم ، وهذا الاعتبار أحلّها مركز الصدارة في العالم الإسلامي ، وهي بهذا المعنى أدت دوراً مهماً ، وكانت عنصراً رئيساً في التوحيد ، والارتفاع إلى ما هو أسمىٰ من العصبيات والقوميات ، حيث فرضت نفسها من منظور إسلامي عقيدي ، ولقد فطن المسلمون الأوائل لهذا المعنى ، من هنا جاء قول عمر رضي الله عنه : « تعلموا العربية فإنها من دينكم » حتى أصبح اللسان العربي شعار الإسلام وأهله كما قال ابن تيمية رحمه الله ، واللغة فوق ما هي أداة

للتفاهم ، جامع بأوسع المعاني ، وسياج للأمة ، وصلة بين ماضيها وحاضرها ، وطريق إلى مستقبلها ، ومجلىً لرسالتها ، وعنوان لثقافتها . وإذا كانت الأمة قديمة اللحمة بالتاريخ ، واضحة النسب في المجد ، كانت أحرص على ماضي لغتها ، لأنها لا تريد أن تفرط بشيء من تاريخها ، فإن الأمة إذا بدأت تنسى تاريخها سهل على الحوادث أن توزعها بين الأمم المختلفة الطامعة بها أو الطاغية عليها من كل جانب .

لذا كانت هذه المعركة المفتعلة لإلهاء الأمة عن الخطر الحقيقي الداهم ، وصرفها إلى معارك جانبية ، وإلى توهين عرى الروابط بين الأشقاء والإخوة على صعيد وطننا الكبير .

ومما يؤكد أهمية اللغة أن إسرائيل أحيت من الحفريات لغةً انقرضت منذ ألفي سنة ، وسمّت كل منشآتها بها : « كنيست ـ هستدروت ـ كيبوتيزم ... » كل المصطلحات التي لم تسمع بها العبرية قبل أن تختفي من الحياة نُحتت لها ألفاظ عبرية ، **بل وتشترط إسرائيل على كل مهاجر إليها أن يتخلى عن اسمه القديم ، ويتخذ اسماً عبرياً ، أو يعبرن[1] اسمه ، وهذا « شمويل يوسف عجنون » يكتب بالعبرية ، ويصفها بأنها لغة الله ، ويتقدم بها**

---

١ ـ يؤكد هذا ما رواه « أوري أفنيري » بنفسه في كتابه (إسرائيل بدون صهيونية ـ ص : ٤) إذ يقول : اسمي من التوراة ... « أوري » يعني الضوء ... « أفنر أو أبنر » هو قائد الملك داود .. شخصية أحبها دائماً .. وبالطبع لم أولد بهذا الاسم .. أنا خلعته على نفسي .. كما فعل كل أترابي في فلسطين ، غيرت اسمي فور بلوغي سن الثامنة عشرة .

بهذا الفعل كنا نعلن انفصالنا عن ماضينا ، انقطاعنا عنه نهائياً .. عن الشتات اليهودي ـ المنفى ـ عالم آبائنا ، ثقافتهم ومكوناتهم ، نحن عنصر جديد ، شعب جديد ، ولدنا في اليوم الذي وضعنا أقدامنا فيه على تراب فلسطين .. نحن عبرانيون أكثر منا يهودَ . وأسماؤنا العبرية تعلن ذلك .

للحصول على جائزة « نوبل » ويفوز بها ، ويقول أحد كتابهم ـ « جوزف موريس » يهودي إنكليزي عام ١٩٠٧م ـ في كتاب « في الفكر اليهودي » : « **الذين يبعدوننا عن اللغة العبرية يضمرون الشر لشعبنا ومجده الخالد ، طالما سنظل يهوداً ، وطالما سننادي بأن التوراة كتابنا ، يجب أن نقدّس اللغة التي كتبت بها تقديساً لا حدّ له** » .

هل حالت العبرية التي تدرس بها إسرائيل في معاهدها دون دراسة الطب والذرة والصواريخ ومعادلات الشيفرة وحلها ؟ هل العبرية لها في العلوم تاريخ أعرق أو أحدث من العربية ؟ لماذا يصرون إذن على أن العلوم لا يمكن أن تدرس بالعربية ويحذروننا من التخلف ما دمنا نتمسك بالفصحى ، اللغة الحية العريقة التي تنفرد وحدها دون لغات العالم جمعاء باتصالها الثقافي ، فأنا أقرأ الآن من كتاب الطبري عبر ألف سنة أو تزيد ... ما تغير منه حرف ، ولا صعب فهم جملة ؟! أمة بهذا الاستمرار وهذا الاتصال تجعل لغتها هدفاً للسخرية ومحاولات أدعياء العامية وادّعاء صعوبتها وتخلفها !! ويحضرني هنا قول المستشرق « **جب** » عضو مجمع اللغة العربية بمصر في معرض حديثه عن الوحدة العربية : « **إن من أهم مظاهر الوحدة العربية : الحروف العربية واللغة العربية التي هي اللغة الثقافية الوحيدة** » لذلك لا بد من حربها .

غبي من يزعم أنه فينيقي وهو لم ير « فينيقية » ولا عرف كلمة فينيقية ، ومع ذلك فهو يؤكد اتصال نسبه واضحاً بشعبٍ ختم التاريخ سجل حياته منذ ألفين وخمسمائة سنة على أسوأ ما ختم به تاريخ شعب ، ثم تراه بعد ذلك ينكر على الناس أن يكونوا عرباً ، أو أن تكون العروبة نسباً راجحاً لهم وهم يتكلمون لغة كانت حية قبل أن تطلع الشمس على « فينيقية » !! .

إنه الحقد على هذه الأمة وعقيدتها ، والرغبة في تحطيم آخر ما بقي من

روابط تشد أفرادها بعضهم إلى بعض ليسهل على الطامعين ابتلاعها والقضاء عليها ، **إنهم يريدون أن يمزقوا الوحدة التي صنعتها لنا لغة القرآن الكريم ، اللغة العربية الفصحى بما حملت من رسالة وتاريخ** ، ويجمل بنا أن نذكر هنا الوصف الذي أورده الدكتور حسين الهراوي لتقريرٍ وقع في يده من لجنة العمل المغربي الفرنسية ، حيث يقول : « فرأيت هذا التقرير يتبع السياسة الاستعمارية ، ويصف مقاومة الإسلام ، والتقارير السرية التي يرسلها المستشرقون في البلاد المستعمرة إلى حكوماتهم لمقاومة الإسلام ، لأن روحه تتنافى مع الاستعمار ، **وأن أول واجب في هذا السبيل هو التقليل من أهمية اللغة العربية ، وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحلية واللغات العامية في شمالي أفريقية حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن التغلب على عواطفهم** » (الهلال : يناير ١٩٣٤) .

وبعد : ليست المعركة بين العامية والفصحى أول معركة تعرضت لها الأمة ، ولا هي آخر معركة ستخرج العربية منها ظافرة ـ بعون الله تعالى ـ إن الثقة بالظفر آتية من أننا نعلم بأن المعركة تدور على أرض العرب ، ولكن أركان حربها يقبعون في عواصم الدول المستعمرة الطامعة في القضاء على هذه الأمة وابتلاعها .

وسنرى مصداق ذلك في تتبع الدعوة إلى العامية في الوطن العربي ، من الذي بدأها ؟ وما هي غايته ؟ وبعد ذلك سنرد على بعض الشبه التي يثيرونها ضد العربية الفصحى .

مـــن تاريخ القضيـــــة :

منذ استيقظ العالم الأوروبي لنهضته الحديثة وهو يرى عجباً من حوله ، عالم عربي لم تستطع أوروبا إبان الحروب الصليبية أن تثبت أقدامها فيه بالقوة

العسكرية ، فكان لا بدّ لها من بحث العوامل ، عوامل تمنّع هذا العالم على الأوروبيين ، والسبيل إلى توهين هذه العوامل لتحقيق تثبيت أقدامهم في وطننا الكبير[٢] ، لذلك ظهر الاستشراق لدراسة أحوال هذا العالم الفسيح الذي سوف تتصدى له أوروبا بعد يقظتها ، وعلى حين غفوة رانت على عالمنا العربي ؛ فكان من أول هموم الاستشراق أن يبحث لأوروبا الناهضة عن سلاح غير أسلحة القتال لتخوض المعركة مع هذا العالم . وبدأ الغزو المسلح وسار الاستشراق تحت رايته ، فمن أجل ذلك كانت حملة « نابليون بونابرت » عام ١٧٩٨م على مصر وبلاد الشام . لكنه لم يلبث إلا قليلاً ثم رحل ، وبعد قليل صار أمر مصر إلى « محمد علي » الألباني ـ ١٨٠٥م ـ ومن خلال حكمه سيطرت القناصل الأوروبية على مرافق البلاد ، ومنها : التعليم ، وحال جهل محمد علي وحبه للعظمة بينه وبين إدراك مقاصد هؤلاء الغزاة المتربصين في توجيه التعليم وجهةً غير صحيحة ولا نافعة ، فلم يكن للغة البلاد نصيب مما ظنه محمد علي ارتقاءً بالبلاد وتعليمها ، وهكذا حدثت أول فجوة بين التعليم ولغة التعليم .

ثم أرسلت البعثات إلى فرنسا عام ١٨٢٦م فكان ممن رافق هذه البعثات العلمية ، شاب في الخامسة والعشرين من عمره ، ممن تلقوا علومهم في الأزهر ليكون لهم إماماً ، وبجدّه واجتهاده تعلم الفرنسية ، فلما عاد إلى مصر ألّف وترجم ، فكان مما ألف كتاب سماه : « أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر

---

(٢) كان مما حملته الأنباء مؤخراً قيام دولة العدو بتشكيل لجنة من كبار علمائها ومفكريها لدراسة « ظاهرة صلاح الدين » والتعرف على الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الظاهرة التي ألحقت الهزيمة بالصليبيين في « حطين » وكانت عاملاً أساسياً في القضاء على الغزوة الصليبية وردّها على أعقابها خاسئة خاسرة ، في محاولة منها لمنع بروز مثل هذه الظاهرة ..

وتوثيق بني إسماعيل » عام ١٨٦٨م . عقد فيه فصلاً ذكر فضل العربية ووجوب إحيائها ، **لكنه ضمنه دعوة إلى استعمال العامية** (!!) فقال : « نعم إن اللغة المتداولة المسماة باللغة الدارجة التي يقع بها التفاهم في المعاملات السائرة لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ليتعارفها أهل الإقليم حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم ، وتصنف فيها كتب المنافع العمومية والمصالح البلدية » .

لكن هذا الرأي الذي وقع فيه « **رفاعة الطهطاوي** » لم يكن رأياً استحدثه هو بل جاءه أيام كان مقيماً مع البعثة في فرنسا « غرّه به داهية من دهاة القوم » عرف ما يكنُّ رفاعة لبلاده من حب التقدم ، فلم يزل به حتى أراه الباطل حقًّا ؛ وإلا كيف غاب عن رفاعة أنه كان أولى به أن يدعو إلى تعميم التعليم في كل بلدة من البلاد ، كما كان ذلك في البلاد الغربية ؟! فهل رأى هو في فرنسا أن أهل كل إقليم أو قرية يعلمون أبناءهم اللغة الدارجة ويكتبون بها ؟

بيد أن هذه الدعوة منه لم تلق سميعاً ولا مجيباً ، وذهبت أدراج الرياح ، ولكن لم يمض غير قليل حتى أنشئت المدارس الابتدائية التي كانت قد ألغيت فاحتاجت إلى عدد وافر من أساتذة اللغة والأدب ، هذا فضلاً عن المدارس الثانوية ـ على قلتها يومئذٍ ـ فأنشئت مدرسة دار العلوم عام ١٨٧٢م قبل وفاة رفاعة الطهطاوي بعام واحد ، وتولى التدريس فيها رجل من عظماء رجال الإحياء هو الأستاذ **حسين المرصفي** ـ رحمه الله ـ فكان له أثر عظيم في إحياء اللغة وآدابها ، وكان له فضل عظيم جدًّا على كل من تخرج في دار العلوم .

واقترن وجود المرصفي بظهور شاعر فذٍّ نقل اللغة من حال إلى حال ، فأسقط عن الهمم تلك الأغلال التي كانت تمسكها إلى الأرض ، وتقعدها بتوهم

العجز عن إدراك الأوائل في نصاعة العبارة ، وتجويد الشعر ، وهو الشاعر **محمود سامي البارودي** ، وبدأت العربية من يومئذٍ تستعيد شبابها وقوتها ، وانطلقت الألسنة من عقال العجز بفضل هذين الرجلين ، ولكن أنّي للعين الماكرة الساهرة أن تغفل عن عواقب ما ترى من حركة الإحياء ؟ وكان يقبع بين جدران دار الكتب المصرية ماكر خبيث يقال له : « **ولهلم سبيتا** » نزل مصر وعاش في الأحياء المصرية ، ودرس اللهجة العامية ، ووجد أنها تختلف من بلد إلى بلد ، ومن حي إلى حي ، فلما رأى هو ومن يهدف إلى تحطيم حركة الإحياء من أهل الاستعمار الأوروبي أن الأمر يوشك أن يخرج إلى ما لا يحمدون عقباه من سيادة اللغة العربية ونهضتها مرة أخرى ، سارع إلى تأليف كتاب سماه : « قواعد اللغة العامية في مصر » قال في مقدمته : « وأخيراً سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طوال مدة جمع هذا الكتاب ، وهو أمر يتعلق بمصر نفسها ـ ما أشد حبه لمصر (!!) ـ ويمس أمراً هو بالنسبة لها ولشعبها يكاد يكون مسألة حياة أو موت ، فكل من عاش فترة طويلة في بلاد تتكلم بالعربية يعرف إلى أي حد كبير تتأثر كل نواحي النشاط فيها بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة » .

وظاهر جدًّا أن « **سبيتا** » هذا مخادع عظيم ، لأن نشر التعليم الصحيح كافٍ في إزالة هذه الصعوبة بلا أدنى ريب ، كما حدث في كل لغات الدنيا ولا يزال يحدث إلى اليوم .

ولم يمض إلَّا قليل حتى قام «**المقتطف**»[٣] وكان ممالئاً للإنكليز فاقترح عام

---

(٣) من المجلات العلمية !! التي أصدرها المؤيدون للاستعمار البريطاني ، وكانت صحيفتهم اليومية « المقطم » حيث كان يقدِّم المحتل البريطاني من خلالها بصورة إنسانية رفيعة ، تجشم الصعاب وتحمل المشاق لرفع الظلم عن كاهل المصريين ، وإرساء قواعد العدل بينهم ، ولإنقاذ مصر من الإفلاس وبناء اقتصادها على أساس =

١٨٨١م كتابة العلوم بلغة الحديث ، واختلس حجج «**سبيتا** » ورددها دون أن ينسبها إليه ، وقام الشيخ **خليل اليازجي** فدفع حجج أصحاب « **المقتطف** » دفعاً شديداً، وردّ عليهم بكلام عاقل لا هوى له .

وشُغل الناس بالنكبة الكبرى بهزيمة عرابي ودخول الإنكليز واستيلائهم على التعليم كله ، وجعلوا أمره ملحقاً بوزارة الاشغال ، ولكن هل هدأ الأمر وانتهى ؟ كلا ، فقد كان في مصر « **كارل فورلرس** » الألماني خادم الإنكليز و« **ويلككْس** » المهندس الإنجليزي ... وبدأ كل منهما حركة منفصلة ، لكنها متصلة المعاني .

فألف « **فورلرس** » عام ١٨٩٠م كتاباً في « **اللهجة العامية الحديثة في مصر** » وألح على ما ألح عليه « **سبيتا** » من وصف الفصحى بالجمود والصعوبة .

أما « **ويلككْس** » فألقى محاضرة نشرها في مجلة الأزهر عام ١٨٩٣م - وكانت قد آلت إليه !! - زعم فيها أن الذي عاق المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفصحى ، ودعا إلى العامية ، وقال للناس : « وما أوقفني هذا الموقف إلاَّ حبي لخدمة الإنسانية ورغبتي في انتشار المعارف ، وما أجده في نفسي من الميل إليكم الدالّ على ميلكم إلي » ومع المحاضرة نشر إعلاناً في

= سليم !! ومن هذا المنطلق أفسحت المجال أمام يهود للرد على الكتاب المصريين الذين يهاجمون سياسة تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود ، ويحذرون من النشاط الصهيوني ؛ حتى إنهم اعتبروها صحيفة من صحفهم ؛ كما اعتبروا « المقتطف » مجلة من مجلاتهم حيث إنها تبنت الاتجاهات الصهيونية بشكل سافر ، أكثر بكثير من « المقطم » . ولقد أشار « وايز من » في مذكراته (ص : ٩٤) إلى ذلك عندما تحدث عن زيارته لمصر عام ١٩١٧م وأشاد بالروح الودية العظيمة التي يكنّها أصحاب هذه الصحف لليهود ...

المجلة نفسها هذا نصه :

« من قدم لنا هذه الخطبة باللغة الدارجة المصرية وكانت موافقة جدًّا ، يكافأ بإعطائه أربعة جنيهات إفرنكية ، وإن كثر المتقدمون فيعطى هذا المبلغ لمن يحوز الأولية » .

وكانت هذه الدعوة مؤقتةً أيضاً ، **وصادفها مرة أخرى بدء ظهور الشعور الوطني في الشبان الذين صدمهم الاحتلال الإنجليزي ، والذين كان يمثلهم مصطفى كامل** ، وبدأت حركات إصلاح مضادة لما يفعله الإنكليز ، وكانت الحركة الأدبية في ذلك الوقت آخذة في النمو برغم جميع العوائق التي تعترض سبيلها ، وزاد عدد العائدين إلى الفصحى ، وكان ذلك ضربًا من مقاومة العدو الباغي الذي يفرض سلطانه على البلاد .

والظاهر أن الجهات التي سيطرت على سياسة المنطقة وقتها ، أرادت أن تبعث وجهاً جديداً ليتولى الدعوة إلى العامية وتحقير الفصحى ، فأخرجت رجلاً من قضاة المحاكم يقال له « **سلدان ولمور** » فألف كتاباً سماه : « **العربية المحلية في مصر** » عام ١٩٠١م دعا فيه إلى اتخاذ الحروف اللاتينية والتهاج العامية ، ويهددنا إذا لم نفعل ذلك ، بأن لغة الحديث ولغة الكتابة ستنقرضان وستحل محلهما لغة أجنبية نتيجة لزيادة الاتصال بالأمم الأوروبية . وقال : « ومن الحكمة أن ندع جانباً كل حكم خاطيء وجه إلى العامية ، وأن نقبلها على أنها اللغة الوحيدة للبلاد » .

واستجاب « **المقتطف** » مرة أخرى لدعوة العامية ، فهب يقرظ الكتاب ، وبعد سنة ١٩٠١م ظل الأمر مضطرباً ، ولكن ظهر بوضوح للدعاة أن أمرهم قد استوى على وجه لا يرضونه ، وأنهم ينبغي أن يغيروا الموقف ويبدلوا الأماكن ويخلعوا الملابس ، ويتولوا تطرية وجـوه الممثلين الجدد بـالمساحيق

الصالحة .

وتسلم الدعوة إلى العامية في مصر عام ١٩٠٢م **عيسى اسكندر معلوف** اللبناني الأصل ، وعضو مجمع اللغة العربية ، فكان مما قاله ودعا إليه : « إن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة هو من أهم أسباب تخلفنا ... رغم أن من الممكن اتخاذ أي لهجة عامية لغةً للكتابة ، كالمصرية أو الشامية ، وأنها ستكون أسهل على المتكلمين بالعربية كافة على اختلاف لهجاتهم من العربية الفصحى » .

وهذا غير صحيح بل يكذبه الواقع الصريح ، والدليل على مباينته للحقيقة أن العرب إذا اجتمعوا في مؤتمر لم يكد يفهم بعضهم عن بعض إلا إذا تكلموا العربية الفصحى .

وختم مقاله بقوله : « وما أحرى أهل بلادنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التحرر من رق لغة صعبة المراس ، قد استغرقت أوقاتهم وقوى عقولهم الثمينة ، وهي مع ذلك لا توليهم نفعاً ، بل أصبحت ثقلاً عليهم يؤخرهم عن الجري في مضمار التمدن ، وحاجزاً يصدّهم عن النجاح .. ولي أمل بأن أرى الجرائد العربية وقد غيرت لغتها ، وهذا أعده أعظم خطوة نحو النجاح وهو غاية أملي ومنتهى رجائي » .

هل تعرف عداءً للعربية التي لم يُنشأ المجمع إلا لحمايتها أصرح من هذا ؟ فلأي شيء اختير هذا العضو وأمثاله من المعروفين بالكيد للعربية والعرب ؟!

وليس هذا هو كل ما يدعو للعجب من أمور هذا المجمع ، فقد تقدم عضو من أبرز أعضائه ، وهو **عبد العزيز فهمي** ثالث الثلاثة الذين بُني عليهم حزب الوفد المصري باقتراح كتابة العربية بالحروف اللاتينية .

وتسلم الدعوة إلى العامية أيضاً **أحمد لطفي السيد**[٤] الذي خلعوا عليه لقب « أستاذ الجيل » ومنشىء الوطنية المصرية الحديثة ـ على زعم سلامة موسى الذي أيده وناصره ودعا بدعوته ـ يتجلى ذلك واضحاً في الاقتراح الذي تقدم به أحمد لطفي السيد لإصلاح الخط العربي بالدلالة بالحروف على الحركات فتكتب : ضرب « ضارابا » وبإثبات التنوين ورسمه بالكتابة ، فتكتب « سعد » ساعدون ، أو ساعدان ، أو ساعدين ، وبفك الإدغام تكتب « محمدٌ » (موحامادون) !!؟ .

وما كتبه **سلامه موسى** في مجلة الهلال المصرية **عن اللغة العربية من أنها « تبعثر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية** ، فالمتعمق في الفصحى يشرب روح العرب ، ويُعجب بأبطال بغداد بدلاً من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر » وحيث قال أيضاً : « والتأفف من

---

(٤) في عام ١٩٢٥م احتفل يهود بافتتاح الجامعة العبرية في بيت القدس ، وكان في مقدمة الحضور « بلفور » صاحب الوعد المشهور ، وكأنه جاء ليطمئن على غرسه !! وكانت قد وجهت دعوة إلى الجامعة المصرية التي لبت الدعوة بشخص مديرها أحمد لطفي السيد الذي جاء إلى فلسطين ليشارك أعداءها والطامعين فيها فرحتهم ، وقد استغل يهود يومها هذا الحضور إعلامياً إلى مدى بعيد ، وكان مما قالته صحيفة « بالستين ويكلي » تعليقاً على الأمر : [إن حضور مندوب مصر هذه الحفلة كان دليلاً على أن مصر العاقلة (!!) لا ترى في الصهيونية رأي أهل فلسطين] ولم تذكر وكالة أنباء « رويتر » من أسماء من حضروا هذه الحفلة إلا اسم **أحمد لطفي السيد** .. وكانت الدعوة قد وجهت إلى شيخ العروبة **أحمد زكي** رحمه الله وإلى مفتي الديار المصرية الشيخ **محمد بخيت** رحمه الله ، لكنهما أهملاها ولم يردّا عليها .. ولما ألح فريق من يهود مصر على الشيخ رحمه الله بالحضور متعهدين بتقديم كل ما يعينه ويسهل عليه ، متعللين عليه باسم العلم ، كان جوابه القاطع لهم : [إنني لا أستطيع أن أحضر احتفالاً يسيء إلى أهل فلسطين الذين هم في حالة حداد بسبب هذه الجامعة] رحم الله الشيخ وأجزل مثوبته .

اللغة الفصحى التي يكتب بها ليس حديثاً ؛ إذ يرجع إلى ما قبل ثلاثين سنة ؛ حيث نعى **قاسم أمين** على اللغة الفصحى صعوبتها ، وقام على أثره منشىء الوطنية المصرية الحديثة **أحمد لطفي السيد** فأشار باستعمال العامية أي لغة العامة » ، وبيّن أن ما : « يشغل بال السير « **ويلككس** » بل يقلقه هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها ، فهو يرغب في أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية ، فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا » .

وتصدى لهم آنذاك عدد كبير من الأدباء والمفكرين وعلى رأسهم **خليل اليازجي** الذي أخذ على عاتقه إبطال كل مزاعم خصوم اللغة الفصحى .

ولن يكون « **لويس عوض** »(٥) صاحب كتاب « **بلوتولاند** » الذي أعلن فيه

---

(٥) نشرت جريدة الجزيرة السعودية في عددها الصادر الثلاثاء ١٠/٣/١٤٠٢هـ . على صفحة « أدب وثقافة » ملخصًا لكتاب ألَّفه الصحفي اليهودي « موسىٰ إيلمون » بعنوان « رحلة إلى مصر » وموسىٰ هذا صهيوني صاحب ماض عريق في الإرهاب ، كان في عام ١٩٤٨م ضابطًا في جيش العدوان اليهودي ، يمارس الذبح والتقتيل كغيره من المجرمين ...

وفي هذا الملخص جاء قول « لويس عوض » عن نفسه : إنني لست قوميًا وأفتخر بأني علماني ... وقوله : (أعتقد أن اللقاء المتجدد بين المصريين والإسرائيليين سيخلق وضعًا ثقافيًا مثيرًا للاهتمام ، وكم أتمنى أن يحدث ذلك مثلما حدث قديمًا قبل خروج اليهود من مصر ...) كأنَّه يومىء إلى العصور القديمة ، يوم لجأ العبرانيون إلى مصر الفراعنة ، وأقاموا في المنطقة الشرقية ، لكنهم ـ حسب توراتهم ـ كانوا مثالًا للغدر حيث إن آخر ما فعلوه ليلة خروجهم من مصر أنهم سلبوا نساء المصريين حليهم من الذهب والفضة !! أم تراه يومىء إلى فترة اغتصابهم لأرض مصرية حديثة ، وكيف أنهم حاولوا جني ثمار عدوانهم من خلال مطالبتهم مصر بدفع نفقات الانسحاب وتكاليف الإسكان وإنشاء القواعد في النقب ، واستخدام المطارات المصرية في سيناء ، إضافة إلى أطماعهم في بترول سيناء وأسماك بحيرة « البردويل » وتصريحاتهم عن المشاركة في بناء الأهرامات ... ولم يبق إلَّا أن يطالبوا =

الحرب على الفصحى ، وما يتصل بذلك من الدعوة إلى العامية وكسر عمود الشعر العربي ، والذي أهداه إلى « **كريستوفر سكيف** » الإنكليزي ، الذي قال عنه الأستاذ **محمود شاكر** في كتابه (أباطيل وأسمار : ٨) : (كان أستاذًا في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكان جاسوسًا محترفًا في وزارة الاستعمار البريطانية ، وكان مبشِّرًا ثقافيًّا شديد الصفاقة ، سيىء الأدب ، ماكرًا خبيثًا خسيس الطباع ، يفرق بين طلبة القسم الإنكليزي ، يمدّ يدًا إلى هذا ، لأنه تابع له ، حاطب في هواه ، وينفض يده من ذاك ، لأنه يعتصم

= بالمنطقة الشرقية من أرض مصر الغالية بحجة أنهم أقاموا فيها (٤٣٠) عامًا كانوا بعدها عملاء لدولة فارس حين غزت مصر في عهد « قمبيز » ... أهذا الذي يتمناه لويس ؟!

ويتابع قائلًا :

(... إنَّ مصر يجب أن تنفرد حضاريًا ، ولذلك فعليها ألَّا تتجه شرقًا إلى دمشق أو بغداد ، ولكن إلى الشمال والغرب حيث أوروبا ...) لقد ظهر ما استتروبان ، إنه يريد القضاء على عروبة مصر وإسلامها ... ولا غرابة في ذلك ممن يقول عن نفسه أيضًا : (لقد لازمتني الثقافة الغربية منذ صباي ، وكوّنت لهذا الغرض مكتبة ضخمة باللغة الإنكليزية ، وتشبعت بها أكثر فأكثر في لندن ، وعدت إلى مجتمعي لأعلمه أن يثور ويحطّم كل شيء موروث يتمسك به) .

وهو الذي اعتبر عام ١٨٠٠م ـ حين تمكن الفرنسيون المحتلون لأرض مصر من إخماد ثورة القاهرة الثانية ، ودخلوا بولاق ، واستباحوا الأعراض ، وأكرهوا الكثير من الفتيات على البغاء ، اعتبر هذا العام ـ « عام تحرير المرأة » !!

ومن طريف ما يروى عن لويس ، أنه زار الأردن في السبعينيات ، وفي مدينة عمان تطلع إلى صورة معلقة على جدار المجلس الذي ضمّه مع الأستاذ يوسف العظم ، الشاعر والأديب وعضو مجلس النواب الأردني ، فسأله عنها ، قائلًا : ترى قصر من هذا ؟ فأجابه : هذه صورة المسجد الأقصىٰ الذي احتله اليهود . فقال : معذرة ، أليس الأقصىٰ هو الذي نراه في الصحف والمجلات بقبته الذهبية اللامعة ؟ فقال له : بل تلك قبة الصخرة المشرفة . قال لويس : معذرة ، فأنا لم أدخل بلدًا عربيًا قبل =

ببعض ما يعتصم به المخلصون لدينهم ووطنهم ، حمية وأنفة واستنكافًا أن يضع في عنقه غُلًّا للسيادة البريطانية ، وللثقافة التبشيرية النصرانية ... إنه « **شرلتان** » عريض الدعوىٰ ، لا يستحق أن يكون أستاذًا في جامعة ، ولكن سيادة بريطانيا كانت يومئذ هي الغالبة ، وكلمتها هي النافذة) ، وكتاب « **مقدمة في فقه اللغة العربية** » الذي هاجم فيه ما أسماه « **تطرف الإحساس بشرف اللغة العربية وعلوها على غيرها من اللغات بعد نزول القرآن بها** » لن يكون « **لويس** » هذا آخر الدعاة إلى العامية ، وخدام الحرب المعلنة التي يقودها ويوجهها أساطين التغريب والغزو الفكري ضد هذه الأمة

= اليوم ، إذ أمضيت عمري متنقلًا بين مصر وباريس ولندن . قال : وما عمر الأستاذ ؟ فأجاب لويس : تجاوزت الخامسة والستين ؛ ثم تناول برقية خط بها كلمات بالفرنسية دفع بها إلى الساعي ليحملها إلى مكتب البريد ، يطمئن زوجته بالقاهرة عن وصوله إلى عمان بالسلامة ... ولما سأله عن سر قدومه إلى الأردن ، قال : لقد انتدبتني « الأهرام » لأكتب عن الثقافة العربية في شتىٰ أقطارها ، وعلى الطبيعة ، وقد بدأت بلبنان فالأردن وسأمر بالعراق والكويت وعدد من دول الخليج ... وكم ستطول رحلتكم في دنيا العرب ؟ قال : أسبوعين كاملين !! ويعلق الأستاذ العظم قائلًا :

ووقفت في عجبة ودهش وازدراء أمام هذه السطحية التي تنوي الكتابة عن الثقافة العربية في معظم أقطار الوطن العربي في زمن لا يتجاوز أربعة عشر يومًا ، بقلم أمضى صاحبه أكثر من نصف قرن من الزمان معجبًا ، مضبوعًا ، مبشرًا بثقافة الغرب الأجنبي ، متآمرًا على وحدة الوطن العربي الكبير ... (الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية : ٤٨٠ وما بعدها) .

ومن آخر ما نشره « لويس » ما كتبه حول « القومية العربية والوحدة العربية » وأنها أسطورة سياسية لا تعدو أن تكون أحلام يقظة ، وأنها مراهقة سياسية لا تستحق التفكير الجاد ، ولا سند لها من العلم ولا من التاريخ ، وأنها تقوم على العنصرية البغيضة ، وأن مصر ليست بلدًا عربيًا ، وأن لها شخصية متميزة بذاتها ، وأن الشعب المصري ينتمي إلى جنس خاص لا صلة له بالعروبة ، وأن العروبة في أحسن أحوالها ـ كما يفهمها لويس هذا ـ ليس لها وجود خارج الجزيرة العربية !!

وعقيدتها وكتابها ...

هذا في مصر ، أما في الشام فقد كان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة بالعامية وبالحرف اللاتيني : **الاستعماريون الفرنسيون** ، وعلى رأسهم المستشرق الفرنسي ، والموظف في قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية « **لويس ماسينيون** » الذي حاول بث دعوته في المغرب العربي وسورية ولبنان خاصة .

وما جاء في التقرير الذي أعدته لجنة العمل المغربية الفرنسية ، يبيِّن الغاية التي يرمي إليها الاستعماريون من وراء تشجيع اللغة العامية : « وإن أول واجب في هذا السبيل ـ لترسيخ أقدام الاستعمار والقضاء على الأمة هناك ـ هو التقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها : بإحياء اللهجات المحلية واللغات العامية في شمال أفريقيا » .

وقد جرت محاولات عملية كثيرة لوضع العامية موضع التطبيق ، لكنها لم تنجح ، من هذه المحاولات :

١ ـ قواعد اللهجة اللبنانية السورية : **رافائيل نخلة** . الكتاب موضوع بالفرنسية والنصوص العربية منسوخة بالحرف اللاتيني ، وقد طبع في المطبعة اليسوعية[٦] ورقمه في قائمة المطبوعات اليسوعية ٢٩٦ .

٢ ـ التحفة العامية في قصة فنيانوس : **شكري الخوري** ، نشرها **لاي اليسوعي** ، مؤلفة بلغة لبنان العامية ، طبع المطبعة اليسوعية تحت رقم ٤٨٢ .

---

(٦) أُعدّ في الجامعة اليسوعية ببيروت مشروع خطير لإحلال العامية مكان الفصحى ، عرف بـ « مشروع اللغة الأساسية » واللغة الأساسية تعني : فرز الألفاظ المتوافرة في البيئة اللبنانية ، ودراستها بهدف تعليم الطلاب الألفاظ العامية ..

٣ ـ في متلو هلكتاب : **مارون غصن** .

٤ ـ معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية : جمعها وفسرها وردها إلى أصولها الدكتور **أنيس فريحة** ، من منشورات الجامعة الأمريكية بيروت ١٩٤٧م . وكتاب « اسمع يا رضا » ١٩٥٦م وهو مجموعة قصص لبنانية .

٥ ـ وأخيراً وليس آخرًا يأتي **سعيد عقل** الذي أصدر كتاباً أطلق عليه اسم (ياره ـ شعر) هذا الكتاب مطبوع بأحرف الأبجدية اللاتينية مضافاً إليها رموز وإشارات جديدة حتى تؤدي أصواتاً ليست في اللغة اللاتينية ، وقد كتب على غلافه « أول كتاب لبناني بالحرف اللاتيني » .

وسندرس قبل أن نبدأ بالرد على شُبَهِ الدعاة إلى العامية بشيء من التعليل مارون غصن ، وأنيس فريحة ، وسعيد عقل .

١ ـ **مارون غصن** : يرجع نشاطه في ميدان الأدب إلى ما بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م ؛ حيث نشر في بيروت عام ١٩١١م « بستان السلوى » وفيه روايات كانت قد نشرت في جريدة « البشير » التي كان يصدرها اليسوعيون ، ثم أصدر كتاباً آخر اسمه « درس ومطالعة » ١٩٢٤م وفيه مقالة بعنوان « حياة اللغة وموتها ـ اللغة العامية » ثم وسّعها في كتاب مستقل جعل عنوانه : « حياة اللغات وموتها ـ اللغة العامية » وأصدره في أواسط عام ١٩٢٥م وفيه يقول (ص ٣ وما بعدها) : « إن كل لغة سائرة إلى الفناء قياساً على ما عرف من تاريخ اللغتين اليونانية واللاتينية » وهو من خصوم الفصحى التي هي « من أصعب لغات الأرض » على حد زعمه في الصفحة الثامنة والثلاثين السطر الأخير .

وفيه : « ولأن الشعب متعلق كل التعلق بلغة آبائه وأجداده ، وما هذه اللغة

إلا اللغة العامية » (ص ٣٩) واللغة العامية التي يريد إحلالها مكان الفصحى هي اللهجة السورية ، أو اللغة العامية السورية على حد قوله (ص ٩ ـ ١٠) .

وفي عام ١٩٣٠م أصدر كتاباً باللغة العامية سماه « في متلو هالكتاب » .

٢ ـ أما **أنيس فريحة** : فقد ولد في قرية رأس المتن بلبنان ، عام ١٩٠٢م وتخرج في الجامعة الأمريكية عام ١٩٢٧م وحصل على شهادة دكتور في الفلسفة من جامعة شيكاغو ١٩٣٥م ، وهو من الطلاب الذين عنيت بهم الجامعة الأمريكية عناية مرموقة حتى أصبح مدرساً فيها ، وهو الآن أستاذ للغات السامية .

لم يكتف فريحة بالدعوة إلى ما دعا إليه **مارون غصن** من إحلال العامية مكان الفصحى ، بل دعا فوق ذلك إلى إحلال الأحرف اللاتينية مكان العربية ، نشر عدا ما ذكرناه من قبل مقالاً في مجلة الأبحاث ـ آذار ١٩٥٥م ـ عنوانه « هذا الصرف وهذا النحو ! أما لهذا الليل من آخر ؟ » معظمه تهكم سمج على اللغة الفصحى ، وفي أيلول ١٩٥٢م طبع كتاباً سماه « تبسيط قواعد اللغة العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد » تمنى فيه أن يرى عاملاً عسكريًّا سياسيًّا يفرض اللغة العامية على العرب (ص ١١ وما بعدها) ، ونحن نذكره ـ إن كان قد نسي أو تناسى ـ أن البلاد العربية عرفت جميع أنواع العوامل العسكرية : الإنكليز ـ الفرنسيين ـ الطليان ـ الأسطول الأمـريكي عام ١٩٥٨م .

وأخيراً « كتاب نحو عربية ميسرة » عام ١٩٥٥م ـ دار الثقافة بيروت ـ وفيه حملة مركزة على اللغة العربية الفصحى وعلى الأدب العربي .

وفي الكتاب استشهاد من الدكتور فريحة بما آلت إليه اللغات القديمة

في أوروبا ، ويتمنى أن يطبق على اللغة العربية ما صار إليه أمر اللغة اللاتينية ، دون أن يفطن إلى أن الأسوجيين والنروجيين والدنمركيين والألمان والفرنسيين والإسبان والبرتغاليين لم يكونوا لاتينًا ، ولا كانت اللاتينية يوماً لغة لهم ، وإنما كانت لغة جيوش محتلة نزلت في أراضٍ غريبة عنها ، ثم تشوهت في تلك الأراضي حيناً ، ثم ماتت .

أما أهل الشام والعراق فعرب تكلّموا هٰذه اللغة من زمن قديم . وحينما كان حسّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ والنابغة الذبياني يأتيان إلى الشام والعراق يمدحان الغساسنة والمناذرة فإنما كانا يمدحانهم باللغة العربية لا بالسريانية ، وكانت اليونانية واللاتينية والفارسية لغات غريبة في الشام والعراق .

وقد حاول فريحة أن يكتب بالعامية الصرفة ، وسنضرب مثلاً مما كتب في هذا المجال من كتابه « اسمع يا رضا » ورضا ابنه ، ويريد من هذا الكتاب إدخال السرور على قلبه وتسليته وتهذيبه عن طريق الحكاية والمثل والمغزى .

في هذا الكتاب قصة امرأة قروية كثيرة الشجار مع جاراتها ، ففي يوم من الأيام تشاجرت مع جارة لها ، وقامت كل منهما بعمل « منشر » ـ على حد تعبيره ـ للأخرى (منشر بمعنى كشف عن المعائب) قال ـ لا فض فوه ـ (ص ٨٠) .

تقول الواحدة : تفو على صباحك يالعينة ، يا كهينة ، يا قفا السرماية ، وتسكت لتسمع الجواب .

فتقول الثانية : تفو على شرفك يا فاجرة ، يا ساقطة ، يا عاهرة ، يا قفا المداس (!!؟) .

٣ ـ أما **سعيد عقل** : فهو من مدرسة فريحة ؛ يدعو إلى كتابة اللغة

العامية بالحرف اللاتيني ، وهو يختلف مع فريحة في أمر واحد ، أنيس يريد إحلال لهجة قريته (رأس المتن) مكان الفصحى ، وسعيد يريد أن يدون شعره بلهجة بلدته « زحلة » (!!) .

وفي أواخر شباط عام ١٩٦١م أصدرت مكتبة أنطوان في بيروت كتاباً لسعيد عقل عليه رباط بالحرف العربي والخط الفارسي مطبوع بالحبر الأحمر « أول كتاب بالحرف اللاتيني » اسم الكتاب (ياره ـ شعر) المقصود منه أن يدون شعراً بلهجة لبنانية معينة وبالحرف اللاتيني ، وبعد أن مر الكتاب أمام عيون الناس الذين لم يروا فيه أكثر من محاولة لا تذهب إلى أبعد من الكتاب الذي وضعت فيه ، خفت صوت صاحبه . وما إن حلّت بأمتنا كارثة حزيران عام ١٩٦٧م حتى عاد صوته من جديد يعلو بدعاية الاستعمار السالفة ، الاستعمار الذي يعد مثل هذه الدعوة سبيلاً إلى تقطيع أوصال البلاد العربية ، ويكفيه أن يخلق في كل بلد يريد أن يلقي عليه شباكه تيارات مختلفة ، إن التيارات المختلفة وحدها ، ولو لم يتحقق تيار منها ، كفيلة ببذر العداوة والبغضاء في المجتمع الواحد ، فإن لم تكن عداوة وبغضاء فنفور وجدال ، وهذا أيضاً كافٍ في نظر المستعمرين .

الرد على الشبه التي اتكأ عليها دعاة العامية ليروجوا لدعوتهم :

قبل أن نبدأ بالرد والتفنيد يجب أن نقرر ما يلي :

١ ـ إن اللغة العربية ليست غريبة على أفهام العامة ، إلَّا إذا أريد التقعر ، أما لغة الإنشاء العصرية فهي شائعة في الصحف والمجلات يفهمها الخاص والعام .

٢ ـ إن أسلوبنا اليوم ـ حتى في المجلات والصحف اليومية ـ أقرب إلى روح اللغة الفصحى ، وأجرى على أساليب الأقدمين من أسلوبنا بعد الحرب

الأولى وفي مفتتح القرن الذي نعيش فيه ، إن الأسلوب العربي يرقى باستمرار بخلاف ما جرت عليه الأساليب الأعجمية جميعها في التاريخ ، لقد كانت أساليب اللغات في الغرب تنحرف دائماً عن مستوى الكتاب إلى مستوى الكلام ، وكانت تلك الأساليب تمر في كل قرن أو قرنين بأزمة من النزاع بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية ، ثم تنفرج الأزمة بأن تخلي اللغة المكتوبة مكانها للغة المحكية ، ويظن أهلها أنهم قد حلوا مشكلة حادة ، وسرعان ما يمر قرن آخر من الزمن فإذا المشكلة التي واجهتهم بالأمس تعود من جديد أكثر حدة وأعظم إلحاحاً .

٣ ـ لا يجوز قياس العربية على اللاتينية ، لأن الفرق بين اللاتينية وفروعها أبعد كثيراً من الفرق بين الفصحى وفروعها العامية ، فالعامي الإنكليزي أو الفرنسي مثلاً ينظر إلى اللاتينية نظرة إلى لغة غريبة ، أما العامي العربي فإنه يفهم اللغة الفصحى ، وإذا فاته فهم بعض الألفاظ ، فإن المعنى الإجمالي يندر أن يفوته .

٤ ـ إن الزعم بأن اللغة العربية بدع في اللغات بامتياز المكتوبة فيها عن المحكية زعم باطل ، فالإنكليز يكتبون بلغة لا يفهمها عامتهم يسمونها علمية ، فالعامي من الفرنسيين لا يفهم أبحاث « **رينان** » في فلسفة التاريخ ، والعامي الإنكليزي لا يفهم ما كتبه « **سبنسر** » في فلسفة العمران ، والعامي من الألمان لا يفهم ما كتبه « **شوبنهور** » في فلسفة الوجود .

٥ ـ لقد استطاعت العربية البدوية ـ كما وصفها فريحة ـ أن تساير الحضارة في بغداد ولم تنهزم أمام الفارسية أو اليونانية . واستطاعت أن تسايرها في الأندلس بعد أن فرضت نفسها على البيئة الجديدة ، واستطاعت أن تساير ألواناً من الحضارات في خلال أربعة عشر قرناً في بيئات متباينة

أشد التباين ، وصمدت أمام الغارات المدمرة وخلال الاحتلال الأجنبي الطويل .

إن دعاة العامية والحرف اللاتيني يزعمون أن العامية والحرف اللاتيني أهون تعلمًا من اللغة الفصحىٰ ، فهل كان هذا الزعم صحيحاً ؟

في اللغة العربية ثلاث حركات ؛ تأتي مدودًا طويلة (ألفًا ـ واوًا ـ ياءً) وتأتي قصيرة (فتحة ـ ضمة ـ كسرة) وهذه لا تحتاج في اللغة العربية إلى قاعدة ولا ملاحظة ، أما في اللغات الأوروبية ، فالمثقف العربي يعلم أن التهجئة واللفظ في الإنكليزية مثلاً لا يجريان على قاعدة معينة ، فإن الحرف A يلفظ في كل كلمة من الكلمات التالية بأداء مختلف : Father, Man, All .

وكذلك الحرف U يلفظ في كل كلمة من الكلمات التالية بأداء مختلف : Sun, Sugar, Treasure .

والقارىء العربي يدرك ما في التهجئة الفرنسية من الشذوذ إذا نظر إلى الكلمات التالية : Ne, Sel, En, Fine, Faim, Femme, Faisait, Patte, Passer

إن مطابقة الصوت المسموع للصورة المقروءة في اللغة العربية أوضح منها في الإنكليزية والفرنسية اللتين يتقنهما معظم المتذمرين وصانعي الفتن من الهدامين .

فالفرنسي يسقط من النطق حروفاً عدة من أواخر الكلمات في كثير من الأحيان ، والإنجليزي يفعل ذلك في حرفي (O,H) في كلمة Honour مثلاً ، وحرفي (GH) في : Right و Through وهو بعد ذلك يكتب الياء على ست صور متعددة

(y, e, ea, ee, ei, ie,) لا يميز إحداها عن الأخرى منطق أو قاعدة ، بينما هو

لا يكتب في العربية إلا ياءً بشكل ثابت .

وحرف الكاف لا يكتب في العربية إلا كافاً ، وهو يكتب في الإنجليزية على صورة عدة هي (Ch, Q, Ck, C, K) وقس على ذلك ما لا سبيل إلى إحصائه من الأمثلة العديدة في مختلف الأصوات ، ثم إن لكل صوت في العربية حرفاً واحداً يصوره ، وبعض الأصوات اللغوية لا يصورها إلا حرفان في الإنكليزية مثل : حرف الشين العربي الذي يقابله في الإنجليزية (Sh) وحرف « الذال » الذي يقابله (Th) .

وميزة أخرى للكتابة العربية هي أن الحرف العربي لا يقرأ إلا على صورة صوتية واحدة ، وليس كذلك الحرف الإنكليزي .

فحرف C ينطق س أحياناً وينطق ك حينًا آخر ، و THتنطق ذ حينًا وتنطق ث حينًا آخر .

هذه فضلاً عن الأحرف الخرس في اللغتين والتي تكتب ولا تقرأ .

وبعد : فإننا لا ننكر أن اللغة العربية تحتاج إلى جهد في إتقانها ؛ ولكن الجهد الذي تحتاج إليه في ذلك لا يعد شيئاً بالنسبة إلى الجهد الذي تحتاجه أهون اللغات في الغرب . ويحسن أن نعلم هنا أن اللغة الفرنسية الدائرة بين المثقفين هي لهجة أهل باريس ، وأن لهجة ابن مرسيليا ولهجة ابن الإلزاس ، ولهجة ابن المقاطعات الشمالية الغربية وغيرها تختلف كلها عن لهجة ابن باريس ، وتختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً حتى إنها لا تعد في اللهجات المتآخية بل في اللغات المتباعدة ، ويحسن أن نورد هنا قولاً لـ« **أنطوان مايه** » العالم اللغوي الفرنسي :

« إن أبرز ما يسترعي الانتباه هو ذلك الذي يعترضنا في كل مكان من أوروبة تقريباً . إن في كل منطقة مجموعة من اللهجات المحلية ترجع إلى أصل

واحد ثم لغة مكتوبة هي لغة الحضارة ، تصلح لجميع أوجه الاستعمال العامة فيما يتعلق بمجموع البلاد التي تتكلم اللغة ، ثم هي لغة الحكومة والمدرسة والدواوين والصحافة ... وفي مثل هذه الأحوال يكون للغة المكتوبة أثر بالغ في اللهجات المحلية » . إن العالم الفرنسي يعد من الطبيعي ومن حسن الحظ أن يكون لكل منطقة لغة مكتوبة ، بينما نحن العرب نكتب ونقرأ كلنا من الخليج إلى المحيط بلغة واحدة .

ثم إن تدوين كل لهجة يقصر تلك اللهجة على مجموع من الناس أقل عدداً وشأناً من القوم الذين كان هذا المجموع يشركهم في الفصحى ، وتلك خطوة تقطع أوصال الأمة الواحدة والشعب الواحد ، وتجعل الأوصال المقطعة أسهل ضياعاً من الناحية القومية والسياسية والثقافية ، وتكرس الانفصال ، وتجعل من الأمة الواحدة أممًا مختلفة لا رابط يشدها ويؤلف بينها ، وهذا ما يريده دعاة العامية والحرف اللاتيني من بني جلدتنا ، وهو غاية ما يرمي إليه من أعدهم ونفخ فيهم ودفعهم إلى هذه الدعوة ؛ لذلك لا بد من محاربة هذه الدعوات أيًا كان مصدرها وقائلها .

صحيح أن الدعوة إلى العامية جوبهت بمقاومة عنيدة من جمهور المفكرين والعلماء ، ولم يستسغها إلا أصحاب المصلحة من الذين يمكرون بالأمة وعقيدتها ، ولم تنجح ـ ولن تنجح إن شاء الله ـ في تحقيق غايتها بالقضاء على العربية والإسلام بعد ذلك ، لكن محاولات هؤلاء تكريس العامية لما تنته بعد ، بل هي سائرة في طريق مرسوم حتى بتنا نرى استعمالاً لها في مجال التعليم (عدم التحدث بالفصحى من جمهور كبير من المدرسين والطلبة) وفي المحافل والمؤتمرات السياسية ، وفي معظم المسلسلات التليفزيونية والأفلام السينمائية ... وغير ذلك كثير ، مما يستدعي تنبهاً وحذراً وحيطة ، ووضع مناهج عملية للوقوف في وجه هذه المحاولات التي تبذل لتكريس استخدام

العامية ... والتأكيد على ضرورة استخدام الفصحى في شتىٰ مجالات الحياة ، وفي مختلف المراحل التعليمية بشكل خاص ، دون نظر إلى صعوبة مدّعاة ، أو عجز موهوم عن استيعاب علوم العصر ، وما إلى ذلك من مفتريات ودعاوىٰ لا تصمد أمام النظر الدقيق والموضوعية الحقة .

أهم مراجع البحث :

أباطيل وأسمار : محمود شاكر .

القومية الفصحى : الدكتور عمر فروخ

الاتجاهات الوطنية في الأدب : الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله .

تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر : الدكتورة نفوسة زكريا .



ملحق

ضرورة التفرقة بين حب آل البيت
والتجني على حقائق التاريخ

ملحق

ضرورة التفرقة بين حب آل البيت
والتجني على حقائق التاريخ

● **لا يخفى على الأستاذ خالد محمد خالد ، ولا على غيره من المهتمين ، وهو الأزهري ، ما بذله جامعو السنة النبوية ومدوّنوها في تنقيتها وتمحيصها وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ، والتزوير الضارّ الذي قامت به طوائف وشيع ، لا سيما في أيام الفتن التي عصفت بالمسلمين منذ أواخر خلافة عثمان ذي النورين رضي الله عنه وما بعدها .. حيث انقسم المسلمون ، وبدأت بعض الفئات أو الطوائف تضع من الأحاديث ما يخدم غرضها . ويوافق هواها ، ويحقق بالتالي ما تتوهمه مصلحة لها ..**

هذا على الرغم من التحذير الشديد ، والوعيد المخوف الذي يقصم الظهور : « من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .. » .

فإذا كان هذا الاجتراء على الوضع في مجال السنة النبوية والحديث الشريف : فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع التاريخ ؟ ! . وقد قيل قديماً : (وما آفة الأخبار إلا رواتها) .

وها هو شيخ المفسرين والمؤرخين المسلمين أبو جعفر الطبري رحمه الله

يقول في مقدمة تاريخه : (... فما كان في كتابي هذا مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يُعْرف له وجه في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قِبلنا ، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أديناه على نحو ما أُدِي إلينا) ويسترسل رحمه الله موضحاً ومعتذراً عن هذا الإيراد فيقول : (... إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج ...) ولو أنه كان يروي الأخبار ليحتج بها ، أو ليرتب عليها حكماً وقضية ، كالحديث الشريف مثلاً ، لما تركها هكذا ولالتزم فيها مناهج المحدِّثين في الجرح والتعديل وقواعد النقد الصحيح .. ولكنه أورد الروايات بأسانيدها تاركاً لمن أراد الاحتجاج أن يتثبت ويتحقق ..

ثم إننا نعيش الآن في عصر تقدمت فيه وسائل الإعلام وتطورت ، وأصبح الاتصال بين بني البشر ميسوراً سهلاً مهما كانت المسافات بعيدة .. في عصر ساد فيه التدوين والتأريخ ، وتقدمت وسائل الكتابة والطباعة والنشر تقدماً كبيراً .. وعلى الرغم من هذا كله نجد أن كثيراً من الوقائع والأحداث التي قد يكون الإنسان معاصراً لها أو معايشاً إياها ، دونت وتناقلها الناس على غير حقيقتها ، أو غير الوجه الذي يجب أن تدون عليه : فكم من هزيمة قدمت للناس على أنها نصر مؤزر ، وكم من متزعم أو متسلط رويت سيرته وقدمت على أساس أنه من أعدل العادلين ، وكم من مظلمة اجتماعية قدمت على أنها عدالة بين الناس ومساواة في التوزيع .. إلخ ..

هذا بالنسبة لأحداث عاشها أو يعيشها الإنسان في عصره . فما بالك بأحداث القرون التي تطاولت ، ونقلت مشافهة في بداية أمرها ثم دونت ، وكثيراً ما كانت تدون أحداث بعض الدول والرجال في عهود معادية لهم . قامت على أنقاضهم ، وكل همها تتبّع عوراتهم ، وقد تدعي عليهم ما ليس فيهم ..

في ذكـــرى كربـــــــــــلاء

والذي دعا إلى هذه الكلمة ما كتبه الأستاذ خالد محمد خالد في مجلة « الدوحة » القطرية العدد الحادي والسبعين ، تحت عنوان : « في ذكرى كربلاء العظيمة » حيث لم يكتف الأستاذ خالد ببيان أن الولاء يجب أن يكون للحق وحده دون غيره ، وأن خروج الحسين رضي الله عنه لم يكن لتحقيق مغنم أو لبناء مجد شخصي .. وإنما كان لإحقاق الحق ، وكان تضحية جليلة في سبيله حيث تبقى مثل هذه التضحيات منائر تضيء طريق الحق للسالكين .. ولو أنه اكتفى بذلك لكان حسبه ، حيث إن الحسين رضي الله عنه قتل شهيداً مظلوماً .

ولكنه دندن حول أمور أفضى أصحابها إلىٰ الله عز وجل ، وجاء بروايات يلمح القارىء من خلالها تكفيراً لواحد من صحابة رسول الله ﷺ .. وليته عند اختياره ما اختار من روايات قام بتمحيصها ما دام يريد أن يرتب عليها قضية ، كما كان يفعل أسلافنا من المحدّثين رحمهم الله تعالى ، وليته أيضاً ذكرها للقارىء بسندها ، أو ذكر المصدر الذي استقاها منه ، حيث لا تخرج في حقيقتها عن كونها رواية من مجموعة روايات تحتمل الصدق وغيره ، وقابلة للفحص والاختبار ..

فأبو سفيان بن حرب الذي أورد الأستاذ خالد الرواية التي تشكك بإسلامه ناقلاً على لسانه وهو يوصي أهل بيته بالتمسك بالملك قوله : (لقد صار الأمر إليكم ، فلا تدعوه يفلت ، وتلقفوه تلقف الكرة ، فإنما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار ..)

وما زعم من أن أبا سفيان وقف على جدث (قبر) سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وهو يقول : (يا أبا عمارة ، إن الأمر الذي اجتلدنا

عليه بالسيوف قد صار إلىٰ غلمان بني أمية ..)

ما الذي صار إلى بني أمية ؟ الذي صار إليهم ـ بزعم الأستاذ خالد محمد خالد ـ هو الملك ، فهل كان حمزة رضي الله عنه يجتلد مع بني أمية على الملك ، أم أنه كان يجاهد لإعلاء كلمة الله تعالى وقد استشهد في سبيلها ؟ !

أبو سفيان بن حرب هو الذي ولّاه رسول الله ﷺ على « نجران » ، ومات عليه الصلاة والسلام وهو أمير عليها ... فما قيمة ما يورده الكاتب من رواية بجانب اعتماد رسول الله ﷺ له في الإمارة ، وهي أمانة ومسؤولية ؟ ! .

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ .

قال : فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : « **يا أباذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدّى الذي عليه فيها** » .

كما روى الحاكم في صحيحه ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « **من استعمل رجلاً من عصابة ـ جماعة ـ وفيهم من هو أرضى لله منه ـ أكفأ ـ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين** » .

وكذلك ما روى الحاكم في صحيحه ، وأحمد في مسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « **من ولي من أمر المسلمين شيئاً ، فأمَّر عليهم أحداً محاباة ، فعليه لعنة الله** » .

فلو لم يكن أبو سفيان مسلماً أهلاً لهذه المسؤولية ، أكان عليه الصلاة والسلام ولاه على نجران ، وهو الذي رفض أن يولي أباذر لأنه ضعيف لا يستطيع حمل المسؤولية ؟ ! .

وكذلك ألم يكن كثير من أمراء النبي ﷺ على الأعمال من بني أمية ؟ . ألم يستعمل عَتَّاب بن أسيد بن أبي العاص ، ويستعمل خالد بن سعيد ابن العاص ، وأبان بن سعيد وغيرهم .. ؟ (منهاج السنة : ٢ / ٢٢٢ ـ المحبّر ، لمحمد بن حبيب : ١٢٦) .

ألم يشارك أبو سفيان في معارك الفتح الإسلامي ؟ فلو لم يكن صادقاً في دينه ، وما يدري أجنة أم نار !! أكان يعرض نفسه للهلاك في اليرموك ؟

عن أبي أمامة ، وكان شهد اليرموك هو وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما ، قال : « إن النساء قاتلن يوم اليرموك ، فخرجت جويرية بنت أبي سفيان وكانت مع زوجها وأصيبت بعد قتال شديد ، وأصيبت يومئذٍ عين أبي سفيان ، فأخرج السهم من عينه أبو خيثمة .. » (منهاج السنة : ٣ / ٤٠١) .

ويروي ابن كثير في (البداية والنهاية : ٧ / ٩) أن أبا سفيان بعد أن وعظ المقاتلين وشجعهم ، وذكرهم الله عز وجل ، ذهب أيضاً إلى النساء فوصاهن ، ثم عاد فنادى :

« **يا معشر أهل الإسلام ، حضر ما ترون ، فهذا رسول الله والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم ... ثم سار إلى موقفه رحمه الله** » .

أهذه كلمات رجل ما يدري أجنة أم نار ، أم كلمات قلب عامر بالإيمان ، مؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ ؟ !

ويبدو أن الأستاذ خالد محمد خالد لم يطَّلِع على رواية التابعي الجليل سعيد بن المسيب عن أبيه الذي كان حاضراً غزوة اليرموك ، قال سعيد عن أبيه :

هدأت الأصوات يوم اليرموك ، فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول : « يا نصر الله اقترب .. الثباتَ يا معشر المسلمين .. »

فنظرنا ، فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد .. (البداية والنهاية : ٧ / ١٤) .

لقد ثبت يومها ابنه يزيد ، كما ثبتت ابنته جويرية ، وقاتل قتالاً شديداً ، وقد أوصاه والده قائلاً :

« يا بني ، عليك بتقوى الله والصبر ، فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلّوا أمر المسلمين ؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة .. فاتق الله يا بني ، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر ولا أجرأ على عدو الإسلام منك .. »

فقال يزيد رضي الله عنه : أفعل إن شاء الله ، وقاتل قتالاً عظيماً . (البداية والنهاية : ٧/١٣) .

واستمع إلى قوله وهو يتجول بين الصفوف قبيل المعركة : « الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .. » (الطبري : ٣ / ٣٩٧ ـ ابن كثير : ٧ / ٩) .

صحيح أن أبا سفيان كان من أعدى أعداء رسول الله ﷺ قبل إسلامه : بذل الأموال والجهود ، وجيّش الجيوش لقتاله والصد عن دين الله عز وجل ، لكنه عاد فأسلم ، والإسلام يجبّ ما قبله ، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لعمرو بن العاص ، وقد أراد الدخول في الإسلام وقال : أريد أن أشترط ..أن يغفر لي . فقال عليه الصلاة والسلام :

« **أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ .** » .

ودخل أبو سفيان في دين الله عز وجل ، كما فعل كثير من أعداء رسول الله ﷺ كعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه مثلاً ، الذي بذل أقصى ما يستطيع في سبيل رفعة هذا الدين حتى استشهد يوم اليرموك ومعه ولده علي رضي الله عنهما ، وهو الذي قال عندما اشتد وطيس المعركة يوم اليرموك : قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن ، وأفر منكم اليوم ؟ ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين .. ولما ترجّل يقاتل الروم ورآه خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وناداه أن يرفق بنفسه ، قال له : مهلاً يا خالد ، فوالله لقد قاتلت رسول الله ﷺ ، أفلا أذود الآن عن الإسلام وأرجو أن تكون هذه بتلك ؟ . ومشى حتى قتل رضي الله عنه ..

وفي صحيح البخاري : لما أسلمت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، قالت : « **والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إليَّ أن يعزوا من أهل خبائك ..** »

التجني على حقائق التاريـــــخ

فما هي مسوغات التشكيك من الناحية العلمية ؟ وما هي فوائده لمجتمع المسلمين اليوم من الناحية العملية إلا تعميق الهوة ، وإيجاد الشروخ ، وتكريس التنابذ ، وإثارة الأحقاد ؟ .

أيقبل الأستاذ خالد محمد خالد أن يُنسب إليه القول بفصل الدولة عن

الدين ، وأن الإسلام كالنصرانية ؟ ! . أم أنه يرد على من ينسبه إلى هذا ، بأنه أعلن توبته وتراجعه ، وأنه سجل ذلك على نفسه .. (ويبدو أنني يومها ـ عندما قال إن الدين لا يعنيه أن يكون دولة ولا يعنيه أن يتدخل في بناء الدولة ـ كنت متأثراً بتصور مسيحي عن الحكومات الدينية ، لا سيما تلك التي قامت تحت ظل الكنيسة في أوروبا في عصور الظلام ، ناسياً يومها أن الإسلام مختلف جداً ، وأن الدولة بشكلها ومضمونها كانت تعنيه إلى أبعد مدىً .. وفي الإسلام بالذات ، لا يمكن عزل الدين عن الدولة إلا إذا أمكن عزل الدين عن الدين ..) (جريدة الأخبار القاهرية العدد : ٧٨٥٨ الثلاثاء ٢٣ أغسطس ١٩٧٧م) .

وأكد أن الإسلام دولة ودين ، وأنه أصدر كتاباً سماه « الدولة في الإسلام » .

فإذا كان الأستاذ خالد لا يقبل ، بعد أن تراجع ، أن ينسب إلى ذلك الموقف الذي تبرأ منه !! فكيف يجيز لنفسه أن ينسب أبا سفيان إلى موقف تبرأ إلى الله عز وجل منه بقوله وفعله وجهاده في سبيل هذا الدين ؟ !

ونحب أن نلفت نظر الأستاذ خالد محمد خالد إلى ما ورد في صحيح البخاري، في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ وغالباً أنه قد أطلع عليه لكنه لم يذكره، من قول رسول الله ﷺ، وهو على المنبر، والحسن رضي الله عنه إلى جنبه، ينظر إليه مرة وإلى الناس مرة.. ثم قال: «**إن ابني هذا سيد وسيصلح الله تعالى به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين**» فقد أخبر أن الحسن رضي الله عنه سيد، وأنه يصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وقد تحقق ذلك في تنازل الحسن رضي الله عنه لمعاوية بن أبي سفيان عن الأمر بعد استشهاد أبيه علي رضي الله عنهم جميعاً، واجتمعت الكلمة على معاوية، وسمي العام عام الجماعة، وذلك سنة أربعين من الهجرة فسمى النبي ﷺ الجميع مسلمين.

إن الحقيقة التي لا يجادل فيها ، أننا نقرأ في كتب التاريخ كثيراً من الأخبار التي نسبها بعض الشعوبيين إلى بني أمية وبني العباس .. هي أحط ما ينسب إلى خلفاء ورجال ، ونقرأ كذلك في كتب القصاصين أخباراً منسوبة إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب هي أقبح كثيراً مما نقرأه لدى المؤرخين ، والحقيقة التي يجب أن لا تغيب عن الأذهان : **أن النزاع السياسي بين هذه الشيع المختلفة هو الذي أدخل كثيراً من الشوائب في التاريخ الإسلامي ، مما جعل الحقائق التاريخية ، ولا سيما فترة صدر الإسلام والأمويين ، تشبه الدرّ الملقى بين أشواك ، يحتاج مريد استخراجه إلى أناة وروية وصبر وتقليب نظر في وجوه السلامة من أذى الشوك ، وليس هناك أسلم من طريقة المحدِّثين** .. وإلا كان الظلم والتجني ، ونسبة أناس إلى أمورٍ هم منها براء..

أما يزيد بن معاوية الذي يسميه الكاتب بـ « يزيد القرود » ويقول عنه : إنه كان يتلهى عن أمر الإسلام والمسلمين بفهوده وقروده ـ هكذا ـ فقبل أن نتطرق لهذه النقطة التي أثارها الأستاذ خالد ، واعتمدها وبنى عليها حكمه ، نقول : إن قتل الحسين رضي الله عنه معصية لله ورسوله ﷺ ، ممن قتله أو أعان عليه ، أو رضي به ، كائناً من كان .. وهو مصيبة أصيب بها المسلمون من أهله وغير أهله ، وهو في حقه شهادة له ، ورفع درجة ، وعلوّ منزلة .. وقد قتل مظلوماً شهيداً .

ونذكر بما جاء في كتاب (أعيان الشيعة : ١ / ٤٣) لمحسن الأمين العامليّ ، وهو من علمائهم ، حول مقتل الحسين رضي الله عنه ، يقول صاحب الكتاب : [ثم بايع الحسينَ أهلُ العراق ، عشرون ألفاً ، غدروا به ، وخرجوا عليه وبيعته في أعناقهم ، فقتلوه ..] .

أما يزيد بن معاوية فإنه ولي أمر المسلمين بعد والده ، ونحن لا نريد هنا أن نبرئه من الخطأ ، وقد أفضى إلى الله عز وجل الذي يحاسبه ، فإن شاء

عذب وإن شاء غفر .. ولكنا نقول : إن الأخطاء التي حدثت وارتكبت في عهده لا تجيز لنا أن ننسب إليه ما ليس فيه ، والأمانة العلمية تقتضينا التثبت أولاً ، وعدم تضخيم هذه الأخطاء ووضعها تحت المجهر ـ ولو كان فيها أحقاد وسخائم قرون متطاولة ـ علينا أن نذكر الحقيقة كاملة ، ولا نكتفي بالسوء من القول وباطله .. وهذا محمد بن علي رضي الله عنهما (ابن الحنفية) يشهد ليزيد بن معاوية بالصلاح والخير ، فقد أورد ابن كثير في تاريخه المناقشة التي جرت بينه وبين الثائرين من أهل المدينة على يزيد ، وكان مما قاله : **[ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته ، وأقمت عنده ، فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، يسأل عن الفقه ملازماً للسنة]** وذكر الملاّ علي القاري في (الأسرار المرفوعة : ٢٧٧) : **أن الأحاديث في ذم يزيد بن معاوية لا تصح ... وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ** أنه قال : « **أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم** » .

وكان هذا الجيش بقيادة يزيد بن معاوية في عهد والده ، وفيه جلة من الصحابة رضي الله عنهم ، كأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي استشهد ، ودفن تحت أسوار القسطنطينية ، ولا يزال قبره إلى الآن هناك .

وفي الصحيح أيضاً عن أبي نعيم قال : سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وسأله رجل عن المحرم يقتل الذباب ، فقال : يا أهل العراق ، تسألوني عن قتل الذباب ، وقد قتلتم ابن بنت رسول الله ﷺ ، وقد قال النبي ﷺ : « هما ريحانتاي من الدنيا » .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في (منهاج السنة : ٢ / ٢٤٩) :

والذي نقله غير واحد أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين رضي الله عنه ،

ولا كان له غرض في ذلك ، بل كان يختار أن يكرمه ويعظمه كما أمره بذلك والده .. ولكنه كان يختار أن يمتنع الحسين من الولاية والخروج ... فلما قدم الحسين ، وعلم أن أهل العراق يخذلونه ويسلمونه ، طلب أن يرجع إلى يزيد ، أو يرجع إلى بلده ، أو يذهب إلى الثغر .. فمنعوه من ذلك حتى يستأسر ، فقاتلوه حتى قتل مظلوماً شهيداً رضي الله عنه .. **وإن خبر مقتله لما بلغ يزيد وأهله ساءهم ذلك وبكوا على قتله ... ولم يسْبِ له حريماً أصلاً ، بل أكرم أهل بيته وأجازهم حتى ردهم إلى بلدهم** .. وقال : لعن الله ابن مرجانة ـ يعني عبيد الله بن زياد ـ أما والله لو كان بينه وبين الحسين رحم لما قتله ، قد كنت أرضى من طاعة أهل العراق دون قتل الحسين . (انظر أيضاً ابن كثير والطبري في حوادث سنة ٦١هـ) .

لكنه مع ذلك ما انتصر للحسين ، ولا أمر بقتل قاتله ، ولا أخذ بثأره .. وما عدا ذلك فتزّيدٌ وافتراء ..

إن الوضع في الأخبار والتزيّد فيها ، والتجني على حقائق التاريخ كان يتم قديماً لمصلحة الشعوبية عدوة الإسلام والمسلمين .. وفي عصرنا الحاضر يتم هذا على أيدي أصحاب النزعة الاستعمارية الذين كان ولا يزال همهم : إثارة أحقاد الماضي الدفينة ، وإيقاظ سخائم النفوس ، بغية إبعاد المسلمين عن أمجاد تاريخهم التليد بقطع صلتهم بالجيل القدوة ..

من هنا وجب على كل من يتصدى لحوادث ذلك التاريخ اليوم ألا يختار من الروايات إلا ما يصح ، حسب قواعد النقد العلمي التي وضعها أسلافنا رحمهم الله ، ليحقق للمسلمين خيراً في حياتهم المعاصرة ، وينير الطريق الصحيح للأجيال القادمة ..

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة